


اهداءات ۲۰۰۱
اد. محمد سود كيا ايج

الدكتور محمد بن هبط

الشرق الجديد


مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

مطبعة مخيمرت ٩٠١١٩٣

للمؤلف

- ١٩٦١ الامبراطورية الإسلامية
١٩٥٥ هكذا خلقت
١٩٥٣ مذكرات في السياسة المصرية ثان
١٩٥١ أول
١٩٤٥ ثان
١٩٤٤ أول
١٩٤٢ أبو بكر الصديق
١٩٣٧ في منزل الوحي
١٩٣٥ حياة محمد
١٩٣٣ ثورة الأدب
١٩٣٢ ولدى
١٩٢٩ تراجم
١٩٣٥ عشرة أيام في السودان
١٩٢٥ في أوقات الفراغ
١٩٢٣ ثان
١٩٢١ أول
١٩١٤ زينب
١٩١٣ دين مصر العام - بالفرنسية

تحت الطبع :

المعرفة أساس الايمان

خلافة عثمان

أساطير الأولين (مجموعة قصص)

يوميات باريس

مذكرات في السياسة المصرية (الجزء الثالث)

مقدمة

بسم

الاعلم محمد حسين هيكل

« الشرق الجديد »، مجموعة من فصول الدكتور هيكل ومقالاته
تتظمها فصول هذا الكتاب لأول مرة .

وهو يبدأ ببيان ما كان بين الشرق والغرب من صلات تنوعت
وتعددت خلال القرون وازدهرت حيناً ثم لم يمنع تضاولها من بعد
أن تعود لتبرز في صورة جديدة ، قد تكون بألفه أقصى درجات
العنف ، أو تكون علاقة سلم لا يبلغ درجة التفاهم ، حيناً آخر .
وهذا التطور في صورته المختلفة ، قديمها وحديثها ، هو موضوع الجزء
الأول من هذا الكتاب .

ولئن كان مقرراً اليوم أن على الشرق أن يسرع الخطى إلى إقامة
حضارة جديدة في ربوعه ، يمزج في أصولها بين مثله الروحية التي قامت
عليها حضارته الأولى وبين مقتضيات حياته المادية في هذا العصر ،
مزاجاً يكفل التوازن بين جانبي الحياة الروحي والمادى ، فإن السبيل
الصحيح ، الذي لاسبيل غيره ، للكشف عن مقومات هذه الحضارة
المتوازنة وتوضيح معالمها وميزاتها هو الإدراك السليم لحرية الفكر

بأوسع ما يتسع له هذا اللفظ من المعاني ، لأن تلك الحرية هي الوسيلة المباشرة لنشر الأفكار بين الجماعات ، فتتولد عنها الحركات الفكرية التي تعتبر الأساس الذي لا تقوم حضارة بدونه .

على أنه إذا كان لقيام للحضارات إلا على أساس حركات فكرية عميقة الجذور في الجماعات المختلفة ، فإن الثورات والحروب نتيجة كذلك لنوع آخر من الحركات الفكرية لا تلبث أن تدفع بالناس إلى الثورة على المفاهيم والقيم الموروثة التي تسربت إليها عوامل الاضطلال فضعفت ثم حطمتها الحرب أو الثورة فيما حطمت فنقدت بذلك نهائياً قدرتها على صيانة السلام بين الأمم أو حماية نظمها الاجتماعية ، فوجب أن تقوم على أنقاضها أفكار وقيم جديدة تتفق مع ما تسببه إليه الجماعة في طورها الجديد .

والحركات الفكرية التي تقوم على أساسها الحضارات ، وتلك التي تؤدي إلى قيام الثورات والحروب . وأثرها جميعاً في بناء الأمم بعامه ، وأمم الشرق بصفة خاصة . كلها موضوع الجزء الثاني من هذا الكتاب .

وكيف لحديث الشرق أن يكتمل دون أن يذكر فيه المهاتما غاندى « روح الهند العظيم في العصر الحاضر » . وغاندى ، كما يصفه الدكتور هيكل ، من بناء هذا القرن العشرين ، لا لمجهوداته السياسية فحسب ، تلك المجهودات التي انتهت إلى حصول الهند على استقلالها وحربتها لتصبح من بعد قوة ذات وزن في أمور السياسة الدولية ، بل لمنهجها الاجتماعي الذي استهدف به تحرير المنبوذين ومساواتهم بسائر أبناء

الهند ، ولا تجاهه الإنسانى الرفيع الذى سما فيه بالكرامة الإنسانية
للناس جميعاً ، دون تفرقة مهما كان سببها ، فوق جميع الاعتبارات .
واهتمام الدكتور هيكل بثقافة الشرق الأقصى وتطوره متصل
على صفحات « السياسة » وغيرها من الصحف والمجلات بما كان ينشره
فيها من المقالات بين الحين والحين ، إلى أن دعت حكومة الهند فى ١٩٥٣
للاشتراك فى ندوة دعت إليها عشرة من كبار مفكرى العالم لدراسة
أساليب غاندى ومدى نجاحها فى المحافظة على السلام ، فأتاح له ذلك أن
يدرس فى استفاضة حضارة هذه البلاد وتطورها ونهضتها الأخيرة دراسة
دوكن خلاصتها فى عدد من المحاضرات والمقالات التى نشرت من قبل فى
« السياسة » . وهذه المحاضرات هى قوام الجزء الثالث من هذا الكتاب .

* * *

ولقد اتخذت كلية الشرق فى هذا العصر معانى متعددة تختلف باختلاف
المجال الذى تستعمل فيه . فهى فى الفنون والآداب تختلف عنها فى السياسة
والاجتماع ، وهذه جميعاً قد تختلف كثيراً أو قليلاً عن معناها الجغرافى
البحث . فنحن حين نتحدث عن الأديان السماوية نقصد بالشرق
مصر وفلسطين وجزيرة العرب ، وحين حديثنا عن غير ذلك من
الأديان نقصد الصين والهند وما اصطلح اليوم على تسميته بالشرق
الأقصى . وحين يكون الحديث فى السياسة نقصد بالشرق عادة روسيا
السوفيتية وما يدور فى فلكها من البلاد الشيوعية ، وحين تكون
الفنون هى موضوع كلامنا ينصرف معنى الشرق إلى الفن الفرعونى
أو الفن الهندى القديم أو إلى الفنون الفارسية والإسلامية وما إليها .

وليس حتماً أن تتطابق معاني الشرق المتعددة على هذا النحو على معنى الشرق الجغرافى ، بل قد يشمل بعضها مناطق هى من صميم الغرب سرت فيها روح الشرق ، وقد يعزل من الشرق مناطق أخرى أقرب فى تفكيرها وحياتها إلى ناحية الغرب .

وموضوعات هذا الكتاب تتصل بأكثر من معنى من هذه المعانى ، وهى ترتبط كلها فى النهاية بهذه النهضة السارية فى أنحاء الشرق جميعاً ، والى تستهدف بعث الحضارة الأصلية لبلاد التى يتمتع منها الشرق العربى بنصيب وافر . وإذا قلنا إن الهدف بعث الحضارة الأصلية لبلاد الشرق فليس معنى ذلك أن نقيم الفرعونية فى مصر والفينيقية فى الشام ، والآشورية فى العراق مثلاً كانت قائمة فى كل منها منذ بضعة آلاف من السنين . . . كما اعتقد البعض فى وقت من الأوقات ، معترضين بأن إبراز هذه الحضارات والدعوة إلى بعثها غير مستطاع فى عالم اليوم ؛ لأن فيه تجاهلاً لعوامل الوحدة بين بلاد الشرق العربى والى صاغها التاريخ فى قوالبه التى يرتبط بعضها ببعض بأوثق رباط . والمقصود ببعث الحضارة الأصلية للشرق إبراز ما كان فى هذه الحضارات من وجوه الشبه وعوامل الاتصال بين الشعوب المختلفة . حينئذ ، فنعمل على تقويتها ووصلها بما جدم بعد على بلادنا من تطورات لأن تاريخ العالم وحدة لا سبيل إلى انفصامها ، وإن الحضارات تقوم فيه بعضها على أثر بعض دون أن يفنى بعضها بعضاً أو يقضى عليها لأنها جميعاً حلقات فى سلسلة متصلة تندمج معالم بعضها فى بعض مادامت متفقة مع تطور الإنسانية وتجدها .

وقد كتب الدكتور هيكل في ذلك يقول . . . « إن دراسة هذه الحضارات^(١) الغابرة التي قامت في مصر والشام والعراق وصور الشبه وصور الاختلاف بينها من شأنه أن يلقي كثيراً من الضياء على ما تطورت إليه الحضارة الإسلامية خلال هذه الخمسة عشر قرناً ووجهت أثناء عصور طويلة منها مصير العالم ، وهي تزدد كل يوم انتشاراً وإن عدت عليها من حين لآخر عادات الزمن فركدت أو جمعت . فهذه الحضارة الإسلامية لم تنشأ ولم يكتمل نظامها في حياة النبي عليه السلام ، بل تكونت من بعده شيئاً فشيئاً باختلاطها بالحضارات المختلفة التي غزا المسلمون والتي تمثلوا بعد أن تأثروا بها وأنشأوا فيها . وكلها ، ازدادنا في إدراك هذه الحضارة دقة كلما أكثر على بعثها قوة وإقتداراً ، ويومئذ تبرز الفكرة الإسلامية ، أو الفكرة العربية كما يريد البعض تسميتها ، قوية ممتلئة جدة وحياة ونشاطاً ، وثابة إلى ميادين هذه الحياة التي تحيط بنا ، قديرة على أن توجهها إلى نواح جديدة ليست الفرعونية ، وليست العربية ، وليست إسلامية العصور الوسطى ، ولا هي إسلامية عصور الانحطاط التي تجاوزنا وما نزال تغمرنا ، بل إلى نواح تسبق على الحياة الجديدة التي استمدت من العلم قوتها المادية روح الحضارة الإسلامية العربية في سموها المعنوي . فدراسة هذه العصور القديمة هي إذن وسيلة لمزيد من الدقة في دراسة العصور التي خلفتها والتي تأثرت من غير ريب بها .

(١) الفرعونية والعربية : مقال نشر في ملحق السياسة رقم ٣٢٣٢ في ٩/٢٩

سنة ١٩٣٣ ص ٤ .

د وإن من فادح الخطأ الظن بأن الإسلام والحضارة الإسلامية قد عفت على مآقبلها وطمسته طمساً ، وإن العرب قد استأصلوا كل من سواهم من أقالم بالبلاد التي غزا الإسلام . وليبيان ذلك يجب أن نفرق بين الإسلام كدين ، والإسلام كحضارة . الإسلام كدين يقرر عنه الكتاب الكريم أنه يعيد الأديان التي سبقت في صورتها الصحيحة ويزيل ما دخل عليها من تحريف الكلم عن مواضعه ويجلو الحقيقة الأزلية الخالدة إلى الناس كافة . وهو قد عمَّ كعقيدة منذ اليوم الأول فلم يكن لأساسه - أساس الإيمان بالله وحده والإسلام له جل شأنه لا شريك له - أن ترد عليه أية صورة من صور التطور أو التغير . أما الإسلام كحضارة فقد كان يتطور على مر القرون ، وظل يتمثل الحضارات التي جاورته حتى كان ابن رشد والفارابي وغيرهما ممن نقلوا الفلسفة اليونانية إلى العربية ، ومن عاونوا أكبر عون على بعثها عندما بعثها الغرب مستعينا بهؤلاء العلماء والفلاسفة المسلمين .

د وأقول إنني لا أرتاب في أن العصور الإسلامية تأثرت بالعصور التي سبقتها لهذا الذي قدمت من دراسة الفلسفة اليونانية ولما انتقل إلى العرب من أدب الفرس . وليس معقولاً أن يكون اليونان والفرس هم وحدهم الذين أثروا في الحضارة الإسلامية وأن تكون مصر والشام والعراق غير ذات أثر عميق أو سطحي فيها . هذا ثم إنني أومن بالوراثة إيماناً صادقاً قوياً . أومن بها في الجماعات كما أومن بها في الأفراد . ولعلها في الجماعات أدق وأبقى ، فلن يسيخ عقل لذلك أن

أتصور إمكان الانفصال بين زمن وزمن في بقعة واحدة من الأرض انفصالياً يحول صلة بين الزمنين ، ولن يسبخ عقلي ألا يتأثر الحاضر بالماضى ولو أصبح هذا الحاضر في يد قوة طارئة لها من السلطان كل ما يمكن أن يكون لها . وبها نحن أولاء تغزونا الحضارة الغربية منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى اليوم ، أى منذ قرن ونصف قرن ، غزوا ذريعاً ، فهل تحت هذه الحضارة مقوماتنا أو مقومات أية أمة شريفة أخرى . وهبها وصلت إلى تغريب الشرق - على حد تعبير بعض علماء الغرب - فهل تنقطع صلة حاضر الشرق بماضيه ؟ إن قليلاً من التفكير ليدلنا على أن ذلك لن يكون ، ويدلنا على أن من يريد أن يفهم حضارة مصر بعد ألف سنة ، ومن يريد أن يفهم حضارة الشرق ، بعد ألف سنة ، لا غنى له عن أن يرجع إلى كل العهود التي سبقت هذه الحضارة حتى يصل إلى مصر الفرعونية وإلى ما قبل مصر الفرعونية إن كشف التاريخ عن شيء كان قبلها .

... فإذا وضحت هذه الحقائق بعد طول التنقيب والدرس ، وألقت على الوجود ساطع ضيائها ، أمكن أن تلتق وأن تكون منها وحدة هي أقوى من كل وحدة تدور بخاطر إنسان ؛ وحدة روحية قوية تنتظم الحاضر والمستقبل وتدفع الناس إلى حضارة متضام أممها الحضارات التي عرفت حتى اليوم ، لأنها تكون حضارة أوسع أفقا ، وأغزر مادة ، وأغنى بماضيتها الأصيل العريق .

لو أن هذه الفكرة لم يقتصر تطبيقها على الشرق الأدنى ، بل امتدت

إلى ما وراءه من بلاد الشرق الأقصى ، فإذا تكون النتائج في شأن حضارة الإنسانية ! وماذا يكون الأثر في إقامة وحدة الوجود حقيقة ملهوسة ، ١١

ولئن كان لا محيد بعد ما قدمنا عن أن نرى الحضارة الجديدة لقاءً بين الشرق الروحي ، والغرب المادى ، وتفاعلا بين الحضارات على تباعد الشقة المسكانية والزمانية بين كل منها ، فما السبيل إلى هذا اللقاء ؟ وما وسائله ؛ وما موقف العالم الإسلامى من ذلك كله ؟ هذا ما يعرض له الكتاب فى جزئه الأخير « الإسلام والحضارة الإسلامية » .

وقد حرصت على إضافة بعض الهوامش إلى الفصول ، وأن أثبت فى النهاية بياناً بمصادر الكتاب ، يتضح منها للقارئ أن فصوله كتبت فى أوقات متباعدة ، وأن الدكتور هيكل لم يقصد يوم كتبها أن تكون أجزاء منتظمة من كتاب . والواقع أننى قد رأيتها ترتبط جميعاً فى اتجاهها نحو إزالة بعض الغموض الذى يكتنف طريق بعث الشرق ، وأنها ، وإن لم تتسلسل على النحو المألوف للبناء العلية ، فهى تتضمن بعض آراء الدكتور هيكل فى طائفة من المسائل هى موضع بحث الباحثين فى تاريخ الشرق وفى حضارته . وغاية ما أرجو أن يحقق هذا الكتاب وما سيليه من آثار الدكتور هيكل ، بعض تلك الغاية .

أصمهر هيكل

القاهرة فى نوفمبر سنة ١٩٦٢

الفصل الأول الشرق والغرب

(١)

في العصور الوسطى

« الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » . هذه الكلمة للشاعر الإنكليزي « كبلنج » ، ترد على كل لسان ، ويجرى بها كل قلم كلما تناول الحديث أمور الشرق والغرب . ومن الكتاب والمحدثين من يؤيدها ، ومنهم من ينقضها .. ومنهم من يسلم بأنها تنطوى على جانب غير قليل من الحق ، ثم يحاول أن يجد الوسيلة لالتقاء الشرق والغرب والميدان الذى يلتقيان فيه . ولقد أتسح لى أن أقف من قبل عند هذه الكلمة ، وأن أحاول إيجاد الصلة بين الشرق والغرب ، كما أنها كانت هذه الصلة غير موجودة من قبل .

والننى اليوم لأبتسم إذ أذكر هذه المحاولة من جانبي ، وأبتسم حين أقرأ كلمة كبلنج .. فالشرق شرق والغرب غرب هذا صحيح . لكن الشرق والغرب التقيا منذ أبعد حقب التاريخ ، وهما يلتقيان دائماً وسيلتقيان ما بقى فى العالم شرق وغرب . والنضال مستمر بينهما لم تهدأ

قط يوماً تأثرته . وما عسى يكون التلاق إذا لم يكن في انضال . وهل الحياة في رأى العلماء من معاصرى كبلنج وأصدقائه غير النضال . كذلك يقول داروين في نظريته عن النضال للحياة (Struggle For Life) ، وكذلك يقول شوبنهاور عند حديثه عن فلسفة الحب ، وأنه ليس هذا المعنى الخيالى الجميل الذى يتغنى به الكتاب والشعراء ، وإنما هو الجهاد العنيف لتخليد النوع وتحسينه . فمن عجب أن يحاول الكتاب أو المفكرون خلق صلة بين الغرب والشرق وهذه الصلة موجودة منذ القدم ، وهذا الالتقاء بينهما هو الذى أثار فى العالم حضارات العالم ، وهو الذى رفع فوق مجازر الحروب وأهوال التعصب الدينى قُبساً بعد قبس من ضياء النور والهدى والعلم . وفى هدى هذا الضياء سار العالم نحو الكمال خطواته البطيئة القليلة خلال بضعة آلاف السنين التى نعرف .

وهذا الالتقاء بين الشرق والغرب لقاء نضال ينتهى مرة إلى غلب ، وأخرى إلى هدنة ، وثالثة إلى صلح ، ورابعة إلى تعاهد وتحالف تجارى أو حربى هو بعينه الالتقاء بين دول الغرب نفسها ، لقاء ينتهى إلى واحدة أو لأخرى من هذه الغايات .

وكما أن دول الغرب قد تحالفت فى حقب مختلفة كذلك لتناوى دول الشرق . كما تحالفت كذلك دول الشرق فى حقب مختلفة لتناوى دول الغرب ، فقد حدث فى غير هذه وتلك من الحقب أن تحالفت دول من الشرق وأخرى من الغرب لتناوى غيرها من دول الشرق

أو الغرب ، أو من دول منهما متحالفة هي الأخرى .

على أن التقاء الشرق والغرب لقاء نضال وتطاحن كان أكثر اتصالاً على التاريخ من تقاهم الشرق والغرب ، أو من تقاهم بعض الدول من الشرق ومن الغرب . ولسنا نريد أن نفصل ذلك هنا فتفصيله ليس مقصد هذا الكتاب . ولكننا جميعاً نذكر كيف كان الغزو متصلاً بين مصر الفراعنة واليونان ، وكيف كان الغزو متصلاً بعد ذلك حين استولى إسكندر الأكبر على مصر حوالى سنة ثلاثمائة قبل الميلاد ، وكيف غزت مصر اليونان من بعد ذلك فى عهد البطالمة أنفسهم ، ثم كيف غزا اليونان مصر تحت حكم يوليوس قيصر ، وكيف انتهت دولة البطالمة المصرية بانتحار كليوباتره . هذا المد والجزر بين مصر واليونان وروما قد حدث مثله بين فييقيا ومصر ، وبين فييقيا واليونان ورومه . وفى هذه العصور كانت الوثنية منشورة اللواء فى هذه النواحي المعروفة من عالم يومئذ فى صور إيمانها وطقوس عبادتها المتباينة المختلفة . ولم يغير ظهور موسى وبني اسرائيل من هذا الوضع فى مد العالم يومئذ وجزره تغييراً يذكر . فقد خضع اليهود فى ذلك العصر لحكم روما خضوع لإذعان وسكينة قانعين بأرض الميعاد والمقام حول قدس سليمان وما جاوره من الأماكن المقدسة ، فلما ظهرت المسيحية فى جوار قدس سليمان ، وفى أرض الميعاد ، كان طبيعياً أن يدس اليهود لها عند الحكام الرومانيين وأن يحاولوا إظهارها فى مظهر الثورة على سلطان الدولة . لكن المسيحية لقيت من نفوس الطوائف التى

كانت مضطهدة حين ظهورها -وما أكثر ما كانت- إقبالا عليها أن كانت تعدها النعمة في السماء جزاء ما لقيت على الأرض من شروعت ، وبقيت المسيحية حظاً موقوفاً على هذه الطوائف المضطهدة أجيالا حتى أتاحت الأقدار لها أن تنفذ إلى قلب حاكم رقيق العاطفة محب للضعفاء ، وانتقلت المسيحية من روما إلى البلاد التي كانت خاضعة لحكمها . انتقلت إلى مصر والشام واليونان . ثم امتدت من مصر إلى الحبشة وإلى اليمن . ثم جعلت تغزو في بطن وسكينة بعض نواحي العراق في الشرق . وبعض نواحي أوروبا البربرية إذ ذاك في الغرب .

وفي أواخر القرن السادس المسيحي ظهرت الدعوة الإسلامية . ظهرت أول أمرها ضعيفة متواضعة برسولها اليتيم الأمي وبالعديد القليل الذي اتبعه ، قوية بالدعوة إلى التوحيد وإلى الحرية وإلى الرحمة وإلى الإخاء ، دعوة تناولت القوى والضعيف ، والغنى والفقر ، والمنزف والمحروم . ظهرت هذه الدعوة أول أمرها ضعيفة متواضعة لم يشعر بها أحد ولم يدع صاحبها إلى اتباعه غير عشيرته الأقربين . لكنها كانت دعوة إلى المثل الأعلى في الإيمان وفي الخلق وفي التضحية وفي تمنى الموت في سبيل الحق والحرية والخير والفضل والعدل ، لذلك استجاب إليها كثيرون من أهل مكة طيبة نفوسهم بما تلقى في سبيل إيمانها من اضطهاد وتعذيب . وتعاقبت السنون والمؤمنون بالدعوة يزدادون عدداً ويزدادون في إيمانهم قوة ، وللعذاب في سبيل هذا الإيمان حبا . ثم عرض محمد نفسه على القبائل أثناء حجها الكعبة

قامتهانت في البداية بأمره . لكن كلماته انطبعت في نفوس الكثيرين من أبنائها . وعرفت بلاد العرب أمر محمد وأصحابه ، ثم اشتد ساعده ببيعة العقبة الكبرى ، وبالهجرة إلى المدينة ، وباتتصاره على قريش وبفتح مكة وبدخول العرب في دين الله أفواجا . وأرسل محمد رسله إلى الملوك والأمراء من حوله يدعوهم إلى الإسلام ويعدهم سعادة الدارين .

ولقد أحاطت بمحمد حين دعوته بيئة معادية أشد العداوة . أحاط به العرب الوثنيون الذين كانوا أشد الناس له عداوة ، واليهود المنبثون في أنحاء شبه الجزيرة وفي جنوب الشام ، والمجوس في فارس والنصارى في اليمن من الجنوب ، وفي الإمبراطورية الرومانية والبلاد الخاضعة لحكمها من الشمال والغرب . لكن هذه الدعوة الجديدة لم تلبث أن ظفرت بهذه القوى جميعاً ؛ ففي أقل من مائة سنة عقب وفاة النبي امتد سلطان الإسلام إلى الشام وإلى مصر وإلى شمال أفريقيا حتى المحيط الأطلنطي ، وانتقل من هناك إلى إسبانيا كما امتد في قلب آسيا حتى أواسطها . وفي فترات متعاقبة متعاقبة يعد ذلك امتد إلى الهند وإلى جزر الهند الشرقية وتغلغل في أفريقيا وفي آسيا . وبذلك قامت في العالم إمبراطورية إسلامية مترامية الأطراف تنقلت عاصمتها من مكة إلى دمشق إلى بغداد إلى القاهرة وأحييت في العالم حضارة جديدة انكشفت أمامها الحضارة الرومانية والحضارة اليونانية ووقفت إزاءها المسيحية خائفة تترقب . وعن خوف المسيحية وعن ترقبها نشأت

الحروب الصليبية متطلعة أنظار أهلها جميعاً إلى بيت المقدس ، إلى جواره ولد المسيح وفيه قام المسجد الأقصى وعلقت صخرة سليمان . وظلت هذه الحروب قائمة شور حيناً وتهداً حيناً ولا تصل المسيحية منها إلى شيء مما تبغى حتى ظنت في ختام الحرب الأخيرة الكبرى سنة ١٩١٨ أنها بلغت غايتها بوضع إنجلترا وحلفائها أيديهم على بيت المقدس وهتاف الفلد مارشال اللبني قائد قوات الحلفاء في الشرق الأدنى يومئذ قائلاً : (اليوم انتهت الحرب الصليبية) .

رغم هذه الخصومة الأصلية في النفوس والتي بدت من جانب أوروبا منذ الحروب الصليبية الأولى فقد أبدى الشرق في هذه القرون جميعاً من التسامح الديني ما يجدر بالمؤرخ المنصف تسجيله وتقديره . والأمم كذلك بنوع خاص حين مجد الشرق وازدهار الحضارة الإسلامية في ربوعه . أى منذ فجر الإسلام إلى ما بعد فتح الأتراك القسطنطينية وتوغلهم في أوروبا إلى أسوار فيينا . ففي تسعة قرون متوالية كانت النعرة الصليبية تجمع الجيوش في ممالك أوروبا المختلفة وتتجه بها تحت إمرة ملك إنجلترا أو ملك فرنسا أو غيرهما من ملوك النصرانية قاصدة غزو المسلمين واستخلاص بيت المقدس من أيديهم . ولم يكن ذلك لأن الدول الإسلامية كانت تصد المسيحيين عن أداء الطقوس الدينية في بيت المقدس . فقد كانت هذه الطقوس تؤدي . وكان المسيحيون ، سواء منهم من استظل بلواء الدولة الإسلامية ومن قدم من بلاد أجنبية ، يقومون بها في أمن وسكينة لا يكدرهما مكر . وإنما كان ذلك تعصباً للمسيحية حرصاً

من أهلها على الأخذ بالثأر . وكان المسلمون في مختلف العصور يكتفون
بصد الغزوات الصليبية دون أن يهبوا لغزو أوروبا المسيحية انتقاماً
منها عن اعتدائها على ديارهم ، بل كان هؤلاء المسلمون يحسنون
معاملة الغزاة المسيحيين الذين يقعون في أسرهم حتى سجل المؤرخون
الأوروبيون ذلك لهم بمداد الإعجاب والفخر . ولم يغير تكرار الغارات
من نفس المسلمين ولا هو أغراهم بالانتقام من لويس التاسع حين
أخذوه أسيراً بالمنصورة ، ولا هو أغراهم برتشارد قلب الأسد حين كان
في سلطان صلاح الدين الأيوبي ويده . وليس لمؤرخ منصف إلا أن يسجل
للمسلمين بالإعجاب والفخر دفاعهم عن ديارهم التي أصبحت إسلامية
ودخلت في حوزة الإسلام منذ عصوره الأولى ، وأن يشهد بأنهم كانوا
على حق فيه ، بينما كان الصليبيون هم الثأرين المثيرين . وبينما كان
التمصب الديني هو الحافز لهم على العدوان عدواناً لم يكتب لهم التوفيق
فيه خلال خمسة عشر قرناً كاملة .

ما سبب هذا الاندفاع من جانب أوروبا المسيحية ؟ وكيف بقى
المسلمون أيام مجدهم يكتفون من هذا الاندفاع بصدّه دون مواجهته
بغزو مثله ؟ أما اندفاع أوروبا المسيحية فصدّه عاملان : أولهما أن
الإسلام أغار في أول أمره على بلاد مسيحية كانت روما وكانت
القسطنطينية من بعد ترجو أن تتخذها قواعد لازدياد انتشار
المسيحية ، وكانت الشام ومصر أهم هذه البلاد ، وثانيهما أن الإسلام
أقام من البلاد التي فتحها ونشر عليه فيها سداً يفصل بين أوروبا

المسيحية وبقية العالم يومئذ ، والذي لم يكن يزيد على أفريقية وآسيا وأوربا ، فأمر يكا لما تكن قد اكتشفت . وقد بدأ الإسلام يصد تيار المسيحية في اللحظة التي توسمتها فاتحة النصر وبداية الوثبة إلى قلب آسيا وأفريقية ، فقد كانت الحرب السجال قائمة بين فارس المجوسية وبيزانطة المسيحية ، وكان لفارس فيها انقلب أكثر الأمر ، فلما بدأ الحظ يتغير في هذه الحرب ليتسم هرقل عاهل المسيحية فيقتصر على المجوسية ويمكنه من استرداد الصليب الأعظم من فارس وإعادته إلى بيت المقدس في حفل عظيم ، أوفى فيه بنذره أن يسير من عاصمة مملكة إلى المسجد الأقصى على قدميه يحيط به أتباعه وجنده ويتقدمهم هذا الصليب الأعظم ورمزاً مقدساً للإيمان والنصر . وإنه في هذه اللحظة وفي هذا الحفل يفي بنذره إذ جاءه رسول النبي العربي بكاتب محمد بن عبدالله يدعو فيه هرقل ملك الروم إلى الإسلام . ولم تمض سنوات بعد ذلك حتى كان بيت المقدس وكانت الشام كلها في قبضة المسلمين ، وحتى وقف هذا الدين الجديد ووقف سلطانه ووقفت جيوشه الظافرة حائلا بين أوربا المسيحية والوثبة إلى آسيا . وفي سنوات أخرى من بعد ذلك اندفع تيار الإسلام إلى مصر وإلى شرق أفريقيا حتى مراكبش وحتى غزا المسيحية في إسبانيا ، فوقف الدين الجديد وسلطانه وجيوشه حائلا بين أوربا المسيحية والوثبة إلى إفريقيا . فإذا ظلت أوربا المسيحية مكتظة النفس غلا وحفيظة على هذا الدين الجديد وأهله ، وإذا هي حاولت في فترات كثيرة محتلفة أن تسير جيوشها الصليبية لغزوه وغزو أهله ، فلم من هذين العاملين عذر وشفيع ، ولها فيما يملأن به النفس حرصاً على

الأخذ بالثأر أكبر الرجاء في أن يكون لها على خصومها الفوز والغلب.

لكن جهود أوروبا ذهبت مع ذلك هباء وتخطمت على صخرة هذا الإسلام الناشئ المطمئن إلى عزه وإلى قوته . فلماذا ؟ وكيف تتدخر أوروبا ولديها من الأسباب النفسية للظفر ما يهيء أمره ويجعله ميسوراً ؟ علة ذلك ترجع في رأيي إلى جهود النصرانية يومئذ وإلى أجتهد الإسلام . ففي هذه العصور الوسطى المسيحية كانت الكنيسة قد استأثرت بكل أمر ووضعت يدها على كل شيء . كان الملك في حاجة إلى رضا الكنيسة عنه وإلى مباركتها إياه ليطمئن إلى ملكه وإلى طاعة شعبه . وكان رجال الدولة يدعون للكنيسة ويلتمسون بركتها . وكانت كبة الكنيسة معتبرة كبة الله وكبة المسيح وكبة الروح القدس نفسه ، لا يستطيع أحد أن يرفع إليها باصرته إلا بنظرة تقديس وإجلال لا تشوبها خلجة تساؤل أو ريب . وبذلك استشرى سلطان الكنيسة إلى كل نظام ، وإلى كل مجتمع ، وبلغ حتى دخل مع الأسرة دارها ، ومع كل رجل قلبه فاحتل فؤاده وأخذ عليه عقله وعاطفته وكل حياته . بذلك حملت الكنيسة وحدها عن الناس تبعاتهم ، وجعلت نفسها نائبة عن الله في المغفرة لهم ، وبذلك استأثرت الكنيسة بحريتهم ، وبعقولهم ، وبضمايرهم ، فأصبحوا لها عبيداً سعداء بعبوديتهم ، سعداء بالطابع الذي طبعتهم وتطبعهم به . ولم لا يكونون سعداء وقد نفت عنهم الكنيسة كل تكاليف الحياة الإنسانية . فليس لأحدهم أن يفكر مخافة أن يدفع به التفكير إلى

الخطيئة . وليس لأحدهم أن يجب مخافة أن يدفع به الحب إلى الخطيئة ، وليس لأحدهم أن يتصرف في أمر من الأمور برأيه مخافة أن يدفع به رأيه إلى الخطيئة . والكنيسة وحدها هي التي تفكر للناس جميعاً ، وهي التي تدلهم على ما يحبون وعلى ما لا يحبون ، وهي التي ترشدكم إلى ما يتصرفون به في جليل أمورهم وتأنبهم . رسمت لهم حدود كل شيء وجعلت تخطى هذه الحدود خطيئة ، حتى حدود عواطفهم وأهوائهم . حتى حبهم لأزواجهم وأبنائهم . بل رسمت لهم كذلك طريق السعي والعمل وطريق الاستحمام والنوم ، قيدت وجودهم الإنساني بأغلال من حديد ، وجعلت منهم آلات لا تريد إلا بإرادتها ولا تتحرك إلا بأمرها ولا تتنفس إلا هواءها . وآمنت هذه الآلات بأن هذا الجود هو سبيل السلام ووسيلة النجاة والسلم إلى السماء يرتقيه الإنسان ليصل إلى مقعده بين البررة الأطهار . إذا وصلت الإرادة الإنسانية إلى هذا الفناء وكمملت حرية العقل وحرية الضمير بهذه الأصفاد فقد ضمت فيها قوة الحياة فلم يبق لها على الحياة قوة ، ولا على أحد من أهل الحياة سلطان ، ولم يبق لها إلى النصر والغلب سبيل .

بينما كانت الكنيسة المسيحية في العصور الوسطى تصل بالشخصية الإنسانية إلى هذا الجود الذي يقعد بها عن أن تريد أو أن تعمل ، كان الإسلام في نشأته وفي قنوة شبابه يحطم القيود ويرفع عن الذاتية الإنسانية عبودية غير الله وحده إياه نعبد وإياه نستعين . لم يعرف هذا الإسلام الناشئ كنيسة ، ولم يجعل لأحد من الناس على أحد

سلطاناً ، ولم يجعل لعربي فضلاً على أعجمي إلا بالتقوى . لذلك ما لبث
 الأعاجم من أهل فارس وأمثالهم من البلاد الخاضعة لملك الروم أن
 اعتنقوا الإسلام حتى رأوا فيه الحرية للعقل والعاطفة والشعور ،
 الحرية التي تنسك الفوضى والإباحية إنكارها للاستبداد والعبودية .
 الحرية التي تعترف للعقل والقلب واللبنطق والإلهام بحقوقها جميعاً في تنظيم
 حياة الفرد وحياة الجماعة بما يكفل للفرد السيادة وللجماعة الطمأنينة
 في حدود تقوى الله ورضاه على ما نزل بها القرآن ، لا على ما تريدها
 أهواء ذوي الحكم والسلطان . لذلك نهل المسلمون من ورد هذه
 الحرية فغزوا بعقولهم وبقلوبهم علوم اليونان وفلسفتها وحكمتها وحكمة
 فارس وخيالها وشعرها . ولم يكن لأحد ولا لصاحب السلطان أن
 يصد عن ذلك إن لم يشجع عليه . وكيف يصد الحاكم عنه ، وإنما هو
 وكيل المسلمين في حدود ما أمر الله به وما نهى عنه في القرآن الكريم .
 إن نظام الحكم الإسلامي لم يكن نظاماً أوتقراطياً للحاكم فيه الكلمة
 العليا . بل كان نظاماً محدوداً خير من عبر عن حدوده أبو بكر حين
 ولي الخلافة ، إذ خطب الناس فقال : « أيها الناس ، إني قد وليت أمركم
 . واست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ،
 أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فيكم ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا
 طاعة لي عليكم » . وبارغم من أن هذا النظام الذي رسم للحاكم حدوده
 الضيقة لم يلبث طويلاً في هذه الحدود ، ومن أن الخلافة انقلبت ملكاً
 عضواً منه خلافة معاوية بن أبي سفيان ، فإن الحرية التي أباح
 الإسلام للمسلمين بقيت مكفولة لهم عصوراً طويلة يتمتع العرب بها

الشام والفرس وأهل مصر وكل من استظل بسطان الدين القيم مسلماً كان أو من أهل الكتاب ، وبهذه الحرية أمعن المسلمون في نهلمهم من فلسفة اليونان وأدبهم ومن حكمة الفرس وخيالها ، ومن كل ما يتصلون به أو يتصل بهم في البلاد التي تدين لهم أو تتعاهد وإياهم . والحرية الإنسانية لا غالب لها ما تحطمت من حولها القيود وما استمتع بها الإنسان متاعاً صحيحاً . وقد ظلت هذه الحرية للمسلمين مكفولة إلى أن جاء العباسيون فرادوا في سلطان الحكم المطلق خطوة جديدة بعد خطوة الأمويين ، خطوة نقلت الحكم من الشورى الإسلامية الصحيحة إلى الإطلاق الفارسي إطلاقاً مهدد للانحلال الذي أصاب سلطة الإسلام في بغداد فنقل الحضارة الإسلامية التي ازدهرت في آسيا طوال عصر الأمويين والعباسيين ليزدهر في أفريقيا على ضفاف النيل ولتتخذ القاهرة مقراً لها . ولئن كانت القاهرة قد تأثرت إلى حد غير قليل بما أصاب دمشق وما أصاب بغداد فإنها احتفظت بالتراث الإسلامي الذي انتقل إليها كخير ما يكون الاحتفاظ به ، لأن خطأ غير قليل من الحرية كان لا يزال مسموحاً به للعلماء والمفكرين والشعراء وذوى الرأي والمكانة من المسلمين المصريين ، ومن المسلمين الذين نزحوا إلى القاهرة حين استقر ملك الإسلام فيها .

طبيعي ألا يوفق الصليبيون في غزواتهم بعد الذي رأيت من هذه المقارنه السريعة بين حالهم وحال المسلمين في هذه الفترة من فترات عصور المسيحية الوسطى . وطبيعي أن يذهبوا إلى الانحدار

حتمداً على المسلمين . اسكن حقدهم لم يكن قادراً على شيء . فالجوزد
والتمعصب حقودان بطبعهما ، عاجزان كذلك بطبعهما . والحرية
والاجتهاد في صورتها الصحيحة لا يعرفان الحقد ولكنهما لا يغلبان ،
ولذلك لم يقابل المسلمون غزوات الصليبيين بغزوات مثلها .
ولذلك كان الصليبيون كلما دارت عليهم دائرة الهزيمة ارتدوا إلى
ديارهم فاستجمعوا زهاء مائتي مجتزون خلالها هزيمتهم ثم تضطرم من جديد
نار الحقد في نفوسهم بعد سنين أو عشرات السنين فيتهجرون لحرب
صليبية أخرى يكون نصيبهم فيها الهزيمة التي كانت تصيبهم في سابقتها .
وفيما بين الهزيمتين ، وخلال عشرات السنين هذه ، يطمئن الأوروبيون
ويطمئن أهل الشرق إلى حياة سكونية وجد وسعى في منابك الأرض
ابتغاء الرزق . وظلت الحال كذلك إلى أن جاء الأتراك من آسيا
غزاة يفتحون الممالك ويدوخون الملوك ويظفرون بدول الإسلام
أكثر مما يظفرون بدول المسيحية ، ثم يتوغلون في أوروبا حتى
تصدهم أسوار فيينا .

كان هذا نصيب الحروب الصليبية ، وكانت تلك أسباب فشل
الصليبيين فيها . على أن واحدة من هذه الحروب الصليبية قد نجحت
وقد بلغت من النجاح أكثر مما كانت تطمح . أول أمرها فيه . تلك
هي الحرب التي أجلت أوروبا فيها الإسلام من الأندلس ، فقد دخل
الإسلام حين سؤدد سلطانه إلى شبه جزيرة إيبيريا . آملاً أن يمتد منها
إلى فرنسا . وإلى سائر أوروبا ليتصل بالإسلام الزاحف من الشرق

عن طريق الشام والأناضول إلى المملكة الرومانية . لكن هذا الزحف من ناحية الشرق وقف بعد أن بدأ انقلاب نظام الحكم من الشورى الإسلامية إلى الأتوقراطية الفارسية ، وبعد أن أتى هذا الانقلاب ثمرته المحتومة ؛ انحلال القوى المعنوية وتضعف الإيمان الصادق في النفوس . لذلك لم يتح للذين فتحوا الأندلس أن يتوغلوا في أوروبا بعد أن صدتهم عن التقدم إلى فرنسا فاكثفوا بإقامة الدولة الإسلامية في إسبانيا وظلت هذه الدولة قوية مزدهرة زمناً ، لكنها أصيبت هي الأخرى في نظام حكمها بما أصيبت بغداد وسائر الأقطار الإسلامية . ثم إنها اطمأنت إلى النعمة المادية في الأندلس طمأنينة آتت ثمراتها ، وثمرات الطمأنينة في النعمة المادية التباخر عليها والتحاسد في سبيلها والتناحر والتطاحن للاستزادة منها . وذلك ما حدث . وكان من أثره أن كثرت الإمارات وأن ضعف السلطان المركزي وأن طمع المسيحيون في استرداد ما يؤمنون بأنه حقهم ، وشغلت سائر دول الإسلام يومئذ بمثل ما شغلت به الأندلس من الجرى وراء مطامع الحياة الدنيا والتفاني في سبيلها تفانياً أنسى المسلمين أنهم لإخوة يجب أن يسرع كل منهم إلى نجدة أخيه . وأجلت المسيحية الإسلام عن الأندلس واستعادت إسبانيا كلها وإن قعد بها ما وصفنا من جهودها عن أن تتأثر المسلمين في تراجعهم وأن تتبعهم في أفريقيا . وبذلك قيت القوتان الإسلامية والمسيحية وجهاً لوجه يفصل بينهما البحر . توسط ، وقد دب إلى دول الإسلام انحلال كالذي أدى إلى زيمة المسيحية . انحلال سببه هذا الجمود الذي أصاب المسلمين .

فجعل علماءهم ومفكرتهم ينزلون لصاحب السلطان عن حريتهم ويضعون تحت تصرفه عليهم لقاء ما يقدفه عليهم من نعم مادية كانوا أشد فرحاً بها منهم بحريتهم وبعلمهم . وبذلك لم يقووا على صد غزوة الترك الذين ظفروا بهم ثم ظفروا من بعدهم بالقسطنطينية وبما تلاها من بلاد المسيحية حتى قينا .

لم يكن الأتراك في هذا الغزو دعاة إلى حضارة ، ولا دعاة إلى دين . بل كانوا غزاة طامعين في أسلاب الغزو وفي استغلال الأمم التي يفزون على مثال أكثر الغزاة في ذلك العصر وعلى مثال أوربا في هذا العصر الحاضر ، ولقد كان لهم من العذر في ذلك أن ظروفهم الخاصة لم تكن لتهيئ لهم الاضطلاع بعبء حضارة معينة . لقد كانوا مسلمين ، وكان الطبيعي أن يرتعد أعداء الحضارة الإسلامية المهدة يومئذ بالانحلال تحت أنقاض الجود . لكن مقومات الحضارة الإسلامية كانت تعوز هؤلاء الزاحفين من قلب آسيا حيث كانت تحيط بهم أثناء مقامهم في وطنهم صور من العقيدة والحضارة لا تتفق في شيء مع صور الحضارة الإسلامية والعقيدة الإسلامية . ثم إنهم أبدوا حرصاً على لغتهم ونفورا من اللغة العربية . واللغة العربية كانت في البلاد الإسلامية جميعاً لغة الدين ، ولغة العلم ، ولغة الأدب ، ولغة المقومات الأساسية جميعاً لأية حضارة من الحضارات . لذلك كانوا أشد حرصاً على مفاتيح الغزو منهم على تأييد الحضارة الإسلامية . ولذلك لم يفكر أحد منهم في رفع نير الجود الذي أصاب المسلمين في عقائدهم وفي فقههم وفي

لقتهم وإن حرصوا على أن يأخذوا من مصر ومن سائر البلاد التي غزوا مهرة الصناعات ورجال الفن ممن وثقوا بمقدرتهم على تشييد المظاهر المادية وعلى توطيد أسباب الثروة والنعمة المادية . كانت النتيجة المحتومة لهذا الغزو التركي المعتمد على الملكات الحربية ، النفور من مقومات الحضارة الإسلامية الصحيحة ، أن ازدادت الأمم الإسلامية جموداً في العقيدة وفي التفكير ، وأن نشأت فيها طائفة من رجال الدين على مثال الطائفة التي قيدت المسيحية في عصورها الوسطى بأثقل الأغلال : طائفة أنكر الإسلام منذ ظهوره حقها في الوجود . ووضعت طائفة رجال الدين المفتعلة نفوذها وحريتها وما تدعى من علم في خدمة الغزاة الغالبين بما أدى إلى استمرار الانحطاط والتدهور في العالم الإسلامي الذي خضع للذير التركي . ولكن هذا الغزو التركي كان له في أوروبا المسيحية نتيجة هي النقيض من هذه . نتيجة محسنة آذنت بانتقال مد الحضارة إلى الغرب بمقدار ما كان من طردها في الشرق الإسلامي ، وكانت مقدمة البعث الأوربي والحضارة الغربية الحاضرة .

ظهرت هذه النتيجة التي أثمرت الحضارة الغربية في بطنها وأناة و بعد جهود شاقة ونضال عنيف عشرات السنين بل مئاتها . كان الجيل يعقب الجيل ، وفي كل جيل يبدو من هذه الثروة أثر جديد ، وفي هذه الأثناء كانت الامبراطورية التركية ينفسح مدى سلطانها الحربي ليزيد الأمم الإسلامية جموداً وركوداً . فلما آن للغرب أن يسترد — باسترداده الحرية الإنسانية — مكانته ، اتجه إلى هذه الامبراطورية التركية يريد

أن ينتقم منها لنفسه ، كما وجه الغزوات الصليبية من قبل إلى أمم الإسلام ليبتقم منها . وحاولت أوروبا بعد الحرب الكبرى أن تقضى القضاء الأخير على الرجل المريض ، وألقى اللورد اللبني تصريحه بأن الحروب الصليبية انتهت . يريد بذلك أن المسيحية انتقمت لنفسها انتقاماً حاسماً من الإسلام . وتلك لعمري سخريه من القدر مُرّة . فلو أن شيئاً اسمه الاعتراف بالجميل كانت تعرفه العلاقات الدولية لذكرت أوروبا للترك فضلها الأول في القضاء على الدول الإسلامية بالجمود ، وفي تمهيد الطريق للبعث الأوربي وللحضارة الغربية الحاضرة . لكن الحياة لا تعرف هذه المعاني إلا بمقدار ما تعاون هذه الحياة . فإن هي وقفت في سبيلها حطمتها وداستها وتخطتها إلى ما هو خليك بمزيد في الحياة .

كيف أدى الغزو التركي إلى بعث أوروبا وإلى الحضارة الغربية الحاكمة اليوم في الشرق والغرب ؟ وكيف اضمحلت دول الشرق حتى خضعت كلها لنير أوروبا ؟ وهل اضطلعت الحضارة الغربية برسالة خاصة تتجه بالإنسانية نحو كمالها وسعادتها ؟ وماذا كان موقف الشرق من الغرب في هذه الظروف المختلفة ؟ وما موقعه اليوم ؟ . . .

٢ .

إبان البعث الأوربي

تقدم الأتراك في أواسط آسيا فغزوا البلاد الواقعة في طريقهم حتى اقتحم محمد الفاتح القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ ، وتقدم خلفاؤه إلى أسوار فيينا . ووقفت أوروبا في وجه هؤلاء المسلمين الفاتحين مستأنية خائفة على مصير المسيحية ، اتجه الأتراك بغزواتهم وفتحهم إلى البلاد الإسلامية فتقدموا إلى الشام وإلى مصر ، وتم للسلطان سليم وضع يده على القاهرة في سنة ١٥١٧ . وبديهي — وللأتراك من الملكات الحرية مالم ودينهم الإسلام — أن يحملوا أهل بينرطة على اعتناق هذا الدين ، وكان من أثر ذلك أن هاجر العلماء والكتّاب المسيحيون المقيمون في شبه جزيرة البلقان وفي اليونان إلى روما وإلى بلاد أوروبا المسيحية المجاورة للبلاد التي غزا الأتراك وفتحوها وعملوا على أن تعلو فيها كلمة الإسلام .

وقفت أوروبا مبهوتة إزاء هذا الفتح الجديد ، وجعلت تفكر في هذا الماضي الذي حاولت فيه عبثاً أن تسترد الأماكن المسيحية المقدسة من المسلمين ، وفي هذا الغزو الجديد الذي أعاد إلى الذاكرة غزو العرب لبلاد الأندلس : فليس طبعياً أن تتعرض أوروبا لكل هذا الغزو وكانت إلى الأمام القريب بمأمن من غائلة الشرق وكانت خلال القرون المسيحية الأولى صاحبة مجد الحضارة في العالم كله . لقد مدت روما

في العصور التي سبقت المسيحية والتي تلتها امبراطوريتها المترامية
الاطراف إلى الجزء من أقطار العالم المعروف يومئذ ، كانت أعلام
قيصر تتحقق في مصر ، وكانت جنوده تتحرق أوروبا إلى إنجلترا ، فلما
دالت دولة روما قامت بينظة مقامها رافعة شأن المسيحية مقيمة
في مختلف الدول علم حضارتها الخفاق . وظلت أوروبا من بعد ذلك
تشن الغارات الصليبية على دول الإسلام غارة بعد غارة . فإذا أصابها
حتى أصبحت مهددة كل هذا التهديد بأن تذلل للسلبين ، وبأن تذلل
للأتراك القادمين من ظلمات آسيا . ففكر أهل أوروبا يومئذ في ذلك
وأخذوا أنفسهم بالبحث عن أسبابه ووسائل التغلب على هذه
الأسباب . وكانت لهم في هجرة العلماء الذين أجلى الغزو التركي عن
بينظة إلى روما وإلى أوروبا الوسطى ما يكفل دقة هذا البحث وما
يمهد في نفس الوقت إلى مقدمات البحث الأوروبي الذي تمخضت عنه
أوروبا بعد مائة سنة أو ما دونها من اقتحام الأتراك المسلمين عاصمة
المسيحية يومذاك .

وفي طبائع الناس أن يتساءلوا في مثل هذا الموقف عما إذا لم يكن
لدين الذي يدينون به تبعه عن المسأل الذي هووا إليه . وكان مثل
هذا التساؤل محتوماً يومئذ أن كان تبادل الغزو قائماً بين المسيحية
والإسلام وإن كان للإسلام الفوز والغلب . وفي طبائع الناس إذا
ألقوا مثل هذا السؤال أن يلهمهم الحق بالإجابة عنه بالنفي .

إن الدين الذي كان يوماً سبب الرفعة والفوز والغلب لا يمكن أن

يكون هو بذاته سبب التدهور والانحلال والهزيمة . فانه يكن على عقائد الناس في تضعضع عزائمهم وخور نفوسهم تبعة ، فلا بد قد اندس إلى هذه العقائد باسم الدين ما ليس من الدين ، وما أفسد العقائد وزعزع الإيمان الصحيح في النفوس . فهل حدث من ذلك شيء في المسيحية ؟ وإن يكن قد حدث فما عساه يكون ؟

طرح مفكرو أوروبا في القرن الخامس عشر على أنفسهم هذا السؤال ، وبحسبوا يلتمسون الجواب . وليس العثور على الجواب في مثل هذه الظروف ميسوراً . فرجال الدين الذين يوجه إليهم هذا الاتهام لا يذرون متدنّذ فرصة إلا انتهزوها للقضاء على خصومهم . ورجال الدين من أهل الكنيسة المسيحية كان لهم من السلطان المطلق ما رأيت بحمل صورته في الفصل السابق ، ولم يقف سلطانهم عند وضع يدهم على إرادة الناس وعلى تفكيرهم . بل امتد إلى المغفرة للذنوب ومحو خطيئة المخطيء ، ولم يكن هذا الغفران حرصاً منهم على ألا يعود المخطيء إلى خطيئته . فقد كانت براءات الغفران تباع يومئذ وتفيد الكنيسة منها أموالاً طائلة . إذن فقد انقلب الدين وسيلة لاحتياال المال وأصبحت الكنيسة تقتضى المال بهذه الوسائل الخاطئة باسم الرب وباسم المسيح فتزيد في سلطانها المادى ابتغاء الغلب في هذه الحياة الدنيا . تحدث العلماء في هذا وأنكروه فيما بينهم على الكنيسة من غير أن يجترؤ واحد منهم على التظاهر في وجهها مخافة أن تحطمه قوة سلطانها . كانت للكنيسة تصرفات غير قليلة تشبه بيع براءات الغفران ، وإن لم يكن منها ما تبدو مخالفته

العقل بديهيّة بداهة يبيع هذه البراءات . وتزايد حديث العلماء فيما بينهم وألقوا على الكنيسة تبعات ما تنوء به أوروبا من تدهور ، حتى قيص الله رجلاً من رجال الدين يحمل كلبة العلماء هذه ويلقي بها في وجه زملائه ، ذلك مارتن لوثر . من يومئذ بدأت الثورة على الكنيسة وتعاليمها . ومن يومئذ بدأت الكنيسة تشعر بقوة هذه الضربة الموجهة إلى سلطانها المطلق شعوراً جعلها تحاول القضاء عليها في مهدّها . وقد ساءت لذلك مختلف السبل حتى نزلت إلى ألوان من المهاترة ؛ منها أن اتهمت لوثر في نزاهته وألقت عليه أنه إنما قام في وجهها لأنه يريد أن يخرج كقبس على تعاليم الدين التي تحظر الزواج على القسس وتسموهم عن حب المرأة وإلى تكريس كل حبهم للسيد المسيح ، وأن الشيطان الذي زين له حب المرأة وأغراه بالزواج هو الذي دفعه ليرفع عقيرته في وجه براءات الغفران وهي وسائل طمأنينة وسعادة للمسيحيين جميعاً . ولكن صيحة لوثر لقيت في كثير من أنحاء البلاد المسيحية صدى قوياً ؛ لأنها كانت تعبّر عما يحول بالنفوس وتكاد تفيض به القلوب على الخواطر . بل على الألسن . صحيح أن الناس وقفوا باهتتين إزاء هذه الجرأة التي لم تكن معروفة من قبل . لكن ذلك إنما كان بقية مما صور ألهم لنفوسهم من سلطان الكنيسة القاهر في الأرض وفي السماء . فإذا كان هذا السلطان لا ينال من لوثر بأكثر من توجيه تهم لا دليل عليها فقد آن للناس أن يفيقوا من غفلتهم ، وأن يطرحوا كابوس الوهم الذي أثقلهم ، وأن يزداد الصدى الذي تتجاوب به أنحاء المسيحية لصيحة لوثر سلطاناً وقوة . وكذلك أعلنت

الثورة على الكنيسة وأعلنت على الجلود الذى قيدت الكنيسة به العقول والقلوب ، وكذلك امتدت هذه الثورة من براءات الغفران . إلى سائر مقررات الكنيسة مما لا يطمئن إليه العقل . وكذلك بدأت قيود العقل تعظم رويداً رويداً ، وبدأ « كالفن » فى سويسرا و « جون نوكس » فى إنجلترا يعلنون الثورة التى أعلن لوثر وينادون وإياه بأن الدين لا يمكن أن يناهض العقل . وأن ما خالف العقل ، من مقررات الكنيسة ، لا بد أن يكون خارجاً على الدين . وبذلك انتشرت ثورة الإصلاح الدينى فى نواحي أوروبا المختلفة انتشاراً اضطر كنيسة روما إلى التفكير فى موقفها وإلى إعادة النظر فى كثير من مقرراتها .

لم تسكن هذه الثورة من « لوثر » و « كالفن » و « نوكس » ثورة على الدين ، بل كانت كما رأيت ثورة من طائفة من رجال الدين على الكنيسة ومقرراتها . وبعبارة أدق كانت ثورة من الاجتهاد الدينى على التقليد الجامد فى الدين ، وكانت ثورة العقل المقيد على قيوده . ولم يكن طبعياً أن تقوم يومئذ ثورة على الدين كالثورة التى قامت من بعد بزعامة « فولتير » وبزعامة أساطين العلم الواقعى من بعده . فإلى يومئذ كان سلطان الدين يتناول كل شئ . وكان العلم بعض ما يتناول . ذلك بأن الإنسان لم يكن قد فصل بين الدين والعلم على نحو ما فعلت أوروبا من بعد — حين أوقفت الإنسان من الوجود موقف الخارج عنه المشاهد إياه يلاحظه ويستنبط من ملاحظاته قوانينه . بل كان الإنسان ما يزال يشعر بنفسه قسماً غير منفصل من الوجود متأثراً به أكثر من

تأثيره فيه ، فلم يكن له من أجل ذلك بدٌّ من أن يطمئن إلى موقفه منه بين
أزله وأبده . لذلك تجاوز العلم والدين في النفس الإنسانية ، ولذلك كان
بين العلم والدين من التعاون والتضامن ما رأى الإنسان ضرورته
لسعادته في هذه الحياة الدنيا وفيما بعدها . على أن علم الإنسان كان
يومئذ محدوداً ، وكانت معارفه قليلة لا تكفي لتتير له سبيل الحياة
ولتزيده عليها قوة ، فلم يكن بدّ إذن من طمأنينة الإنسانية إلى الإيمان
لتقوى به على الحياة وتتهدى به إلى الخير والنعمة فيها . ولذلك ظل
الأمم لرجال الدين بعد ثورة الإصلاح كما كان لهم قبلها ، وإن نشبت
بينهم أسباب من الخصومة بل العداوة مهدت للمفكرين من غير رجال
الدين أن يشقوا لأنفسهم طريقاً يصل بهم إلى صفوف الإنسانية
الأولى ، ويسمح لهم بمشاركة رجال الدين في توجيه الناس في الحياة ،
ويمكنهم بذلك من مشاركة رجال الدين في السيطرة على الناس ، وفي تولى
زمامهم ، وفي القيام منهم في مناصب الحكم .

لم يوفق بعض هؤلاء المفكرين إلى بلوغ المكانة التي قصدوا إليها ،
فقد نادى بعضهم بأمور تخالف مقررات الكنيسة من غير أن تكون
بدئية لدى العقل . فالأرض كروية أو مسطحة ، وهل هي تدور حول
الشمس أو أن الشمس هي التي تدور حولها . هذه وأمثالها من المعارف
التي أصبح الواقع منها في حكم البديهيات أمام نظرنا كان ما قرره
العلماء منها مخالفاً لما قررت الكنيسة ، لذلك لقي هؤلاء العلماء —
كما لقي المتشككة — عنتاً من جانب الكنيسة لم يثر رجال الدين ، ولم

يثر الرأي العام في وجهه لأنه كان بمثابة الدفاع عن الحقائق المقررة . وللحقائق المقررة مكانتها من النفوس ؛ فهي تميل أبدأ إلى الاطمئنان إليها وتنتظر شراً لمن يخالفها أو يحاول نقضها حتى تستقر مكانها حقيقة غيرها تطمئن الجماعة لها وتؤمن بها ، ولم يكن رجال الدين وحدهم هم الذين حاربوا هذه الحقائق الجديدة . بل ازورء كذلك عن تأييدها جماعة المفكرين من غير رجال الدين ممن لم يعضوا أنفسهم بتمحيصها . هؤلاء المفكرون هم جماعة التجريديين — المتبائزين يقيمين — الذين جعلوا منطق العقل وحده وسيلة الوصول إلى ماسمونه الحقيقة المطلقة . وهؤلاء كانوا يرون حقاً ما أقره العقل وإن أعوزه الدليل المحسوس ، وكانوا يرون مانفاه العقل وإن أيدته الكنيسة مفتقراً إلى الدليل كي يثبتته . وواسطة العقل في التدليل المنطقي . لذلك كان المنطقي أداتهم الأساسية لإقامة الدليل .

كان الكثيرون من هؤلاء المفكرين من غير رجال الدين مؤمنين إيماناً صادقاً . لذلك اعتمد رجال الدين عليهم وعلى أداتهم في البحث والتدليل أزماناً طويلة . وزاد الخلاف بين رجال الدين وبحلهم المختلفة في ظل هؤلاء المفكرين الذين كانوا يؤيد بعضهم ديناً بعينه ، ويؤيد البعض الإيمان بالله وبالروح وخلودها وبالبعث والحساب . وتطلعت الصفوة من أهل كل أمة إلى ناحية هؤلاء المفكرين والفلاسفة على أنهم الأمل المرجو للمستقبل بعد أن بدأ سلطان الكنيسة يذوى ويتوارى ، وبذلك نهضت الفلسفة التجريدية نهضة قوية أدت إلى تهدم التفكير

وإلى افتتاحه مختلف الميادين ، وإلى ملاحظة المفكرين الواقع المحسوس
وإلى استنباطهم الأدلة منه ، وإلى تمهيدهم بذلك للملم الواقعي الذى كان
موقوفاً إلى ذلك الحين على خدمة الدين والفلسفة .

كانت هذه النهضة فى التفكير نتيجة محتومة للإصلاح الدينى .
وكانت قائمة على أساس ما نقله العلماء الذين أجلى الأتراك عن بينظرة
من مطلق اليونان وفلسفتها وحكمتها . وقد أدت النهضة الفكرية إلى
إطلاق حرية العقل فى ميادين أخرى مختلفة نشأت عنها نهضات تأثرت
هى الأخرى بالثقافة اليونانية ، أول هذه النهضة الأدبية . فقد قام
شكسبير وقام من بعده ملتن فى إنكلترا ، كما قام راسين وكورنى فى فرنسا ،
يثيرون فى شعر بالغ غاية القوة والجمال صوراً وعواطف دينية وإنسانية
كان التغنى بها من قبل يعتبر هرطقة وتجديفاً . وإلى جانب النهضة
الأدبية قامت فى الفن نهضة قوية بدأت فى إيطاليا ثم امتدت منها إلى
بلاد أوروبا المختلفة . وكذلك حطمت أوروبا قيد الحرية الإنسانية التى
كبلتها به الكنيسة عصوراً طويلة باسم الدين ، ففتح باب الاجتهاد أمام
التفكير وأمام الفن والأدب ، وفتح باب الاجتهاد فى الدين نفسه بعد
أن ظل مغلقاً أجيالاً وعشرات الأجيال .

بينما كانت أوروبا تنهض هذه النهضة تاركه حروبها الصليبية العقيمة جانبا ،
مستقلة بنفسها وبإصلاح طرائق تفكيرها ، وبإطلاق الحرية من قيودها ،
كانت صفائح الجلود تزداد فى الشرق كشافة وتحجراً . وبينما كان المفكرون
والعلماء ورجال الأدب ورجال الفن فى الغرب تأخذ كل طائفة منهم
بيد صاحبيتها لتزيد فى حريتها فتزيد بذلك فى تناسلها ، كان الفن والأدب

والعلم والتفكير يصفد في الشرق وفي الدول الإسلامية ليضع رجال الدين يدهم على كل شيء من ذلك ويزيدوا في القيود الجامدة التي لا يجوز تخطيطها أو التفكير على نحو غيرها . وأيد الخلفاء من بني عثمان في تركيا وفي سائر أنحاء الأمبراطورية الإسلامية هذه القيود الجامدة ، وأسبغوا عليها باسم الخلافة طابعاً دينياً لا يجوز لإنسان أن يناقشه أو أن يضع جليله أو حقيره موضع البحث ، ولم يجد رجال الدين ولا وجد الخلفاء يومئذ عنتاً فيما صنعوا من ذلك . فنظام الحكم الإسلامي الذي انتقل من الشورى على ما وصفها أبو بكر إلى الأوتوقراطية المطلقة ، ومن وكالة الخليفة عن المسلمين إلى استبداده بهم واعتباره نفسه وكيل الله عليهم وكنية الله فيهم ، قد تدرج في ذلك من الخلافة إلى الملك العضود في عهد بني أمية إلى وكالة الخليفة عن الله وكالة وصفها المنصور العباسي بقوله : « أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوقيفه ، وتأيدوه ، وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وإرادته ، وأعطيته بإذنه ، جعلني الله عليه قفلاً ، إن شاء أن يفتحني فتحنى لإعطاءكم وقسم أرزاقكم ، وإن شاء أن يقفلني عليها أنقلى » . وقد نشأ عن هذا التدرج أن صارت الدولة الإسلامية محكومة منذ عهد العباسيين بنظام استبدادي طوع للفتح والغلب في أيام الخلفاء الراشدين كما حدث في عهد الرشيد والمأمون ، كما مهد للفتنة والاضطراب مما حدث أيام المستنصر وجماعة الذين خلفوه ممن انتهت بهم الدولة العباسية ومن مهدوا للجمود والتأخر . من ذلك الوقت أسبغت النظرية الاستبدادية على الملك والسلطان جلالاتاً بجلال الله ، وجعلت للخليفة عرشاً كعرش

الله ، واستمدت له قداسة روحية من أمر الله . ولم يكن الملوك ولا كان الخلفاء هم الذين صوروا عرشهم واستمدوا من الله استبدادهم ، وإنما صور لهم هذا العرش واستمد لهم هذا الاستبداد جماعة الفقهاء والمتكلمين الذين التمسوا من وراء ذلك الإفتاء عطف صاحب السلطان واقتناص الجاه والمال بما يجود به على المنافقين من حوله ، وليظل هذا الاستبداد آمناً مطمئناً لم ير الفقهاء بداً من أن يسكنوا له في النفوس بأن يلبسوه لباس الدين . وليزيدوا في أمن الاستبداد وطمأنينته رأوا تقليل الإرادة الإنسانية وتكبييل العقل الإنساني والعاطفة الإنسانية . لذلك نشطوا يضعون القواعد ، وينظمون حياة الأفراد في كل كبيرة وصغيرة ، ويرتبون الجزاء على مخالفة هذا النظام ويسندون ما يقررون من ذلك كله إلى الدين ، ويجعلونه بعض ما أتى الرسول به الناس ، ويعض ما نهى عنه ، ويشيرون إلى أن ما قرروا للسلطان من حق الجزاء في هذه الدنيا لا ينبغي ما يحزى به الإنسان والآخرة ، ويصرون هذا الجزاء في الآخرة تصويراً فيه من الدقة المادية ما في تصويرهم للجزاء الذي يوقع في هذه الحياة . وهم فيما قاموا به من ذلك لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة من عمل الإنسان وسلوكه ، بل بما يحش بخاطره ويحس به بينه وبين نفسه إلا أنظموها . فكيف يأكل الإنسان ، وكيف يشرب ، وكيف يستحم ، وكيف يتعامل مع غيره ، وكيف يؤدي التحية وكيف يردّها وكيف يقوم وكيف ينام وكيف يعامل أهله في بيته . — كل ذلك نظم أدق نظام ، ورتب على مخالفته الجزاء ، وأنت تستطيع أن تذكر أي شيء مما في الحياة وتجاريها سواء بين الإنسان وبين نفسه ، أو بينه وبين أهله ،

أو بينه وبين المجموع ، أو بينه وبين السلطان ، أو بينه وبين الله ، تستطيع أن تذكر أى شيء من هذا لتراه قد نوقش وبحث واستمدت له القواعد والأحكام من القرآن ، فإن لم توجد في القرآن فمن الحديث ، فإن لم توجد في الحديث فمن السنة ، فإن لم توجد في السنة فمن الإجماع ، فإن لم توجد في الإجماع فمن القياس . واستمر النشاط في هذا السبيل عصوراً متوالية كان يقوم أثناءها الحين بعد الحين مجتهد لا يعنى كثير أبهى صاحب السلطان فيقرر ما يراه حكم الدين الحق دون أن يخشى قيام الفقهاء الرسميين عليه ورميهم إياه بالمروق والزندقة والإلحاد . فلما بدأت عصور الانحلال بالتحلل الدولة العباسية وكثرت الفرق خيف أن يقوم من بينها من يحاول هدم المذهب الرسمي من ناحية ، وخيف من ناحية أخرى أن يقوم داع يهز في النفوس الكرامة الإنسانية واحترام الذات وتمجيد العبادة لغير الله ، فيدعو بذلك إلى الانتفاض على سلطان واه مزعزع ما أيسر ما تعبت به هزات النفوس . لذلك قام جماعة من أولئك الفقهاء الذين وصفنا قنادوا بأن الشيعة فشيت باسم الاجتهاد وأن أفكار الرفض والإلحاد تروج تحت ستاره وقرروا لذلك لإقفال باب الاجتهاد وضرورة تقليد السلف والاختذ بأحكامهم ، واعتبروا كل خارج على هذه الأحكام مارقاً كافراً جزاؤه جزاء من ارتد عن دينه ومثواه في رأيهم جهنم وبئس القرار . كانت النفوس في هذه البلاد الإسلامية قد انجلت يومئذ فسيكت إلى هذا القرار ولم تثر عليه . وظل الأمر كذلك حتى جاء الأتراك فحكموا العالم الإسلامي واتخذوا من فقهاء المسلمين بطانة يزيدون في

أعلا العقول وأصفاد القلوب . ولعل الإنصاف يقضى ألا نحملهم من تبعة ذلك كثيراً ، فهم لم يكونوا يعرفون روح الإسلام الصحيحة ، لأنهم لم يكونوا يعرفون لغته ، ولم يكونوا لذلك قادرين على إدراك أسرارهِ . ولئن كان من بينهم علماء حاولوا معرفة أسرار الدين فأولئك قد عرفوها في كتب التدهور والجمود وكانوا بطبيعتهم الحربية وبطبيعة البيئة التي أنبتتهم والمعارف المبهثرة التي سعوا بها لفهم الدين — ميالين لتصديق كل ما كان خارجاً على الطبيعة سامياً فوق العقول . إنما التبعة على فقهاء المسلمين الذين باعوا علمهم للأتراك ، والذين انحط إدراكهم حتى صاروا يرون في كل جديد إلحاداً ومروقاً . وصاروا يحرصون على الجمود أشد الحرص ويرون في القضاء على كل اجتهاد رحمة من الله بعباده ويصفّدون الشعوب الإسلامية حتى يصبح التقليد التام الأعلى أساس حياتها في نظام حكمها وفي شريعته وفي أخلاقها وفي آداب مجتمعتها ، وفي طرائق تفكيرها ، وفي معالجاتها العظيم والحقير والجليل والتافه من كل شؤون الحياة .

مع هذا التدهور في العقيدة وفي التفكير ومع تصفيد الحرية بالأغلال الثقيل ، ومع إخضاع العالم الإسلامي لنير الترك خضوعاً أعمى في العصور التي كانت أوروبا تتحرر خلالها من سلطان الكنيسة وتنزع فيها إلى تحكيم العقل وتقوم فيها نهضات زاهرة للأدب والفن والفلسفة وسائر صور التفكير والإحساس — مع هذا كله ظلت الدولة الإسلامية محتفظة بمرکزها ، وظلت أوروبا في شغل نفسها عن التفكير في غزو صليبي وفي غزو جديد أيا

كان نوعه . ويرجع ذلك إلى اعتبارات عدة ؛ فلكات الأتراك العسكرية ، ومجدهم الحربى كانت تبعث الرعب إلى النفوس وتصد عن التفكير فى غزو البلاد الإسلامية المستظلة كلها أو أكثرها يومئذ بالعلم التركى . فلم تنس أوروبا تقدم الجيوش التركية ظافرة إلى أسوار عاصمة النمسا وتهديدها قسينا وتهديدها أوروبا بأسرها . والدول لا تنظر بعضها إلى بعض ولا ترتب علاقات بينها على أساس تقدم العلم والحضارة . أو تأخرهما فيها ، وإنما ترتب هذه العلاقات على أساس القوة الحربية المادية . وإذا لم يكن فى ذلك شئ تفاخر به الإنسانية أو تعتبره سبباً لمجدها فإنه لسوء الحظ هو الذى كان واقعاً يومئذ وما يزال الواقع اليوم ، ثم إن أوروبا كانت فى شغل بنفسها وبالأضطرابات الدينية والسياسية الداخلية التى لم يكن منها مفر بسبب تطور العقلية الأوروبية هذا التطور السريع الذى وصفنا . وأيس من شأن الإنسان — حين شغله بنفسه وباضطراب أموره الخاصة — أن يفكر فى مهاجمة غيره وفى غزوه . وبخاصة إذا كان هذا الغير مخشياً الأيد مرهوب الجانب . والدولة الإسلامية كانت محتفظة بمركز القيادة يومئذ فى العالم ، كما كان مركز التجارة والرخاء الاقتصادى بين المسلمين . (يضاف إلى ذلك أن اكتشاف كولمبوس لأمريكا فتح أمام أوروبا ميادين للاستعمار خفت ليلها إسبانيا فوجعت نظر غيرها من الدول الأوروبية إلى ناحيتها . ولم يكن الهنود الحمر من سكان أمريكا ليخيفوا أوروبا ما تخيفهم الدول الإسلامية التى وقفت حائلاً بينهم وبين آسيا ، والتى أرتهم من الصلابة إبان الحروب الصليبية ومن البأس حين اقتحام الأتراك أوروبا ، مالم

يروا بعد شيئاً منه في أمريكا . فإذا كانت الدولة الإسلامية يدب لها
ديب الفساد وتجري مسرعة في سبيل الانحلال فإن حالة ماضيها أقامت
حولها سياجاً من وهم صد أوروبا عن التفكير في مهاجمتها وغزوها .
وقد يكون هذا عجيباً . لكن الأجب منه أن الدولة الإسلامية بقيت
بمعزل عن الثورة القوية القائمة في أوروبا تحطم القيود وتبني الحرية
الفكك من أسارها ، وكأنما بين الشرق والغرب أسوار من حديد تحجب
هذه الحركة عن أنظار الشرق لتدعه يغط عشرات السنين ومثاتها في
سباته وكأنه لا يصل إليه شيء من علم المجازز التي تحدث باسم الدين
وباسم الإصلاح في أوروبا ، أو كأنه في سعاده بمجموده ينظر إلى هذه
الحركة على أنها طيش جنوني غير لائق بهذا الشرق العريق في مجده
العريق في حضارته ، أن يأبه لها أو أن يفكر فيها . وأدعى للعجب
أن تكون الفزوات الصليبية قد فتحت عيون أهل أوروبا المسيحية
على كثير مما في الشرق ، وقد دعت هؤلاء المسيحيين إلى التفكير فيه
فكان إلى جانب غزو الأتراك أوروبا وهجرة العلماء المسيحيين
من بزنطة إلى الدول التي تجاوزها بعض ما أسرع بأوروبا إلى بعثها :
أما الشرق فظل في سكينته الجامدة ، بل ظل يزيد في هذه السكينة
جموداً . وأنت تستطيع أن ترى ذلك وأن تلحجه بحسماً في كتب
المتأخرين من متكلمي الشرق وفقهائه ممن سخرُوا ملكاتهم لخدمة
الخليفة العثماني حينما كانوا من نواحي الامبراطورية العثمانية . فقد
بلغ من جمود التفكير في تلك العصور أن حصر العقل في حدود أنانية
ضيقة ترتب عليها إبراز الفسكرة غير المحدودة بطبعها في صورة شيء

مادى محدود ككل محبوس مادى ، لاعلى أنها صورة ذهنية فى طبعها التمدد فى لانهايات المكان والزمان ، تمدداً هو وحده الكفيل لها أن تشر كل آثارها . وأنت إن رجعت إلى كتب فقهاء تلك العصور رأيت هذه المادية الوثنية صريحة واضحة ممتدة إلى كل ما يحتمل التحديد ولا يحتمل التصوير المادى ، بل ممتدة إلى الروح وإلى خالق الكون — تعالى خالق الكون عما يصفون . فى هذه الكتب ترى وصفاً مادياً للعرش وتصويراً مادياً للملائكة الخافين من حوله ، وذكرأ مادياً للألفاظ التى تخرج من أفواههم فى التسييح بحمد الله وفى تقديسه . وهذا الوصف والتصوير المادى هما فى الإسلام الصحيح وثنية لا ريب وتحريف . وإذا تناولت المادية تصوير العرش والملائكة وتسييحهم فأجدر بها أن تتناول الرسل والأنبياء وصفاتهم وحياتهم . وقد فعلت ، فما تحدثت فيه ما إذا كان الرسل بعد موتهم عليهم السلام يقيمون فى القبر حياة مادية يأكلون ويشربون ويتناسلون ويتناسلون ، وتناولت المادية الشمس وما إذا كانت ساعة مغيبها تختبئ تحت عرش الله العظيم حتى يؤذن لها أن تشرق فى الصباح . وإنك لتقرأ فى سير الأنبياء التى كتبت فى تلك العصور ما ترى أثر المادية فيه واضحاً إلى حد لا تستطيع معه دون الابتسام ازدراء بهم وإشفافاً عليهم . ولست بحاجة إلى ضرب الأمثال فى هذا وفى مقدور من شاء أن يطلع على ما كتبت من السير فى تلك العصور ويلس فيها من هذا السخف المادى ما تزهت عنه السير التى كتبت فى عصور أقرب إلى عصور أولئك النبیین ، وحين كانت تلك السير ما تزال فى صفائها الأول أو ما تزال قريبة كل القرب منه .

إذا انحدرت النفس الإنسانية إلى هذه الهاوية من التصور المادى ونظرت إلى العالم على أنه آلة، لاعلى أنه فكرة ضاق نطاق التفكير أمامها وأبجنت أنبل عواطفها، وحمد صوت الضمير فيها، وتداعت المعانى الإنسانية السامية جميعاً أمامها وتحركت في أعماقها السلائق الحيوانية الصرفة ثم تحكمت فيها ووجهتها في كل مشاعرها وكل تصرفاتها. وذلك ما حدث أو ذلك ما كان أثراً محتوماً لها، ظل علماء المسلمين يعلمون الناس قروناً طويلاً وجوب الإذعان إلى من تولى الأمر سواء أكانت ولايته الأمر شرعية أم معتصبة. ولقد دفعت السلائق الحيوانية إلى هذه النفوس الإنسانية التى فقدت كل معنى لإنسانى أخط الأخلاق وأسفلها. دفعت إليها الكذب والنفاق والتحايل لانتقاء غضب كل ذى سلطان، ولانتقاء غضب الحاكم، ولانتقاء غضب الله معتبرة إياه جل شأنه وكأ أنه حاكم من الحكام أو رئيس من الرؤساء. وعاون العلماء والفقهاء على نمو هذه الأخلاق الوضيعة فى النفوس بما جعلوا يصدرن من الحيل الشرعية التى يتحايل بها المسلم على أحكام القرآن وعلى أوامر الدين ثم يكون من جزاء الله بنجاة، كما بما الله ليس؛ مطلع على الغيب وعلى ما تخفى الأنفس وعلى خائنة الأعين. وافتنت طائفة من الفقهاء فى تصوير هذه الحيل، ووصلت من طريق هذه الفتاوى التى تصدرها فى شأنها إلى ما تصبو إليه من رياء مادى وإلى حظ عظيم من متاع هذه الحياة الدنيا متاع الغرور. وإذا ساغ للنفس أن تتخذ الحيلة وسيلة إلى الله وأن تتوجه إليه بالنفاق وبالكذب فما عسى يقف أمامها فى التوجه إلى الحاكم وإلى صاحب السلطان، وما عسى يقف أمامها فى بلوغ غايتها

أياً كانت هذه الغايات ١١٩ وما دام صوت الضمير قد جمد فقد آن للزيلة أن تلبس ثوب الفضيلة ، آن لكل نقص وفساد أن يجد ما يبرره ، بل ما يصوره كلاً وخيراً . ولا شيء أفتك بحياة الشعوب من أن تنقلب عندها المقاييس الصحيحة للحق والفضل . ولا شيء أدعى إلى انحلال الأمم وإلى أن تدول الدول من تحكم السلاقي الحيوانية في الإنسان تحكما يهوى بملكاته العليا إلى الحضيض فيسلك من أجل ذلك طريق الضلال .

وفيما كان هذا التدهور يستشري في شعوب الشرق الإسلامي كانت نهضة أوروبا العقلية والأدبية والفنية سائرة في طريقها لا تقتر ولا تقي ولا تعرف هوادة أو تواكلاً . وكان أعظم ماعنى به القائمون بهذه النهضة معرفة الطريقة الصحيحة في التفكير ؛ الطريقة التي تهدي إلى الحق وتصل بالإنسان إلى حسن إدراكه . وإذا كانت ثورة لوتر ومن سار في طريقه قد بدأت تحطم سلطان الكنيسة المطلق وتعرف للعقل بحقه في أن يفكر مستقلاً ليصل إلى معرفة الله وما أمر به ونهى عنه ، ثم كانت نهضة الفلسفة التجريدية قد قامت في أثر ذلك تبغى لإثبات الحقائق المقررة طريق المنطق غير المقيد إلا بحكم العقل ، فقد آن للتفكير الغربي أن يخطو خطوة جديدة إلى باحة العلم الواقعي .

وقد مهد لهذه الخطوة ما قام بين الفلاسفة التجريديين من نزاع يشبه بعض الشيء ذلك النزاع انذى قام منذ قرن أو نحوه بين رجال الدين . نزاع اشترك فيه رجال الدين أنفسهم لأنهم رأوا في تقدم الفلاسفة إلى الصف الأول من صفوف الجماعة الأوربية ما كاد يقضى على قوتهم ويدك سلطانهم وينزع منهم ما كان باقياً بين أيديهم من أئنة الحكم .

اختلف الفلاسفة أن كان من بينهم ملاحدة ينكرون الدين وينكرون
الوحي وينكر بعضهم وجود الله وحسابه، ولكنه يعمل ليحل الفلسفة
في النفوس محل الدين ويجعل لها سلطانه ؟ ولم يأبه رجال الدين بالملاحدة
من الفلاسفة لأنهم رأوهم أبعد من أن يصلوا إلى نفوس الشعوب
ليوجهوها وليأخذوا بزمامها ؛ فحاجة الشعوب إلى الإيمان حاجة طبيعية
ملحة لا غناء للشعوب عنها كي تعيش . وحاجة الشعوب إلى الإيمان
كحاجتها إلى الهواء وإلى الماء وإلى الغذاء . فإذا دعاها داع لتؤمن
بأنها في غير حاجة إلى الإيمان وأن الإيمان أكذوبة وضلال سخرت
منه ورأته بعيداً عن الحقيقة بعد الذي يزعم لها أنها في غير حاجة
إلى الهواء أو إلى الماء : فأما الفلاسفة المؤمنون الذين أرادوا أن يحلوا
الإيمان الفلسفي محل الإيمان الديني فأولئك كانوا في نظر رجال الدين
مصدر الخطر . لذلك وجه رجال الدين قوتهم لمناهضة أمثال ديكرت
وروسو وغيرهم من المؤمنين الذين يقيمون صروح الإيمان الفلسفي
على قواعد يسيغها العقل وتطمئن لها النفس وتستوى الجموع استواء
يحملة يؤيد هؤلاء الفلاسفة على حساب رجال الدين . وأنت أقدر
على قياس مدى الخطر الذي خشيته الكنيسة المسيحية من هؤلاء
الفلاسفة إذا ذكرت أن روسو حاول أن يقيم ديناً جديداً يحل محل
الأديان المقررة . فإذا ناهضت الكنيسة هؤلاء الفلاسفة ، وإذا هي
استعدت عليهم سلطان الحاكم و غضب الجماعة ، وإذا هي حاربتهم بكل
وسائل الحرب ، فلها من العذر أنها إنما تريد الاحتفاظ بسلطانها ، بل
الاحتفاظ بحياتها .

واشتدت الحرب بين الفلسفة والكنيسة. وازدادت المعركة أواراً ورسدة. وألنى الفلاسفة أنفسهم على اختلاف نحلهم ومذاهبهم موضع مهاجمة رجال الدين. فلم يروا بداً من أن تتضاغر جهودهم أثناء المعركة، وأن تكون بينهم هدنة حتى إذا تم لهم الظفر بخصومهم عاد كل منهم إلى مناهضة رأى صاحبه. وفي سبيل النصر فضح الفلاسفة المؤمنون والفلاسفة الملحدون جميعاً مخازى الكثيرين من رجال الدين، وأظهروا المجموع على شره هؤلاء وشهواتهم وحبهم المال، وتها لكهم على الملاذ، وحرمانهم المجموع من كثير من أسباب نعمته وسعاداته ليتمتعوا هم بالنعمة والسعادة.

مهدت هذه المعركة إلى خطوة جديدة يخطوها التفكير الغربى إلى إباحة العلم الواقعى القائم على طريقة الملاحظة والمقارنة والاستنتاج لمعرفة سنن الكون الثابتة بالدليل المحسوس الممكن تحقيقه، والذي لا يقبل لذلك خلافاً أو جدلاً. وقد ظلت العلوم الوضعية قبل استقلالها في خدمة التجريد زمناً طويلاً، كما ظلت قبل ذلك زمناً طويلاً في خدمة اللاهوت. لكن الجدل العنيف بين الكنيسة والفلسفة جعل رجال العلوم الوضعية يأنفون أن يظلوا وأن تظل علومهم في خدمة الفلسفة أو في خدمة الكنيسة ورفعهم ليطبّقوا طريقتهم على جميع فروع المعارف التي لم تكن خاضعة من قبل لها، كلباحث النفسى والاجتماعية والاقتصادية والبحوث العقلية، وزاد ذلك في نشاط هؤلاء العلماء لأوجست كنت والامارك من قبله في فرنسا، ولهربرت سبنسر ولدارون من قبله في إنكلترا، ولهسل وهجل وغيرهم من العلماء

في ألمانيا أن يبنذوا كل مالا تثبته طريقتهم بما سبق إليه اللاهوت وسبق إليه التجريد ، وأن يعتبروا اللاهوت والتجريد حالتين من حالات العقل الإنساني مهادتين للحال العلمية التي اعتبرت في نظرهم الصورة النهائية لما يجب أن تكون عليه مباحث العقل .

وقد غلا أنصار المذهب الواقعي ، وللعلم الواقعي في تقدير ما يستطيع العلم غلواً دفع رينسان ودفع تين ، ودفع كثيرين غيرها في مختلف بلاد أوروبا إلى الاعتقاد بأن العقل الإنساني سيصل من طريق هذا العلم إلى معرفة سنن الكون جميعاً ، وإلى الكشف عن أسرار الوجود كشفاً مادياً يلبسه العقل الإنساني و يقيم الدليل عليه ويحل بذلك ما كان يظنه الإنسان طلاسماً لا سبيلاً إلى تلمس شيء من حقيقةها إلا بوحى الإلهام . وعلى أساس من هذا الاعتقاد قام الإيمان في أوروبا بأن الحضارة الإنسانية قد اطمأنت إلى الأساس الثابت الذي تقوم أبداً الدهر عليه . أساس العلم الذي لا يعرف إلا ما أثبت العلم ، والذي يطرح كل ما لم يثبت العلم جانباً حتى يحىء دور إثباته . وبهذه العقيدة نظر رجال العلم هؤلاء إلى الفلسفة التجريدية وعلى ثغرم ابتسامة إشفاق لهذه المجهودات الكثيرة التي أنفقت الإنسانية ظاته أنها تصل من طريقها إلى الحقيقة ، ثم إذا ما صنعت لا يزيد على مضاربة نظرية تقيم فروضاً وتهدم فروضاً ولا تقرر حقاً ثابتاً ، ونظروا إلى الكلام وإلى الدين بأكثر من نظرة الإشفاق . نظروا إليه وإلى رجاله نظرة حقد وكرامية وإصرار على ألا يكون هؤلاء الرجال على الحياة.

من بعد سلطان . وكذلك انفتحت كلية العلماء مع كلية رجال الفلاسفة في شأن الدين ورجاله .

إلى أى مدى حقق العلم الواقعى آمال السابقين من رجاله ؟ ليس هذا الفصل موضع القول فى هذا ، لكن هذا العلم الواقعى قد بعث فى حياة الاختراع الصناعى روحاً قوياً ناشطاً جعل الناس يرون من آثارها كل يوم جديداً ، ودفع بها لذلك إلى الصف الأول من صفوف الحياة الاقتصادية ، ونفخ بذلك فى حياة الاقتصاد السياسى روحاً جديداً هو الآخر ، وأزله من المعارف الإنسانية فى منزلة العلوم الواقعية بما أدى إلى تصوير المذاهب الاقتصادية تصويراً جديداً غير الذى كان معروفاً إلى يومئذ . ومن ثم أقام جون ستوارت المذهب الفردى يعارض به المذهب الفيزيراطى . ومن ثم نشطت المذاهب الاشتراكية حتى قام ماركس يضع مذهب الاشتراكية العلمية . ومن ثم لم تبق حضارة أوروبا حضارة العلم وحده ، بل صارت حضارة العلم والصناعة جميعاً ، وقد كان لهذا التحول فى توجيه الحضارة آثار كثيرة مختلفة ستعرض لبعضها فى غضون هذا الكتاب .

وكان لهذا التطور فى طرائق التفكير الإنسانى من الأثر فى الأدب والفن مثلاً كان له فى الصناعة . وقد أشرنا إلى أن نهضة الأدب والفن منذ بدأت ثورة الإصلاح الدينى ، ومنذ بدأ انتشار الثقافة اليونانية فى أوروبا فى القرن السادس عشر . ولم تكن هذه النهضة أقل من نهضة طرائق التفكير نشاطاً ، وصارت النهضة

تؤثر واحدهما في الأخرى وتقضيان في نفس المجموع الأوربي على ماكان من حصر دائرة العلم والأدب والفن في حدود الكنيسة وما تشاء ، وتتناولان من شؤون الحياة كل ما يكشف العلم عنه وتسبقان العلم في أحيان كثيرة ، وتسبقانه أحياناً عشرات السنين بل مثاتها إلى تقرير حقائق تظل مفقورة إلى الدليل العلمي ، وتظل منظوراً إليها من ناحية العلماء بعين الريية ، ثم يقوم الدليل العلمي عليها وتصبح من مقررات العلم بعد أن كانت من مقررات الفن والأدب وحدهما .

طبيعى أن تتنفس هذه الثورات الدينية والأدبية والفنية والعلمية عن انقلاب جوهرى في نظام الجماعة وفى طريقة حكمها ، وأن تتنفس لذلك عن ثورة أشد من كل هاته الثورات عنفا . تلك هى الثورة السياسية ؛ فالنظام السياسى في أمة ما هو التصوير العلمى لحياة الجماعة كيف تسير ، وإنما يصدر هذا التصوير عن طريقة تفكير الجماعة ويتغير كلما تغير ما بنفسها . وقد تغيرت نفس الجماعة على رجال الدين الذين استأثروا بالحكم أجيالا لاعتراف الجماعة لهم أنهم يمثلون آمالها ومطامعها ، فخرج الحكم من أيدهم وأوشك أن يخرج من يد الملوك الذين يؤيدهم رجال الدين ويوعونهم خلفاء الله على الأرض . وقد قامت الثورة الديموقراطية انكلترا في أواخر القرن الثامن عشر فانهت بعبادهم لويس السادس عشر ونشرت الفلسفة ثم نشر العلم الأفكار الديمقراطية التي تجعل لكل شعب أن يحكم نفسه بنفسه ، فأمن بها الناس وضمروها .

إلى العلم وإلى الصناعة على أنها أساس من أسس الحضارة التي أقاموا .
ولذلك كانت الديمقراطية لا تتحقق إلا حيث تنحصر الوطن في حدود
معينة ، وحيث تقوم لذلك فكرة القومية أصيلة في النفوس للدفاع عن
عن هذا الوطن ، فقد وطدت أوروبا هذه الفكرة وجعلت القومية
أساساً رابعاً من أسس تلك الحضارة .

ليس يدخل في نطاق هذا البحث تفصيل هذه الأسس للحضارة
الأوربية بأكثر مما سبق . ونحن إنما سقنا ما تقدم لأن أوروبا التي
عدلت عن غزواتها الصليبية منذ غزو الأتراك إليها ، والتي أقامت
داخل حدودها إبان تحريك الثورات التي أشرنا إليها أحشاءها قد
بدأت منذ القرن الثامن عشر تزحف على الشرق وتزعم أنها تريد
من هذا الزحف أن تقر الحضارة في ربوعه ، وأنها تريد « تغرب » هذا
الشرق - على حد تعبير الأستاذ چب في كتاب (وجهة الإسلام) - فإذا
فعلت لإقرار هذه الحضارة في الشرق ؟ وإلى أي مدى وصلت من
تغريبه ؟ وهل كان الشرق أول زحف الحضارة الأوربية الجديدة
عليه مستعداً لحسن قبولها ، وماذا ثار في أحشاء الشرق من رد
الفعل إزاء هذه الحضارة ؟ أترأه أساغها وتمثلها ، أم فرضت عليه
فأذعن لها ؟ وهل وصل ما تمثله منها إلى أعماق تفكيره ؟ إحضار هذه
المباحث يحتاج تفصيلها إلى إفاضة طويلة لا متسع ها هنا لها لأنها تحتاج
إلى مجلدات عدة ، لكننا سنلجأ بها جميعاً إلماً لا بد منه لتصوير الشرق
الجديد وما نريده أن يكون .

(٣)

الحضارة الاستعمارية

ماذا فعلت أوروبا لتظل الشرق بلواء حضارتها ؟ . لقد رأينا هذه الحضارة تقوم على أسس من العلم والصناعة والديمقراطية والقومية . فأى هذه الأسس اتخذت منه علم حضارتها ؟ وهل سلكت إلى نشرها سبيل الحضارات التي سبقتها ؟ أم اختطت لنفسها طريقاً جديداً ؟ وإن يكن ذلك فإلى أية غاية أدى الطريق الجديد بها ؟ !

جعلت الحضارات التي سبقت حضارة الغرب الأساس الفكري والنفسى لعلم حضارتها ، فتاريخ المسيحية شاهد بأنها — وقد نشأت في أحضان قوة روما المادية — إنما كان أساسها قوة روحية تحتقر المادة وتستهن بأذى أصحابها وتعتبر الثروة أكفل الوسائل لتورط الروح في الخطيئة حتى ليسكون دخول الجمل في سم الخياط أيسر من دخول الغنى في ملكوت الله . جعلت المسيحية من الفكرة الروحية أساس قوتها وأقامت النظام الفكري والحياة النفسية على قواعد من هذا الأساس الروحي فعززت الإنسان لذلك بقوة الكون المعنوية جميعاً يقف بها في وجه كل أرباب المادة والمؤمنين بسلطانها فيخضعهم لقوة روحه ويحملهم على اتباعه ويصل بهم إلى ما وصلت المسيحية من روما . وتاريخ الإسلام شاهد بأنه أنزل ليحطم في النفس الصور

(٤ - الشرق الجديد)

المادية بمثابة في هذه الأوثان التي كان العرب يؤمنون بها ، بمثابة كذلك في كل إيمان بغير الله وحده لا شريك له . وقد حطم الإسلام في انتشاره القوى السريع كل ما سوى هذا الإيمان من صور ، وأخضع كل ما في الحياة من مادة وقوة للإيمان بالله يسمو به الإنسان فوق ما في الحياة الدنيا جميعاً ليكون بعض قوى الكون الباقية بقاء الروح المتصلة بالعالم وبالوجود كله منذ أزله إلى أبده . وعلى الأساس الروحي أقرت المسيحية حضارة لم تدم في صفاتها طويلاً أن اختلطت بالوثنية الرومانية وبعقائد السواد المصري التي تدهور إليها التوحيد الفرعوني . لذلك تعرضت هذه الحضارة المسيحية للألوان من الإضطراب كانت مع عوامل أخرى مما أسرع بروما إلى الانهيار وما جعل الدولة البيزنطية تقف في إبان قوتها من كل سلطان مادي موقف روع وفزع ، لاحتفظها الأسباب التي كانت تحفز روما إلى التوسع وإلى حمل علم الحضارة التي حملت روما إلى أنحاء العالم بكل عظمة ومجد . فلما جاء الإسلام وبدأ بتنظيم الحضارة الإسلامية حول فكرة التوحيد الروحية السامية أسرع إلى الانتشار وأسرع الحضارة الإسلامية إلى الإستقرار في الممالك المختلفة المترامية الأطراف بين المحيطين الأطلنطي والهادي ، وبكلمة أخرى في ممالك العالم المعروف في ذلك الحين . وقد وقفت المسيحية في وجه الإسلام بعد أن حصرها في أوربا عصوراً طويلة تريد أن تنفذ إلى قلب إفريقيا وآسيا ، وفي تلك العصور كانت فكرة الروحية في صفاتها أول الأمر ثم مشوشة مضطربة على نحو وصفنا في الفصلين السابقين ، هي اللوا الذي تتقدم به صفوف

المسلمين وتتقدم به صفوف المسيحيين لغزو الإنسانية . ورغم
ما انحدرت إليه هذه الفكرة في العصور المسيحية الوسطى ، وفيما سبق
الغزو التركي وما لحقه في العالم الإسلامي فقد بقى اسم الرب عند
المسيحيين ، واسم الله عند المسلمين ، هو الذى تهتزله أوتار الأفتدة
وتتوجه إليه القلوب فى طلب النصر والظفر ، وبقي الإنجيل عند
المسيحيين ، وكتاب الله عند المسلمين ، آية هذه الحضارة التى يريد
هؤلاء وأولئك أن ينشروا لواءها ليظل العالم جميعاً .

لو أن الحضارة الغربية سلكت فى محاولتها غزو العالم ماسلك
الإسلام وما سلكت المسيحية من قبل لكان لواء العلم خفاق البنود
فى طليعة الغزاة الأوربيين لأمريكا بعد اكتشافها ، وآسيا وإفريقيا
عند اقتحامهما . ولعل ذلك قد دار بخاطر بعض الفاتحين الأوربيين ،
فقد رأينا نابليون إذ جاء إلى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر وقد
استصحب معه بعثة عليية تدرس أحوال مصر ، وأنشأ بالقاهرة مجمعاً
علياً فرنسياً . ولعله كان يريد أن يجعل هذا المعهد نواة لمعهد على
مصرى إذا استقر الأمر لفرنسا على ضفاف النيل . وهذه المحاولة
من نابليون لنشر أفكار الثورة الفرنسية فى مصر تجعلنا نعرف لهذه
الثورة الفرنسية بما دار بخلد أبطالها من تبشير بمبادئ الحرية والإخاء
والمساواة فى أنحاء العالم التى غزت . لكن هذه المحاولة لم تدم طويلاً
ولم تتعد أوروبا إلى غير مصر فى خلال الفترة القصيرة التى أقام الفرنسيون
بها ، فأما ما قبل الثورة الفرنسية وما بعدها إلى وقتنا الحاضر فلم

تقم الحضارة الأوروبية لغزو العالم باسم العلم ولا باسم التفكير الحر ،
ولأنما قامت وتقوم لغزوه باسم الصناعة الأوروبية وإحقاقها على بلاد
العالم جميعاً . وهذا الأساس المادى البحث هو الذى جعل أوربا تسمى
حضارتها الحضارة الإقتصادية ، وما جعل المبادئ الإشتراكية من
فردية وإشتراكية وشيوعية هى الأساس الذى يقوم عليه كل نضال
فى أوربا سواء فى شؤونها الفكرية أو السياسية ، والحافز الذى وجه
الحضارة الغربية فى غزوها الشرق غزواً يجعل الحضارة الغربية مرادفة
للاستعمار فى ربوعه .

والحق أن العلم والحرية العلمية لم يرتفع عليهما قط فى طلائع غزو
الغرب سائر ربوع العالم . وندع الغزوات الأولى التى قام بها الإسبان
فى أمريكا ، وندع الهجرة الإنكليزية للولايات المتحدة . فقد كان عنصر
الإستعمار المادى هو الحافز لإسبانيا كما كان الفرار من وجه العسف
الدينى هو الحافز للإنكليز الذين ذهبوا إلى العالم الجديد . صحيح
أن هؤلاء وأولئك لم تحركهم بعد استقرارهم بأمريكا أية عاطفة
إنسانية لإزاح أهلها حمر الهنود ، على العكس من ذلك قد جعلوا إستئصال
هؤلاء السكان الأصليين مرمى سياستهم وأساس حضارتهم . وكل
الأعداء التى تصاغ لتبرير خطة الإستئصال أقصر من أن تسوغ هذا
العمل الأهمجى البحث . لكن أوربا كانت ذلك الحين فى درجة متأخرة
من الحضارة هى وجدها التى تنهض عذراً لها عن تلك الوحشية .
ولسنا بمعرض التحدث عن أحوال الغرب التى سبقت حضارتهم

الحديثة . فلتنحط إذن هذه الفترة إلى حين بدأت أوربا تقاخر العالم بحزيتها وبعلمها، وحين بدأت تغزو الشرق بعد أن وقفت منه عسوراً وقرونا طويلة موقف الخائف الوجمل .

حاولت أوربا أن تصل إلى آسيا فوجدت في وجهها السد الإسلامي المنيع المتمدن مراکش إلى القسطنطينية حول شواطئ البحر الأبيض المتوسط الجنوبية جميعاً . ولم يدر بخاطرها أن تقتحم هذا السور وهى تذكر منعمته وتخشى أن تتعرض للخسائر الفادحة من الأموال والرجال إذا هى أقدمت على اقتحامه . ومالم يكن الخائف الإنسان على مغامرة إيمان ثابت يستهين بالحياة في سبيله ما استهان المسيحيون الأولون والمسلمون الأولون . فإن الغنى المادى ، وإن عظم ، أهون من أن يدفع بصاحبه إلى المخاطر الجسيمة . وبالرغم مما استطاعت البرتغال أن تحطم الأسطول المصرى فى القرن الخامس عشر فإن اقتحام السور الإسلامى ظل خاطراً تضطرب له أعصاب أوربا . لذلك كان اكتشاف فاسكو دى جاما طريق رأس الرجاء الصالح للوصول إلى آسيا بالدوران حول إفريقيا كلها هو الذى بعث الرجاء إلى نفس أوربا الظامئة لاستعمار الشرق . مع ذلك بقى هذا الظمأ مكبوحاً فيما خلا محاولات هولندا والبرتغال فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر حتى طوعت له مغامرات الأفراد؛ فقد ذهب جماعة الإنكليز الذين كونوا شركة الهند الشرقية فى مدراس، كما ذهب جماعة من الفرنسيين كذلك إلى الهند حيث أقاموا فى بوندشرى . ولم يكن

غرض هؤلاء ولا أولئك علياً ، ولا كانت له صلة بالحرية ولا بالديمقراطية ، إنما كان غرضاً تجارياً مادياً بحتاً . وعلى أساس هذا الغرض توسعت الشركة الإنكليزية توسعاً أتاح للحكومة الإنكليزية مؤازرتها ، ثم كان مقدمة تغلب إنكلترا على النفوذ الفرنسي في الهند وتوغل إنكلترا بعد ذلك في هذه البلاد التي أقعدها الجلود الديني والجنود الاجتماعي عن الحركة ، وقعد بها عن أن تدفع عن نفسها عدوان المعتدين . على الرغم من ذلك بقيت إنكلترا مترددة عشرات السنين دون اقتحام الممالك الهندية الخاضعة للنفوذ الإسلامي . لأن اسم الإسلام كان إلى يومئذ ما يزال مهيب الجانب محترماً مخوفاً .

هذا الأساس التجاري الذي أخذ بالتدريج صبغة الإستعمار هو الذي طبع غزو الحضارة الغربية الشرق وما يزال يطبعه . وكانت الوسائل التي سلكت أوروبا في هذا الغزو أقل ماتكون نفقات في الأموال وفي مهج الرجال . فهي قد آثرت بادية الرأي أن تترك العالم الإسلامي لاتعرض له . ولم يكن ذلك حرصاً منها على صداقة هذا العالم . فأوروبا لم تقم وزناً لاعتبار الصداقة يوماً من الأيام . إنما كان ذلك لأنها آثرت أن لاتعرض لاندحار قد يفسد عليها خطتها الإستعمارية . وكان ذلك لأن مبدأ القومية — الذي قام أساساً من أسس الحضارة تدعيماً للفكرة الديمقراطية — قد جعل دول أوروبا ينظر بعضها إلى بعض نظر تنافس وخصومة في الاستعمار ، لا نظر تعاون وتضامن في إذاعة العلم وبث حضارة تؤمن دول

أوروبا بأنها تكفل سعادة العالم وخيره . وفكرة القومية هذه هي التي أملت على أوروبا سياستها الداخلية وسياستها الخارجية كما أملت عليها سياستها الاستعمارية . ولذلك كانت كل واحدة من الدول الأوروبية تعمل تحت تأثير الفكرة القومية دائبة تريد إضعاف الدول الأوربية الأخرى . وكانت كل واحدة منها تخاف أن يتبعها غيرها إلى فتح في الشرق جديد . لذلك هبت جميعاً تنساق لكسب صداقة تركيا دولة الخلافة الإسلامية بدعوى ضمان سلامة الأراضي العثمانية . وفيما كان هذا الاتجاه يمل على دول أوروبا الغربية سياستها جميعاً . إذا بطرس الأكبر في روسيا يحاول أن يسلك سياسة جديدة . وإذا به يحاول غزو تركيا والاستيلاء على البسفور والدردنيل ليطل الدب الأبيض برأسه على البحر الأبيض المتوسط . هنالك ازدادت دول أوروبا الغربية حرصاً على سلامة الأراضي العثمانية . واطمأنت تركيا إلى هذا التنافس بين الدول وجعلت خططها أن تزيد في أسبابه معتقدة أنه كاف وحده ليكفل لها إلى الأبد البقاء . وأكد هذه العقيدة في نفوس سلاطين تركيا أن وقفت أوروبا في وجه جهود بطرس الأول وكاترين الثانية ، وإن أبقت لبني عثمان إمبراطوريتهم . واقد نسي خليفة المسلمين أن كل سلامة مستمدة من نزاع الغير غير مستمدة على قوة الدولة الذاتية ، سلامة معرضة في كل فرصة للخطر ، جديدة بأن تعرض الدولة التي تعتمد عليها إلى الإضمحلال وإلى الفناء .

لم تسكن الدول في تنافسها لضمان سلامة الأراضي العثمانية ، بريئة

من الغرض . وإذ كانت كل منها تعلم أن أية فكرة ترمى إلى غزو تركيا تقابل من جانب الدول الأوروبية الأخرى بالتضامن مع تركيا في صدها ، فقد وجهت هذه الدول مطامعها إلى ناحية أخرى ، ناحية التوسع في الامتيازات الأجنبية ، وجعلت كل واحدة منها تقتضى ثمناً لهذا الضمان توسعاً في هذه الامتيازات يسمح لها بغزو سلبى لا اعتراض من جانب الدول الأخرى عليه بأكثر من مطالبتها تركيا بمثله . واغتنب الخلفاء العثمانيون لقصر نظرهم بهذا الثمن الذى حسبوه طفيفاً ، لذلك انقلبت الامتيازات الأجنبية التى كانت من قبل ضماناً من الحكومة التركية لحرية الأجانب ولعدم إعنائهم حقوق سيادة لهؤلاء الأجانب والدول التى نزع هؤلاء الأجانب إلى تركيا منها . كانت غاية ما يطمع الأجنبي من حماية الامتيازات قبل هذا التوسع فيه أن لا يفرض عليه ضرائب غير ما يفرض على العثمانيين ، وأن لا تقتضى هذه الضرائب بوسائل العنف والعسف . فأزال هذا التوسع حق الدولة العثمانية في فرض الضرائب على الأجانب إلا أن ترضى دولهم . كانت التجارة والربح منها كل ما يطمع الأجنبي الوافد إلى البلاد العثمانية فيه . فأصبحت مزاولة الممن الحرية ، ثم أصبح انتشار المدارس بعض ما لهؤلاء الأجانب ولدولهم من حقوق وسيادة متحد السيادة العثمانية . كان الخليفة الإسلامى حامى الملة والدين في بلاده ، أصبح التبشير المسيحى بعض الحقوق التى تكفلها الامتيازات الأجنبية حدود بلاد الدولة . ويقع هذا ويقع أضعافه برضا الخليفة التركى

وهو به مقتبط لأنه الثمن الذى يحسبه متواضعاً لكفالة الدول الأوروبية سلامة أراضيها العثمانية . وما قتاله الدول الأوروبية من حقوق في تركيا برضا الخليفة العثماني يمتد باسم الإسلام الذى يقوم الخليفة على حمايته إلى بلاد العالم الإسلامى كله حق ، ما لم يكن منها تابعاً لتركيا ، ومع فداحة هذا التغلغل في شؤون الدول الإسلامية ، وهذا الاقتطاع من سيادتها فداحة سنعود إلى بيان بعض آثارها من بعد ، فقد أذعنّت هذه الدول والحكومات الإسلامية للأمر الواقع ولم تقم الشعوب الإسلامية من جانبها بشئ من رد الفعل ضده . بل ظل هذا التداخل باسم الامتيازات يستشرى وتستفحل آثاره والدول والشعوب الإسلامية والشعوب الشرقية عنه لا هية بل به راضية ، غافلة عن النتيجة المحتومة التي لا بد أن تترتب عليه .

لماذا هذا الإذعان وهذا الاستخذاء ؟

لأن نظام الحكم ، ولأن الحياة الاجتماعية في هذه الشعوب الإسلامية والشعوب الشرقية كانت قد وصلت من الجمود إلى ما سبق لنا وصفه ، ولأن هذه الشعوب رأت في الحياة الجديدة الوافدة عليها من أوربا صوراً تحطم من قيود الجمود وترد إلى الإنسان حظاً من الحرية يجعل للحياة قيمة لم تكن لها . ومهما تكن الحرية التي جاء بها الأوروبيون إلى الشرق متجهة إلى نواحي الحياة المادية أكثر من اتجاهها إلى نواحيها الفكرية والمعنوية فإن كل قدر يحطم من الجمود يبعث إلى النفس رجاء في نعيم الحياة لم تكن تطمع من

فيه . فإذا أتاح الاعتداء على سيادة الدولة أن يرى أبنائها أفكاراً جديدة يستريح إليها العقل ، وإذا أتاح هذا الاعتداء أن يعبر الإنسان عن فكره بحرية لم يكن يعرفها ، وإذا أتاح للإنسان أن يعيش حياة مادية أكثر رخاء ، وإذا بعث الأمل في تحطيم قيود الجمود قيداً بعد قيد — إذا أتاح الاعتداء على سيادة الدولة هذا كله للأفراد نسي الأفراد الدولة وسيادتها ، وبخاصة إذا كان نظام هذه الدولة أو تقيدياً بشع الاستبداد كما كان الشأن في تركيا ، وبخاصة إذا كان صاحب هذه السيادة راضياً عن تقييدها ثمناً لما يناله من ضمانات الأباطورية وسلامة أراضيه ، وكيف ترى تدافع الشعوب عن سيادة الدولة إذا كانت هذه السيادة ستاراً للحسف والظلم والقضاء على صور الحرية جميعاً ، وإذا كانت قيود هذه السيادة تفتح فرجة من أمل في تحطيم قيود الحرية . إن الشعوب يومئذ لتفكر في سعادتها وفي رخائها وفي طمأنينتها قبل التفكير في سيادة الدولة . فإذا بلغت من ذلك مقاماً ترضاه توجهت بهمتها إلى نظام الدولة وإلى حقوقها . فإذا أصبحت الدولة ممثلة الشعب كما يجب أن تكون اتجهت جهود الشعب لاستكمال سيادة الدولة وحرثها وتضافرت لإقامة استقلالها وبجدها .

وتم اعتبار آخر هو أن على الشعوب إدعانها واستخذاءها . ذلك إدعان الحكومات واستخذائها . فهؤلاء الأجانِب الذين وقَدُوا على مختلف البلاد الشرقية وأقاموا فيها ألواناً من حياة أوروبا قد رأوا من حكومات هذه الدول ترحيباً بهم وإقبالا عليهم وحماية لهم يتبعني

أهل البلاد بعضها ولا يجدونها ، يجب إذن أن يكون هؤلاء الأجانب في نظر تلك الحكومات الشرقية جديرين بهذا التقدير والاعتبار . ويجب أن يكونوا أرقى في مراتب الحياة لينالوا كل هذا الاعتبار . لذلك لم تنظر لهم تلك الشعوب على أنهم إخوان في الإنسانية هجروا بلاداً ضاقت بهم فلم يجدوا في المقام بها خيراً وهم لذلك جديرون بشيء من الإشفاق ، مطالبون بأن يقدروا هذا الإشفاق حق قدره . بل نظرت إليهم على أنهم أبناء أمم أسى نفوساً وأرقى عقولاً وأقدر على حكم الحياة وأجدر بأن يكونوا مثلاً يحتذى لينال محبته شيئاً مما ينالون من كرامة وحق وسلطان على الحياة . وقد حصل الذين احتذوا مثال هؤلاء الأجانب من حكوماتهم الشرقية على شيء من ذلك كله مما لم يكونوا يحصلون عليه من قبل ، وما لا يحصل عليه من لم يتخذوا الأجانب قدوتهم ولم يخرجوا بذلك على قديم جمودهم . وشجع هذا السبق في ميادين الحياة على اتساع نطاق الاختذاء وعلى حكاية الطائفة الحاكمة من أهل البلاد لهذه الحياة التي وردت مع الجاليات الأجنبية . ولم يكن ذلك عجباً وقد جعلت الحكومات نفسها تستورد من صور هذه الحياة ماتراه حقاً بأن ينيلها عطف هذه الدول التي أطلقت على نفسها اسم « العالم المتمدن » . استوردت الحكومات أسماء النظم الأوربية وصورها الظاهرة مكسفة بذلك عن حقائقها وقيمها الذاتية . أقامت هيئات إلى جانب الحكم المطلق أطلقت عليها اسم الشورى . أو النيابة عن الأمة لتضاهى البرلمانات ومجالس النواب . أنشأت

مدارس وألبست أبنائها الزي الأوربي وأدخلت فيها تعليم بعض اللغات الأجنبية لتضاهى المدارس الأوربية . أقامت للعدل نظاماً صورها الظاهرة كالنظم الموجودة في أوروبا . وكان ذلك كله اعترافاً منها بأن الحياة الأوربية هي الكفيل بالرقى في سلم التمدن وأن النهج على منوالها هو الذى يسمو بالإنسان إلى مقام الحضارة . ولكى يكون لهذه المظاهر جميعاً من حسن السمعة ما يورث عظيم شبيهاً بأمثالها في أوروبا استعارت حكومات الشرق رجالاً من الغرب لإيقان تصوير هذه المظاهر . فلا غرو إذا نزع أبناء الشعوب الشرقية إلى محاكاة الوافدين عليهم من أبناء الغرب في مظاهر حياتهم ، وإذا اعتبرت هذه الشعوب في ذلك ما يقربها من حضارة الغرب وما يكاد يدفع حضارة الغرب بحياتها .

ولعل مصر كانت أكثر دول الشرق سبقاً في هذا الميدان ؛ فصر بطبيعة مركزها الجغرافى في عقدة الإتصال بين الشرق والغرب ، ومصر كانت أياً له « ولاية » عثمانية كغيرها من سائر أجزاء الأمبراطورية العثمانية ، لكنها كانت على خلاف غيرها دائمة التردد والثورة على سلطان الدولة . وقد ظهر ذلك من قبل الحملة الفرنسية على مصر في أواخر القرن الثامن عشر حين أعلن إبراهيم بك الكبير استقلالها ، كما ظهر بعد الحملة الفرنسية حين عينت تركيا محمد على باشا والياً على مصر فاستفاد من تمرداتها ومن ثورتها على الدولة ومن قوتها الذاتية قوة قام بها في وجه تركيا ، واندفع بها إلى غزوها جاعلاً الآستانة

هدفه ، قاصداً وضع يده على مقر الخلافة ليقم بها خليفة للمسلمين ، وأليرد الخلافة إلى القاهرة ويقوم هو خليفة فيها مكان الخليفة الذي انتزعه الأتراك منها . ولشد ما عطف أوربا على هذا العصيان الذي قام به والى مصر في وجه متبوعه خليفة المسلمين وماشجته . ومع أنها وقفت دون محمد على وبلوغه غايته فإنها قد أبدت من الحرص على تأييده بمنح مصر استقلالها الذاتي تحت إمرته وإمرة أسرته من بعده ويجعل فلسطين وسوريا تحت حكمه ما جعله يقدر هذا العطف ويفتح للأجانب في مصر باباً كان من قبل موصداً . ولم يكتف محمد على بفتح هذا الباب ثمناً لعطف فرنسا نملة أوربا يومئذ عليه ، بل أقبل هو على الأجانب واتخذ له منهم مستشارين وأنصاراً وجعل منهم قواد لجيشه ، ومهد بذلك لتغزو الحياة الأوربية مصر غزواً سريعاً . وقد ظهرت نتائج هذا الغزو بعد زمن قصير حين عقد دلسبس مع سعيد باشا اتفاقية قناة السويس ، وحين نادى اسماعيل باشا بأن مصر لم تعد من أفريقيا بل أصبحت قسماً من أوربا . وحين توالى الحوادث بعد ذلك سراعاً لتمهد الطريق لإنكلترا كي تضع يدها على مصر .

كان من أثر هذا التطور في حياة دول الشرق وشعوبه وتوجهها نحو الحياة الأوربية تنسج على مثالها أن بدأت البعثات التعليمية الأوربية تزداد إلى الشرق وتستقر به وكانت هذه البعثات التعليمية بدء الغزو الصحيح وكان ذلك تقدير أوربا لها . فدام الشرقيون يقبلون على الحياة الغربية فلهي الغرب لهم أسباب محالها وليجعل

التعليم وسيلته إلى ذلك ، لكن أمر هذه البعثات يستلقت النظر ،
 فقد رأينا أوروبا تتدرج منذ البعث في القرن الخامس عشر إلى حرية
 الفكر وإلى تحطيم القيود التي غللت بها الكنيسة هذه الحرية ، وإلى إقامة
 نظم تعليمية مستقلة عن الكنيسة وعن رجال الدين . مع ذلك كانت
 هذه البعثات التي جاءت إلى الشرق بعثات دينية كلها . ولقد يخال
 الإنسان باديء الرأي أن هؤلاء الذين وفدوا إلى الشرق من رجال
 الدين المسيحي على مختلف مذاهبهم ونحلهم إنما وفدوا إليه لتضييق
 حكوماتهم نطاق التعليم الديني في بلادهم واعتبارها إياهم أدوات
 جمود وتأخر . لكن هذه البعثات الدينية لقيت منذ اللحظة الأولى
 حماية من لدن حكوماتها المختلفة لم يلقها غيرها من الأجانب الذين
 جاءوا إلى الشرق . وكان المتبادر إلى الظن أن لا تعطف حكومات
 أوروبا كل هذا العطف على جماعة تعتبرهم سبباً من أسباب تأخر
 أوطانهم مادامت تريد أن ترفع في ربيع العالم كله لواء حضارتها
 الجديدة . لكن الأمر كان لا يزال على النقيض من هذا المتبادر إلى الظن .
 ومنتبع تقارير ممثلي الدول الأوروبية في الشرق منذ النصف الثاني
 من القرن الثامن عشر إلى وقتنا الحاضر يعجب لما يرى فيها من شدة
 الحرص على حماية هذه البعثات حماية لا يتردد الإنسان معها في اعتبار
 البعثات التعليمية الدينية غزوة منظمة وجهتها أوروبا إلى الشرق
 لغايات سياسية .

كيف كانت هذه البعثات غزواً سياسياً منظماً وجهته أوروبا

للشرق؟ رأيت أن تركيا، كدولة الخلافة الإسلامية الحائلة بامتدادها حول البحر الأبيض المتوسط دون غزو أوروبا لأفريقيا وآسيا، كانت موضع نظر خاص من جانب دول أوروبا تتنافسها بحكم القومية جعلها تتسابق إلى أن تكفل سلامة الأراضي العثمانية وحرصها على اختراق هذا النطاق وعلى وضع يدها عليه جعلها تعمل لتشجيع العوامل التي تضعف هذه الدولة العثمانية؛ فهي قد صدت روسيا بعد أن تراجعت تركيا أمامها، وهي قد أعادت محمد علي إلى مصر بعد أن كان على مقربة من القسطنطينية، وهي قد شجعت اليونان وشجعت الدول البلقانية على الانتفاض على تركيا. لكن تركيا إذا تركت وشأنها بعد هذه الضربات التي أصابتها والتي صدتها أوروبا عنها ضمانة لسلامتها فقد تستفيد من هذا الدرس القاسي وقد تراجع النظر في أمرها. فلتتخر أوروبا الجهات التي يكثر فيها المسيحيون من بلاد آل عثمان ولتوجه إليها غزوتها التعليمية بقوة أكبر بما وجهت لسائر بلاد الدولة، واختارت أوروبا لبنان لهذا الغرض وبعثت إليه البعثات وأنشأت فيه المدارس منذ سنة ١٧٥٠. وكان أهل لبنان إلى يومئذ لا يجعلون الخلاف في الدين سببا لاختلاف سياسي، لكن هذه البعثات الدينية الأوربية عملت بتأييد دول الغرب المختلفة لتعليم المسيحيين من أهل لبنان ولإقناعهم بأن ما ينزل بهم من ظلم ليس مرجعه إلى نظام الحكم في الأمبراطورية العثمانية كلها. ولكن مرجعه إلى أنهم مسيحيون، وأن الدولة العثمانية هي دولة الخلافة الإسلامية؟

وبهذه التعاليم تهيات نفوس أهل لبنان للإنتقاض على الحكومة المركزية .
 قد يكون رجال هذه البعثات مخلصين لرأيهم فيما علوا أهل
 لبنان ، ولكنهم كانوا أدوات السياسة الغربية ، سياسة الإستعمار
 المادى الذى لا يعنى بالعقيدة ولا بالدين إلا بمقدار ما يصل به إلى
 أغراضه . وقد انتقض لبنان بالفعل فى سنة ١٨٦٠ وتدخلت
 الدول الأوروبية لتأييد انتقاضه وكفلت له الحكم الذاتى الذى كفلت
 لـ محمد على فى مصر قبل عشرين سنة من ذلك التاريخ ، وبذلك أقامت
 من لبنان الجبل الحصين تتوءأ فى جنب السور الإسلامى ، كما أقامت
 من مصر قبل ذلك تتوءأ آخر أشد من لبنان خطراً بسبب هذا
 الموقع الجغرافى الممتاز الذى يجعل مصر موضع الصلة بين البحرين
 الأبيض والأحمر موضع الصلة لذلك بين قارات العالم الخمس جميعاً .

كان من نتيجة هذا الغزو التعليمى وما أذاع فى الشرق من أدب
 جديد وتفكير جديد أن زاد أهل الشرق شعوراً بما جنى الجمود عليهم
 وإقبالاً على هذه الحضارة المتقدمة . ولكن كيف يكون هذا الإقبال ؟
 أليكون بزعم القديم كله وارتداء ثوب الحضارة الجديدة ؟ لقد نزع
 بعض الأمم فيها بعد الحرب الكبرى الأخيرة هذا المنزع ، كما فعلت
 تركيا وكما حاولت أفغانستان أن تفعل . . لكن هذا المنزع لم يكن
 ميسوراً قبل الحرب حينما كانت شعوب الشرق ماتزال تحسب نفسها
 قديرة على استعادة مجد كان لها . لذلك بدأ أهل الشرق يفكرون فى
 أسباب تغلب الحضارة الجديدة عليهم ، وفى وسائل الوقوف على

أقدامهم لإزاءها . وتفكير الضعيف في سبب ضعفه تفكير مطمئن بطبعه للاعتراف بما هو متورط فيه من الخطأ وما هو شر من الخطأ ، لذلك كان الأخذ بوسائل العمل المجابهة الحضارة الغازية أسرع من التفكير في التغلب على أسباب الضعف . وكان هذا العمل لمجاهة الحضارة الغازية سطحياً ، هو الذى يتبادل إلى ذهن الإنسان العادى في أى ظرف من الظروف . فهذا العمل إنما هو محاكاة الغرب صاحب هذه الحضارة . ومحاكاة الغرب تكون باستعارة مظاهر حضارته ، وتكون بإرسال جماعة من أبناء الشرق للوقوف على أسرار هذه الحضارة .

وقد كان هذا تفكير مصر منذ عهد محمد على ، وكان تفكيرها بعد ذلك . وهو قد كان كذلك تفكير بلاد غير مصر في الشرق . لكن النشاط في هذه الناحية بدأ نشاطاً حكومياً ، ثم فتر زمنياً إلى أن أتاحت ظروف خاصة للأفراد التفكير فيه .

أدهشت الحضارة الغربية أعضاء هذه البعثات فكل مظاهرها جديدة أمامهم ، المظاهر المعنوية في ذلك كالظواهر المادية سواء . وهذه وتلك كلها قوية ناشطة ، آخذ بعضها برقاب بعد ، مستندة كلها إلى هذه الحرية التي كسبت أوروبا في مختلف الميادين بعض نضال القرون . فالعلم والفن والأدب والفلسفة وسائر مظاهر التفكير جديدة كلها ، بالقياس إلى ما خلفوا وراءهم في بلادهم . والصناعة والتجارة ومعبدات النقل وأسباب الملاحة ضخمة هائلة لا يرى في الشرق منها إلا ما كان

وارداً من الغرب . وهذه الحرية التي يستند ذلك كله إليها ، تتم في الشرق بمنافاتهما لقواعد الخلق وللمقتضيات الفضيلة . وليس يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن رجال الدين في الغرب يتحدثون هؤلاء الذين أوفدهم الشرق حديثاً غير الذي يتحدثهم رجال دينهم ؛ يتحدثونهم حديثاً أساسه التمثل واحترام الحرية ، ويحدثونهم عن الخلق وعن الفضيلة وعن المحبة الإنسانية حديثاً قلباً تخالطه الخرافة . فمن حق هؤلاء الشرقيين أن يندهشوا ، ومن حقهم أن يشعروا بسبق الغرب إليهم ، وبأن حضارة الغرب إنما هي الحضارة الواجب أن تنتقل إلى الشرق إذا أريد بالشرق أن يخرج من هموده وأن يفيق من سباته . فما هي الوسيلة ، بل ما هي الوسائل لنقل هذه الحضارة ؟

يستغرق التفكير في هذه الوسائل السنين الطوال . لكن هذه النتيجة التي وصل إليها من تتقنوا بثقافة الغرب من أبناء الشرق ، جعلت نظرهم إلى بلادهم نظرة إشفاق لا تخلو من ازدراء مافيها من العناصر الحيوية التي كان يجب أن تدفع بها إلى الأمام فإذا هي ترددها القهري خطوطاً فسيحة . ومن شأن هذه النظرة أن تضعف في النفوس القوة المعنوية أضعاف ماضعة البعثات الدينية الأجنبية من هذه القوة . ثم زاد في ضعفها عامل آخر جدير بالاعتبار هو الآخر ، وهو من نوع هذين العاملين من حيث إنه عامل تعليمي مرجعه إلى تدريس تاريخ الشرق لأهل الشرق .

فقد جعل أهل الغرب مهمهم أن يصور تاريخ الشرق تصويراً

يجعل الناشئين من أهله يعتبرون بلادهم بطبيعة تاريخها غير أهل لما بلغت أوربا، فواجب عليها أن تدعن لقيام أوربا بتعليمها وإعدادها للحرية والحكم. فصر مثلاً لم تحكم نفسها — في رأى الأوربيين الاستعماريين — منذ انتهى عهد الفراعنة . بل خضعت لحكم اليونان والرومان والعرب والترك عصوراً وقرونًا . وشعب هذه وراثته في الحكم لا يمكن أن يعرف الحرية ، أو يعرف كيف يتولى بنفسه الحكم . ومع فساد هذه النظرية من الجهة العلمية الزئيمة ، فقد ظلت تروج وتروج ، ويخضع عليها الأدب والفن من مختلف الصور مما نزل بها إلى نفوس الشعب فأضعفها وتركيا — مع الاعتراف لها بتفوق ملكاتها الحرية — هي الرجل المشرف على الموت الذى ليس من موته بد . وبلاد العرب المندمجة في الأمبراطورية العثمانية قد خضعت لنير العرب منذ الفتح الإسلامى ، ثم عصف بها الحكم التركي فقضى في نفوس أهلها على كل ملكات الحرية والحكم .

أما الجزائر وأما تونس فقد وقعت في حكم فرنسا . وقعت الأولى في أوائل القرن التاسع عشر ، بينما ظلت الثانية حتى حول بسورك أنظار فرنسا إليها بعد حرب السبعين ليشغلها بها عن هزيمتها في تلك الحرب من ناحية ، وليشغلها عن مجهوده الجبار في إقامة الوحدة الجرمانية من الناحية الأخرى ، وما نقتت أوربا من سيموم الانحلال في مصر وفي الشرق الأدنى نقشته فرنسا في الجزائر وفي تونس . وإذن فليؤمن الشرق كله بأنه في حاجة إلى حضارة الغرب إذا أراد أن

يحيا وأن يعرف الحرية طعماً ، وليؤمن تبعاً لذلك بأنه في حاجة إلى دول الغرب لمعاونته على الحياة وعلى الحرية .

وتقدم الغرب لمعاونة الشرق ، ولكن أية معاونة ؟ معاونة من يريد أن يستغل استغلالاً اقتصادياً فاحشاً تحت ظاهر من نشر لواء حضارته . حضارة العلم قد عنيت في الشرق بتضييق نطاق العلم غاية التضييق . حكمت البعثات التبشيرية في البلاد التي ظلت مستقلة على بث ذلك التاريخ المشوه للشرق في نفوس أبنائه ، وعلى إشراب تلاميذها العقيدة بأن الشرق بحكم دينه الغالب ، وبحكم تاريخه ، لا سبيل إلى تقدمه ما لم ينزع عنه ثوب هذا الدين ، وما لم يفصل بينه وبين ما ضيحه بسياج متين . فأما في البلاد التي امتد نفوذ الغرب فيها ، فقد حصر التعليم في أضيق دائرة ممكنة ، وجعل أداة لتخريج موظفين يدينون بالطاعة والإذعان للغرب صاحب السبق والتقدم أو صاحب النفوذ السياسي في البلاد . وقد أشار لورد كرومر في تقاريره عن التعليم بمصر إلى ذلك غير مرة بمبارات صريحة . بل أضاف إلى ذلك أن لغة أهل الشرق (العربية) غير قادرة على أن تحمل رسالة العلم ، فلا بد لمن يريد أن يدرك هذه الرسالة من أن يصل إليها من طريق لغة أوربية . وهذه كلها لا ريب عقبات ، عمل الغرب لوضعها في طريق الشرق حتى لا تسرع إليه رسالة العلم الصحيح تدفعه إلى حمى الحرية والحق ، وتجعله يقف مع الغرب جنباً لجنب ، بدل أن يذعن له ويطايعه رأسه أمامه .

وفيما كانت هذه العوامل كلها تضعضع من إيمان الشرق بنفسه ، كانت صناعة الغرب تغزو الشرق غزواً ذريعاً ، وكانت سياسة الغرب تقيم في وجه الشرق كل عقبة إذا أراد أن ينافس بصناعته صناعة الغرب . وكان الاستعمار الاقتصادي يتخذ من علم الغرب ومن أدبه ومن فلسفته وسيلة لإضاعة ما عند الشرق من ثقة بنفسه ، وإيقناعه بأنه أصبح إلى أجيال عالة على الغرب لاسيما له إلى الاستغناء عنه . وقد بلغ الغرب من ذلك أن أصبحت بلاد الشرق قاصرة على إنتاج الخامات التي تحتاج إليها الصناعة ، قاصرة عن أن تنتج في ميادين العلم والآداب والفن شيئاً يذكر ، وأن أصبح كل مافي الشرق من مظاهر الحضارة مستعاراً من الغرب ، حتى لو أنك نزعنا مافي الشرق من علمه وأدبه وفنه وصناعته وتجارته إذن لرأيت الشرق أجرد عارياً إلا من خصب أراضيه ومن أزرع الفلاحين والعمال فيه .

هل أسلم الشرق نفسه لهذا الفناء في الغرب ؟ أم أنه حاول أن يقاوم ؟ وبأى مقدار ؟

نقف في هذا الفصل عند الغزو الأوربي للشرق إلى ما قبل الحرب الكبرى التي شبت نارها في الثاني من أغسطس سنة ١٩١٤ . إلى ذلك الحين كان غزو الغرب بلاد الشرق معتمداً على ما قدمنا بصفة عامة ، معتمداً إلى جانب ما قدمنا على القوة المادية والهيبة العسكرية في البلاد التي غزا الغرب . وقد كانت تتنازع الشرق إزاء ذلك كله نوازع مختلفة الموجات . كان الشرق كله تقيض نفسه أسى وحسرة على ما أصابه . لكن رد الفعل

فيه كان يختلف باختلاف الطوائف والهيئات . فمن هذه من رأى كل مقاومة غير مجدية ، ومن آمن أكثر من ذلك بتعاليم الغرب بأن الشرق لم يبق أهلاً للحكم . وأنه لو ترك وشأنه لمزق أهله بعضهم بعضاً كل ممزق ، ولفشت فيه آثار الاستبداد جميعاً من ظلم وقسوة وانتقام ورشوة وفساد خلق . وأن ليس له لذلك إلا أن يذعن للغرب وأن يسلم له قياده حتى يعمله الغرب حكم نفسه ، أو حتى تتم المعجزة فيبعث الله من يقيم الشرق من الوهدة التي تردى فيها . وآخرون كانت تثور نفوسهم لما يسلب الغرب الشرق حريته فينادون بحرية الشعوب اعتماداً على حقها في الحرية واعتماداً على مبادئ الحق التي قررت الثورة الفرنسية . وهؤلاء كانوا يتخذون من ضرب مصالح الأمم الغربية بعضها ببعض وسيلة للغاية التي يصبون إليها من تحرير أوطانهم محتدين في ذلك حذو الدولة العثمانية في اعتمادها على تنافس الدول الأجنبية لضمان سلامتها ، كما كانوا يعتمدون على استفزاز حساسة الشعوب المظلومة ليشعروا المستعمرين بأن مصالحهم معرضة للخطر إذا هم ظلوا في سلبهم حرية الأمم التي يظلمون . وآخرون غير هؤلاء وأولئك كانوا يعتقدون أن الإدعان والتسليم أمر يتنافى وطبائع الأمم . وأن الاعتماد على تضارب مصالح الدول الغربية اعتماد غير مشر . لأن هذه الأمم تتعاقد على حساب الأمم المظلومة ، فتنازعها لن يكون من أثره إلا ازدياد هذه الأمم المظلومة عدداً . وأن استفزاز الشعور وحده غير كاف لطرد المستعمر من بلاد يجد فيها

مغنماً مادياً ، أو يجد فيها نقطة ارتكاز لسياسته الاستعمارية أو العسكرية . فإذا أريد أن تقاوم أمم الشرق استعمار الغرب فلا مفر من تقوية الروح المعنوية في أمم الشرق تقوية أساسية ثابتة تجعل أصحاب هذا الروح يأبون الضيم ويفضلون عليه الاستشهاد ، وأن تقوية الروح المعنوية على هذه الصورة لا يكون إلا إذا شعرت هذه الأمم بأن لديها من مقومات الحياة مالملى أمم الغرب من علم وفن وأدب وصناعة ، وأن الاعتماد على الحكومات في هذا ضرب من السخف لأن الحكومات إما استبدادية كما كانت في تركيا وفي فارس وفي الأفغان فهي تخاف العلم والفن والأدب والصناعة كما يخافها المستعمر سواء وإما خاضعة لحكم المستعمر فلا رجاء في مقاومتها سياسته ، وفي إقامتها العلم والفن والأدب والصناعة بما يدرك أركان هذه السياسة . فلا بد من أن تقوم حركة أهلية منظمة تعمل لتقوى الروح المعنوى وإن احتاجت في ذلك إلى ما تحتاج إليه من جهود شاقة وعمل متصل على السنين .

كانت هذه النزعات الثلاث قائمة بنفوس البلاد الشرقية إلى ما قبل الحرب . ومع أنها على ماترى نزعات لا يمكن أن تعترض بعضها بعضاً ، بل يمكن على العكس أن تتجاوز وتعمل متضامنة — والنزعتان الأخيرتان منها بنوع خاص — فإن السياسة الغربية الواسعة الحيلة قد تمسكنت من أن تضربها بعضها ببعض، وأن تقيم أصحابها وجههم في وجه بعض ، وأن تجعلهم يترامون . تنهم شغواء ألقها المروق من الوطنية

أو الخرق فيها . وقد تعجب إذ ترى أن ما حسبته تركيا ضماناً لسلامتها حين ضربت الدول بعضها ببعض قد أدى إلى استفحال شأن الامتيازات الأجنبية فيها وفي البلاد الشرقية كافة — قد انقلبت تقيجته حين ضربت سياسة الاستعمار طوائف الأمم المغلوبة بعضها ببعض فزادتها بذلك ضعفاً، ولكن لا عجب، فالبذرتان المتشابهتان يختلف ثمرهما إذا زرعت إحداهما في أرض قوية والأخرى في أرض سبخة . وفرق بين سياسة تقوم على الضعف وتستمد وجودها من تنازع الدول على السلطان الذى يقوم بها وعلى بلاده ، وبين سياسة تعضدها القوة المادية والهيبة العسكرية وتستند إلى ما كسبت أوروبا خلال القرون التي عقيت عصر البعث من علم وفن وسياسة .

هذه الصورة التي رسمنا من صلات الغرب والشرق في عصر الاستعمار — أى منذ منتصف القرن الثامن عشر إلى حين نشوب الحرب الكبرى — تدلنا على أن أوروبا قد غزت الشرق غزو استعمار ، لا غزو حضارة . قد غزته غزواً مادياً لم تقصد منه إلى أن تظله بلواء حضارتها العلية . بل غزواً اقتصادياً كان كل غرضها منه استغلاله اقتصادياً . قد يقال إن الغزو كان يرمى في كل العصور إلى الغلب السياسى وإلى الاستغلال الاقتصادى . وهذا صحيح في مجموعه ، وهو صحيح في الغزو الإسلامى محتته في الغزو المسيحى . لكن الغزو الإسلامى والغزو المسيحى كانا إلى جانب الغلب السياسى والاستغلال الاقتصادى يقيمان حيث أقاما روحاً معنوياً ونظاماً روحياً لم يقصد

به يوماً إلى إضعاف ثقة الأمة ، التي نزل ، هذا الغزو فيها ، بنفسها ، ولا هو
 عهد إلى تشويه تاريخها وحبس العلم عن أهلها وعدم السماح لهم إلا بالنزول
 منه . ويشهد التاريخ أن الحضارة الإسلامية أظلت بلوائها كل بقاع
 الأرض التي انتشر الإسلام فيها . وكذلك الشأن مع الحضارة
 المسيحية ، لكننا لا نحسب أهل الغرب أنفسهم يرون شرفاً لحضارة
 الغرب أن يقولوا إنها أظلت البلاد التي حكم الغرب بلوائها . فإنما
 نشر الغرب حيث ذهب حضارة استعمارية قامت على إضعاف الروح
 المعنوي في الشعوب التي نزلت بها ، وعلى قتل معنى الاعتماد على النفس
 في تلك الشعوب ، كما نشرت بينها روحاً مادية ، قتالا للإيمان بكل
 المعاني السامية أو المثل العليا موطداً للاستعمار وآثاره . وهذا الروح
 المادي هو ما يعمل المستعمرون لنشره أنى ذهبوا ؛ لأنهم يرونه الصلة
 الوحيدة التي تربط الحاكم بالمحكوم في كل أمة ليس بين الحاكم
 والمحكوم فيها صلات لغة أو جنس أو دين . أفتنجحت هذه السياسة
 في ربط الغرب بالشرق حين أعانت الحرب الكبرى ؟ وهل نجحت
 من بعد ذلك في توطيد السلام في ربوع العالم ؟ . فلنتنظر قليلا
 ثم نرى .

الفصل الثاني

الشرق في طور بعث (*)

— ١ —

أثر الحركات الفكرية في بناء الوطن

ما هو المقصود بالحركات الفكرية . لعل لا أكون مخطئاً حين أجب عن هذا السؤال بأن الحركات الفكرية إنما هي يقظة الأمم من ركود تألفه وتستقيم إليه ، فتؤدي استنابتها لهذا الركود إلى انتشار العادات الضارة ، والعقائد السقيمة ، والمفاسد التي تصبح في حكم العادات والعقائد ، والتي تضر بالمجموع القومي ضرراً يشعر به بادئ الرأي بعض الأفراد فيذهبون إليه ، ثم ينتشر الشعور به في طوائف الأمة المختلفة . فإذا علت الصيحة بمقاومة هذا الفساد لبي الشعب هذه الصيحة ، فكانت اليقظة ، وكانت الحركة الفكرية أو التحريرية للقضاء على العادات الضارة والعقائد السقيمة والمفاسد الناشئة عنهما . وعند ذلك تتحرك نفسية الشعب إلى أمل أسمى ومثل أعلى يراد تحقيقهما للخير العام .

والرؤد الذي يصيب الشعوب قتنشاً عنه هذه المفاسد مثله في الجماعة الانسانية كمثل ركود الماء وما يشأ عنه من طحالب يعلو سطحه ؛ ومن

(*) محاضرة أقيمت بدار الكتب الوطنية في حلب سنة ١٩٥٣ .

جراثيم تنمو في هذا الطحلب فتفسد الماء نفسه فيصبح آسنا . ويقظة الشعب لمحاربة الأسن الذي يريم عليه ، ومقاومة ما ينشأ عنه من فساد ، إنما مثلها كمثل الماء الجارى يندفع قويا إلى مواضع الركود فإذا الطحلب . يتمزق وينزاح أمام هذا الماء المتدفق فيلقى به إلى الشطآن حيث تلقمه الشمس وتنقيه وتطهره من جراثيمه . كذلك تفعل يقظة الشعوب ، تمزق ما كثف من حجب العادات الضارة والعقائد السقيمة وتقضى على جراثيم الفساد التي عشت فيها ، ثم إذا الكيان القومى يقاوم ما اندس إليه من ضعف ، وإذا بناء الأمة الذى كاد يهدم ويتداعى يعود متينا قويا ، وإذا هذه الأمة تستظل بلواء من حرية الفكر يحدد فيها العزائم المنحلة والنفوس الضعيفة ، ثم إذا بها تندفع متحدة الكلمة متوثة العزم . لتنهض بالعبء الإنسانى الذى يقتضيها التقدم فى طريق الكمال .

والبقظة القوية مصدرها العقل والعاطفة ؛ إذ يغالبان السليقة الحيوانية ، ويتغلبان عليها ويسموان بها إلى ما يرضى الشعور البشرى بالكرامة الإنسانية . والعقل والعاطفة هما اللذان يوجهان السليقة الحيوانية فى الإنسان إلى الخير أو إلى الشر فيسموان بها إلى مضاف الأبرار والعلماء والقديسين ، أو ينحدران بها إلى مضاف الأشرار والجهال والفاسدين .

ومن هنا كان اختلاف هذه السليقة فى الإنسان عنها فى سائر الحيوان . سليقة الحيوان تهديه طريقة فى الحياة على نحو ما اهتدى آباؤه وأجداده وسائر أسلافه منذ كان نوعه . فالأسد اليوم يعيش كما عاش الأسد من مائة ومن ألف ومن عشرة آلاف سنة مضت .

وشأن الثور كشأن الأسد سواء ، وكذلك سائر الحيوان . أما الإنسان فتأثر سليلته بهدى عقله وعاطفته وحبه ، لأنه يستطيع بهداها أن يعرف لنفسه ألواناً من المتاع في الحياة لا يبلغها عن طريق السليقة وحدها .

صحيح أن سليقة الحيوان وسليقة الإنسان يهدفان كلاهما إلى المحافظة على الحياة وإلى تخليد النوع . والمحافظة على الحياة تقتضى كلها الطعام والشراب والمأوى . وتخليد النوع إنما يكون بالتناسل . ولكن الحيوان لا يهني من طعامه وشرابه ومأواه وتناسله بمتاع خاص يلذ حسه ، أو يرضى عاطفته ، أو يرضى عنه عقله وإنما تدفعه الطبيعة إلى أن ينال من ذلك ما يسرته له في حدود الأغراض التي تمليها سليلته : المحافظة على الحياة وتخليد النوع . أما الإنسان فلا يكتفى بما تيسره الطبيعة ، بل يحرص على تحويره وتنظيمه على صورة تنيله من المتاع بالحياة ما يجعله أشد حرصاً على المحافظة عليها ، ومن تخليد النوع من يخلع عليه ألواناً من الحس والعاطفة ليس للحيوان منها إلا القدر القليل . ثم يبدع عقله وحسه وتبدع عاطفته ألواناً من العلوم والفنون والآداب تزيد هذا المتاع أضعافاً مضاعفة ومن هنا كان تطور الإنسان على حقب التاريخ في ألوان حياته الفردية والجماعية ، وكان تطور صلات الناس بعضهم ببعض في الأسرة والقبيلة والمدينة والامة ، وفيما بين الأمم بعضها وبعض . ومن هنا كذلك طور العلم أسباب الحياة من شظف العيش الذي كان بحياة الناس منذ ألوف السنين ، والذي لا يزال مألوفاً عند بعض

الجماعات الإنسانية المتخلفة ، إلى ما وصلنا إليه اليوم من آيات العلم والفن وسائر ما هنالك من نتاج العقول ووحى الخيال في مختلف الميادين .

جاء هذا التطور الذى نقل الجماعة الإنسانية من حال الهمجية إلى أسنى ما بلغت من مراتب الحضارة نتيجة اليقظة العقل والعاطفة يقظة تكررت عشرات المرات في مختلف أرجاء الأرض ، وتبعها في كل مرة تلك الحركات الفكرية فكان لها ما كان من أثر في بناء الأمم . وقد اختلفت صور هذه اليقظة باختلاف الأزمنة والأماكن التى تقع فيها ، فكانت تارة يقظة روحية ، وتارة أخرى يقظة فنية ، وتارة ثالثة يقظة علمية ، وتارة رابعة يقظة صناعية ، وهلم جرا ، وى أعقاب كل واحدة من هذه اليقظات كانت الحركات الفكرية تتفاعل فتخرج الأمة من سباتها ومن ركودها إلى نشاط معمر يظل زمناً حتى تبدو اليقظة في ركن آخر من أركان العالم ، فإذا تلك اليقظة الأولى تنطوى على نفسها ، وإذا هى تنقلب شيئاً فشيئاً ركوداً يعلو حجاب يكشف بتوالى الزمن ، وتعشش فيه جراثيم العقائد السقيمة والآراء الضارة وما يذئب عنهما من فساد وانحلال يطول زمنهما أو يقصر ، حتى تمزق حجابهما يقظة جديدة ونهضة فكرية جديدة .

وتاريخ الإنسانية سلسلة متصلة من تلك اليقظات ومن أدوار الركود تبدو هنا وهناك في مختلف أرجاء العالم . وحسبى أن أعيد إلى الذاكرة بعض هذه اليقظات لنرى أن مصدرها جميعاً كان حركة فكرية . ولنقدر ما كان لها من أثر في بناء الأمة التى ظهرت فيها . ثم امتدادها من بعد ليعم أثرها العلم كله .

وأول مثل أضربه اليقظات الروحية . فهذه الأديان التي نشأت في منطقتنا ، منطقة الشرق الأدنى ، قد كانت كل واحدة منها ، في أول أمرها ، حركة فكرية نادى بها رجل فهتك بها حجاب ذلك الركود الذى خيم على الأمة التي نشأ فيها . كان موسى بن عمران في مصر ، وكان فرعون مصر يقول لأهلها : أنا ربكم الأعلى ، وكان أهل مصر يخلعون على فرعون كل مظاهر الألوهية وصفاتها ، فجاء موسى بأمر ربه وألقى في الناس أن فرعون ليس إلا رجلاً كالرجال ، وأن الله جل شأنه برآه كما برأ غيره من الناس ، وأن فرعون معرض للخطأ ، كما أن غيره من الناس معرض للخطأ ، وأن الكمال لله وحده ، والعصمة له وحده ، ويجب أن تكون العبادة له وحده .

هذه فكرة تحريرية ألقى بها موسى فأثار فرعون ثم كان لها من بعد أثرها ، لافى حياة مصر وحدها ، بل في حياة العالم كله .

وجاء عيسى وبطش الرومان مسلط على الرقاب ، فألقى في الناس آية العفو والمغفرة والتسامح والسلام ، فكان ما ألقاه فكرة جديدة قاومها الطغاة وقاوموا رسولها ، كشأنهم في مقاومة كل فكرة تحريرية . ولكن هذه المقاومة لم تمنع ضياء الفكرة من أن يشع في الآفاق إشعاع نور الشمس فيها ، ولم يمنع الفكرة ذاتها من أن تنتشر وأن تحتل ملك روما نفسها لتقضى على الطغيان فيها . وانتشرت المسيحية في روما وفي مصر وبلاد الشرق ، ثم عم نورها آفاقاً لا تزال تسبح بحمد المسيح وتقدس له . وكان للفكرة التي ألقاها المسيح أثرها في بناء الأمم التي دانت لتعاليمه ، ولا يزال لها من هذا الأثر في بناء أكثر

الأمم رقيقا وحضارة في عهدنا الحديث ما تعرفون .

وجاء النبي العربي برسالة الإسلام إلى شبه الجزيرة يوم خيم عليها ركود كانت عبادة الأصنام مظهره . جاء يدعو إلى التوحيد ، وإلى الأخوة الإنسانية ، وإلى أسنى الفضائل النفسانية ، فلم تمض على دعوته غير عشرات قلائل من السنين ثم إذا الإمبراطورية الإسلامية تمتد شرقاً من الهند والصين إلى المحيط الأطلنطي ، وإذا هذه الأفكار التحريرية تنهض بأهم أفسدها الركود فبعثتها لتقيم في العلم حضارة ، وتبني في العالم شعوباً وأما لا تزال حتى اليوم تؤمن برسالة النبي العربي ، ولا تزال ترجو أن تبعث في العالم روحاً جديداً من الإخاء والتسامح ومن المحبة والسلام والخلق الكريم تنقذه من فساد حمل به وهو يروح اليوم تحت كل كاهله .

هذه الحركات الفكرية التي أدت إلى تلك اليقظات الروحية ، والتي كان لها أكبر الأثر في بناء الأمم التي اعتنقت هذه الرسالات ، أصابها الهرم والركود في بعض الأحيان ، ثم دبت إليها اليقظة في أحيان أخرى فعادت قوية تسمو بالحياة الإنسانية إلى ألوان من الجاه تضي على الحياة قيمة لم تكن لها من قبل .

وحسبي أن أذكر مثلاً لهذا الركود ولليقظات التي هتكت حجابها حركة البعث في أوروبا . كان قد دب إلى المسيحية في العصور الوسطى من أثر الركود ما شجع رجال الدين على بيع براءات الغفران وما يشبهه ببيع براءات الغفران من أمور آراها بعض زملائهم مخالفة صارخة لتعاليم السيد المسيح . عند ذلك ثاروا بهم فكانت الحركة

الفكرية التي قام بها لوثر وكالفن والتي أقرت البروتستانتية في العالم . وقد كان لهذه الحركة الفكرية من الآثار في بناء الأمم الأوروبية ماسجله التاريخ وما لا يزال يسجله إلى وقتنا الحاضر . فلم يقف أثر هذه الحركة عند الأمم التي اعتنقت المذهب الجديد ، بل قصت على كثير مما كان رجال ثورة الإصلاح الديني يشكون منه ، وكانت براءات الغفران مقدمة ما قضت عليه .

ثم كان لهذه الحركة الفكرية أثر أبعد ؛ ذلك أنها نهت الأذهان إلى أن للعقل الإنساني حقوقاً لا يمكن أن تهضم ، وأن العقل الإنساني يستطيع أن يفتح للإنسان من أبواب الطمأنينة والسعادة الشيء الكثير .

وفي ذلك الحين كانت جيوش الأنراك تتقدم حتى فتحت القسطنطينية وقضت على بزنطية وعلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية القضاء الأخير ، ورفعت لواء الإسلام على البلاد التي فتحتها . هنالك اضطر عدد من العلماء ، الذين لم يرضوا أن يسيروا في ركاب الغزاة ، للهجرة إلى إيطاليا وإلى غيرها من بلاد أوروبا ، فكانت هجرتهم طليعة البعث العلمي الذي شهدته أوروبا منذ القرن السابع عشر ، والذي أقام الحضارة الغربية الحاضرة ، وهو لا يزال باقي الأثر إلى اليوم .

هل لي قبل أن أتحدث عن اليقظة العلمية ، وعن الحركات الفكرية التي وجهته وعن أثرها في النواحي الاقتصادية والاجتماعية ، وما كان لذلك من أثر في سياسة العالم كله ، وفي قيام الأمم وتدهور أهم أخرى ،

أن أشير إلى ما بين اليقظة الروحية والحركة الفكرية التي توجهها وبين غيرها من اليقظات من اختلاف أساسي . . فاليقظة الروحية بطبيعتها تدعو الناس إلى العودة إلى السكّال الروحي ، إذ يكونون قد انحدروا إلى مراحل دون مستواه . فهي ليست يقظة دافعة إلى تبديل يراد به التقدم إلى الأمام ، بقدر ما هي حركة مقاومة للتحلل النفساني ، ودعوة للعود بالروح إلى صماء جوهرها ، صفاء مصدره إيمانها الصحيح بالله . والإيمان بالله هو الإيمان بالسكّال الروحي ، فالله كمال في كل صفاته جل شأنه . وإذا كان الله قد خلق الإنسان على صورته ، فواجب أن يلتمس الإنسان في حياته كل الصفات التي تقرّبه من الله جهد طاقته .

وليس عجبا أن يكون ذلك شأن اليقظات الروحية ، فهذه اليقظات تتصل بجوهر النفس . وهذا الجوهر لا يتغير بالزمان ، بل هو باق بقاء الزمان . فليهد العلم الإنسان إلى ما شاء الله أن يهتدى إليه فان تغير ذلك من جوهر نفسه ، وإن تغير عما يدعو إليه هذا الجوهر من معاني المحبة والإخاء والسمو الروحي شيئا . لقد استطاع علم النفس أن يكشف عن كثير من العوامل التي توجهنا في سلوكنا ، ولكنه لم يستطع أن يغير المثل العليا لقواعد هذا السلوك ، فلم يجعل الكذب أو الجذاع سبيلنا إلى الحق ، ولم يجعل الكراهية والبغضاء سبيلنا إلى السعادة ، بل بقيت القيم الأخلاقية ، التي عرف الناس فضلها من ألوف السنين لم تتغير ، ولا إخالها تتغير وإن انقضت على يومنا بعد اليوم ألوف السنين وعشرات ألوفها .

فأما ما سوى اليقظات الروحية والحركات الفكرية التي توجهها ، فليس يدعو إلى مثل هذا العود لما حثته أحلك أطوار التاريخ ، بل هو يدعو إلى أطوار جديدة في مظاهر الحياة الإنسانية تزيد الناس رخاء أو تزيدهم بالحياة متاعاً . لما قامت الحركات التحريرية في أوروبا في القرن الثامن عشر نتيجة لجهود العلماء الذين دفعهم الغزو التركي من اليونان إلى إيطاليا وإلى غيرها من بلاد أوروبا ، فتقررت حقوق الإنسان ، وفي مقدمتها الحرية الفردية ، تطورت النظريات الاقتصادية متأثرة بهذه اليقظة السياسية ، متأثرة كذلك بالنشاط الاقتصادي الذي دفعت إليه هذه اليقظة . فبعد أن كانت الحياة الاقتصادية قائمة على أساس من الرق ومن تملك صاحب الأرض لمن عليها من الناس ، ألغى الرق وارتفعت الصيحة داعية إلى الفردية الاقتصادية . هذه العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتتبعة أدت بآدم سميث ، ثم بيجون ستيوارت مل إلى تقرير المبدأ الفردي المطلق ، وإلى القول بأن أول واجب على الدولة ، بل واجبه الوحيد ، أن تحمي الحرية الفردية في الميدان الاقتصادي ، وأن تترك الناس يعملون أحراراً متنافسين ، يثرى منهم إلى غير حد من شاء ، ويموت جوعاً من لم يتمكنه مواهبه من الصمود في ميدان المنافسة . وكانت الحجة الأساسية التي أقاموا عليها نظريتهم أن الطبيعة تعمل لبقاء الأصلح ؛ وأن قياس الصلاحية هو المقدرة على المنافسة في الحياة . فإذا عجز إنسان أو عجزت طائفة من الناس عن أن تقف من المنافسة موقف الظافر فعليها أن تدعن للهزيمة ، وأن تكسفن بالفتات الذي يلقي إليها من جانب الظافرين .

وإذا بلغ من ضعفها أن لانستطيع البقاء ، فذلك الدليل على عدم صلاحيتها له ، ومن الطبيعي إذن أن تندثر وأن تفتى .

ظلت هذه النظرية الفردية قائمة متحركة طيلة القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من قيام دعامة الاشتراكية لم يستطع هؤلاء الدعاة أن يثبتوا أقدام دعوتهم ، وظلت الفردية الاقتصادية منتصرة في حي النظام السياسي الذي يحى الحرية الفردية ولا يعبا بما سواها . فلما آذن القرن التاسع عشر أن يولى بدأ التفكير الاشتراكي تقوى قوائمه ، وبدأت صيحات الدعاة تدوى في آذان الشعوب ، وبدأت الطبقات العاملة تشعر بأن لها حقوقا ، وبأنها تستطيع من طريق التكتل أن تبلغ هذه الحقوق ، وبدأ المفكرون الاشتراكيون ينعون على النظام الفردى أنه فى إيمانه بالفرد ينسى الجماعة وينسى الشعب والأمة ، وينادون بأن العدالة الاجتماعية تقتضى توزيع الثروات التى تهبها الطبيعة للناس جزاء كدهم وعملهم توزيعاً أدنى إلى العدل . وتأثرت الحياة فى بلاد أوروبا المختلفة بهذه الحركة الفكرية . فقامت فى ألمانيا الاشتراكية الديمقراطية وقامت فى فرنسا ألوان مختلفة من الاشتراكية ، وبدأ حزب العمال يقوم فى إنجلترا . وانتشرت تعاليم تولستوى الاشتراكية فى روسيا .

ولست أشك فى أن هذه الحركة الفكرية كانت ذات أثر حاسم فى قيام الحرب العالمية الأولى . فقد شعر غليوم الثانى عاهل ألمانيا فى

مستهل هذا القرن العشرين أن الشعب الألماني في حاجة إلى التوسع لتتال الطبقات العاملة فيه من ثمرات كدها ما يرفع مستوى العيش بالنسبة لها ، فإذا لم تجد الوسيلة لذلك عذف النضال بينها وبين أرباب رأس المال فهدد ذلك كيان الدولة بالاضطراب والثورة . أما إذا هي وجدت الوسيلة لذلك ولو خارج الحدود الألمانية فقد وجدت الطمأنينة السبيل إلى البلاد . ولما كانت فرنسا وإنجلترا متحكمتين يومئذ في المستعمرات الإفريقية والآسيوية ، ولم يكن يسيراً أن تنزل أيهما عن شيء منها ، فقد أدت هذه الحالة إلى إعلان الحرب العالمية الأولى وإلى اكتواء العالم بنارها .

كانت روسيا في ذلك الحين تضطرب بالحركة العسكرية التي دعا إليها تولستوى ، وكانت القيصرية الروسية تقمع هذه الحركة بكل ما أوتيت من قوة ، وتبقى القائمين بها في سيبيريا ، أو تضطربهم إلى الفرار خارج حدودها . وكان لينين وطائفة معه من مفكرى الروس من هؤلاء الذين نفروا أنفسهم . فلما اندحرت الجيوش الروسية أمام ألمانيا سنة ١٩١٧ ، واضطرت القيصرية الروسية أن تعقد صلح برست لنوفسك ، شعر لينين وزملاؤه بأن الفرصة سانحة لإقامة النظام الشيوعى على النحو الذى صورته كارل ماركس ، فعادوا إلى روسيا وأشعلوا الثورة فيها وانتصروا وأقاموا النظام السوفيتى الذى تطور شيئاً فشيئاً إلى وضعه الحاضر .

ولم تكن روسيا وحدها هي التي تأثرت بهذه الحركات العسكرية

نتيجة للحرب العالمية الأولى ، بل تأثرت فرنسا وتأثرت إيطاليا وتأثرت إنجلترا ، مع أنها جميعاً خرجت ظافرة من تلك الحرب . وحسبى أن أذكر حزب العمال الذي لم يكن يمثل في البرلمان البريطاني إلى أن بدأت تلك الحرب غير أفراد لا يبلغون عدد أصابع اليدين ، ثم قوى حتى أصبح يهدد حزب المحافظين ، وحتى طغى على حزب الأحرار البريطاني طغياناً ساربه إلى مصيره الحاضر .

وكان طبيعياً أن تترتب هذه النتائج على الحرب العالمية الأولى . فقد شعرت الجماهير الفقيرة التي اشتركت في الحرب في تلك البلاد كلها أنها تحمل من عبء الدفاع عن الوطن ما يزيد على ما تحمله طائفة أرباب المال أضعافاً مضاعفة ، فن الطبيعى أن تطمح في حظ من العدل أوفر مما كان لها حين كان العالم يرتع في بحبوحة السلام ، وحين كان منطق النظرية الفردية معتمداً على ما يسميه قانون الطبيعة القاسى للأجور ، متناسياً أن لهؤلاء الذين يتناولون تلك الأجور من القوة المادية ما يعيش أبناء الوطن جميعاً من كدهم ، وما يجعلهم إذا امتنعوا عن العمل يشلون الحركة الاقتصادية ويعرضون النظام القومى كله لنتائج خطيرة .

أما وقد ذكرت ما كان للحركات الفسكزية في الميدان الروحى ، وفي الميدان الاقتصادى ، من أثر في الحياة العامة ، فيجب أن لا ننسى ما كان لهذه الحركات من أثر في الميدان الاجتماعى . لقد أشرت إلى إلغاء الرق بعد أن ظل نظاماً قائماً في العالم ألوف السنين ، وإلى أن إلغاء هذا

الرق إنما جاء أثراً للحركة الفكرية التي أدت إلى تقرير حقوق الإنسان ، وفي مقدمتها أن الناس يولدون أحراراً ، ويجب أن يظلوا حياتهم أحراراً . لكن الفردية الاقتصادية التي حصرت عمل الحكومات في حدود المحافظة على الأمن ليستمتع كل فرد بحريته مادام لا يعتدى على الحرية المادية لغيره أدت إلى بقاء الطبقات السكادحة ، وهي السواد الأعظم ، في غيابات الجهل المطبق . فلما بدأت الدعوة للعدالة الاجتماعية ، وبدأت الحركة الفكرية تطالب بأن يتسلح الأفراد جميعاً للحياة بأسباب المعرفة التي تمكنهم من أن يشقوا طريقهم في الحياة السكرية ، اعترفت الأمم المتقدمة بحق الأفراد جميعاً في أن ينالوا حظاً من التعليم يؤهلهم لإدراك ما في الحياة من معاني الحق والخير والجمال ، بذلك نهضت الشعوب التي تقرر فيها هذا الحق وقتئذ نهضة قوية ، وبدأ تضامنها يقوى وبدأت تؤدي للحياة الإنسانية في أمم الأرض المختلفة خدمات جليلة .

وكان من أثر هذه الحركة الفكرية في الميدان الاجتماعي أن تطور موقف المرأة من الحياة القومية أضعاف ما تطور موقف الرجل منها . لقد كانت المرأة معتبرة في العصور الوسطى وعاء للتناسل ومتاعاً للرجل وخادماً لذريته . فلما تقرر الحرية الفردية كان نصيب الرجال منها أوفر أضعافاً من نصيب النساء ، لأن الرجال هم الذين قاموا بالثورة على الماضي . لكن تقدم الزمن أتاح للمرأة أن تسكسب حقوقاً انتهت إلى اعتراف ميثاق الأمم المتحدة بالمساواة بين الرجال والنساء في الحقوق كلها . وإذا كان هذا الاعتراف لم يطبق إلى اليوم في بلاد كثيرة فإن

بمجرد الاقرار به يعتبر خطوة فسيحة نحو تحقيقه . ربما لا ينتهى ذلك إلى أن تقوم المرأة بالأعمال التى يقوم بها الرجل ، كما أنه محال على الرجل أن يقوم بكثير من الأعمال التى أتاحت الطبيعة للمرأة أن تقوم بها . لكن الذى لا مرية فيه أن هذا الاعتراف فتح أمام المرأة ميادين جديدة فى الحياة . والمرأة وحدها هى القادرة على تكيف الصورة التى تشغل بها هذه الميادين .

ولكننا يعلم أن كل واحدة من هذه الحركات الفكرية وما إليها من مثلها فى ميادين العلم والفن وغيرها لم تكن تنتج آثارها فى يسر على أثر قيامها ، بل كانت تلاقى من المقاومة ما يرددها على أكتافها فى كثير من الأحيان لتتضر من بعد فتقوم بهجوم جديد تنال فيه حظا كبيرا أو حظا ضئيلا من النجاح . وكذلك أشرت إلى مقاومة القيصرية الروسية للأفكار التحريرية حتى كانت هزيمة روسيا فى الحرب العالمية الأولى وانتقال روسيا السريع من الحكم المطلق إلى الحكم البلشفيكي ثم إلى الحكم البلشفي . وهذا طبعى . وإذا كان انتقال الفرد من الطفولة إلى الصبا إلى المراهقة إلى الشباب يقتضى عشرين سنة أو نحوها فليس كثيرا أن يحتاج انتقال الأمة من طور إلى طور إلى أضعاف هذا الزمن ، إلا أن تكون الأمة من الحيوية بحيث تستطيع أن تسرع الخطى وأن تبلغ فى أعوام ما لا يبلغه غيرها فى عشرات الأعوام .

وأنتم تعلمون كما أعلم أن هذه الحركات الفكرية تتفاعل ويتأثر

بعضها ببعض وبحدث تفاعلها في العالم كله أثرا يختلف قوة وضعفا باختلاف قيمتها ومصدرها . لما أدى التفكير العلى إلى ازدهار الصناعة في الدول الأوروبية فزادت منتجاتها على الحاجات المحلية ، ففكرت سياسة هذه الدول في الوسيلة لتصريف هذه المنتجات وإيجاد أسواق لها . وأدى بهم هذا التفكير إلى التماس الأسواق في الأمم المتخلفة عنهم في ميدان الصناعة ، ثم أدى ذلك إلى استثمار هذه الدول . ألم تكن شركة الهند الشرقية شركة بريطانية غايتها تصريف المنتجات الصناعية البريطانية في الهند ، ثم أصبحت هذه الشركة حكومة داخل الحكومة أو الحكومات الهندية ، ثم أصبح الجيش الانجليزى يؤازرها ، ثم انتهت مؤازرته إلى استثمار إنجلترا للهند ، ثم كان ذلك مقدمة السياسة الاستعمارية الأوروبية للأمم الآسيوية والأفريقية . وكذلك تمخضت الحركة العسكرية في الميدان العلى عن حركة صناعية انقلبت إلى حركة استعمارية خضع العالم لسلطانها طوال القرنين الماضيين .

ورب ضارة نافعة كما يقولون ، فقد تمخضت الحركة الاستعمارية عن الحررين العالميتين الأخيرتين اللتين أنزلتا بالعالم من الكوارث ما لم يشهد له العالم مثيلا من قبل ، ثم تمخضت هاتان الحربان عن يقظة الشعوب المستعمرة يقظة أدت بالكثير منها إلى إلقاء نير الاستعمار ، وإلى النهوض تريد الحياة الحرة الكريمة ، وتريد مشاركة أمم الأرض جميعا في النهوض بالإنسانية كلها لتسرع الخطى في طريق التقدم نحو الكمال .

لعل ثم من يسأل : ما بالى لم أشر من الحركات الفكرية التي قامت في هذا الشرق إلا إلى الحركات الروحية التي حدثت في عهد الأنبياء عليهم السلام ، ثم التمسث الأمثال للحركات الفكرية في القرون الأخيرة لما حدث في أوروبا . ولا أحسب جوابي على هذا السؤال خافيا . فقد خيم الركود وما يجره الركود في أذباله من الجهل والضعف والفساد على هذا الشرق في القرون الأخيرة ، منذ حكم السلاطين العثمانيون حكم استبداد وطغيان . فلم تؤثر فيها حركة فكرية قوية الاثر تستطيع أن تهتك حجاب هذا الركود وتطرد أمام تيارها الجارف وما تخلف عنه من جرائم التقاليد الضارة والآراء السقيمة والفساد المذل . ولست أرى إذ أستعيد أمام ذاكرتي ما حدث في منطقتنا هذه من الحركات الفكرية إلا ما قام به السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في الميدان الديني ، وما قام به قاسم أمين في الميدان الاجتماعي . أما ما سوى ذلك مما حدث فلا يعدو أن يكون حركات مستعارة من الغرب لقيت من المقاومة ما حطمها ، لأن سياسة الاستعمار الغربي كانت حريصة على أن تنحطم . ولولا هذا الحرص لكان لهذه الحركات من الأثر ما يفيد في بناء أمم الشرق أجل فائدة .

أتريدون دليلا على هذا الحرص ؟ إليكم مثلان حدثا في مصر ولعل لهما في غير مصر نظائر : قامت في مصر في أوائل هذا القرن العشرين حركة ترمي إلى إنشاء جامعة عليية تنقل إلى مصر ثمرات العلم من مختلف بلاد العالم ، وتمهد السبيل لحركة فكرية في الميدان العلمي .

تقييد مصر وتقييد أمم الشرق العربي كله . ولم يتجه الدعاة إلى هذه الفكرة للحكومة لأنهم كانوا على يقين من أن الحكومة لن تستجيب لهم ، بل لجأوا إلى السراة وكبار الأغنياء يطلبون اليهم التبرع لهذا المشروع الجليل . وكان لورد كرومر معتمد إنجلترا في مصر وصاحب الكلمة النافذة فيها يومئذ ، وكان يرى أن التعليم العالي في هذه البلاد لا يجوز أن يزيد على تزويد الشبان بالعلوم الكافية ليكونوا أدوات طيعة في يد الحكومة إذا هم تولوا وظائفها . لهذا أوحى إلى رجال الحكومة جميعاً فطالبوا الأعيان بإنشاء «كتاتيب» لتعليم القراءة والكتابة وبالتبرع لها حتى يصرفهم عن التبرع لمشروع الجامعة . وكان لهذا العمل أثره . صحيح أن الجامعة قامت رغم ذلك . ولكن مواردها المحدودة حالت دون اتوسع فيها بالقدر الذي كان يقصد الدعاة إليها أن يبلغوه ، وكذلك بقيت الفكرة تتعرض حتى استقلت مصر . ثم ضمت الحكومة كلية الآداب الأهلية التي أنشئت نواة للجامعة الأهلية وأقامت سائر كليات الجامعة .

أما المثل الثاني فتفكير بعض المصريين في أوائل هذا القرن كذلك في إقامة صناعة النسيج في مصر ، هذه الصناعة المازدهرة اليوم ، والتي تكفي مصر حاجاتها الشعبية وتصدر منها إلى الخارج ما فاض عن هذه الحاجات . أتعرفون ما قوبل به ذلك التفكير الأول من لدن لورد كرومر . قيل يومئذ إن صناعة النسيج لا تصلح في مصر لأن جو مصر لا يساعد على قيام هذه الصناعة . فلما أراد بعضهم أن يحازف

مع ذلك قيل إن هذه الصناعة إذا قامت وجب أن تدفع مقابل الرسوم
الجمركية رسوم إنتاج حتى لا تنافس غيرها . هذا بدلا من مد يد
المعونة لصناعة يراد أن تنشأ على نحو ما يحدث في بلاد العالم كلها .
كانت سياسة الاستعمار الغربي إذن حريصة على تحطيم ما تخشاه
من أثر الحركات الفكرية ، لو كانت هذه الحركات مستمدة من الدول
المستعمرة نفسها . وقد أدى هذا التفكير الاستعماري إلى تقييده
الطبيعية المحتومة . زاد المراهقة بين الأمم الحاكمة والأمم المحكومة
على النحو الذي زاد به المراهقة بين الأرقاء والسادة في العصور
الوسطى ، ودفع إلى نفوس الأمم المحكومة بأن لها من الحق في
الحياة وفي الحرية ما للأمم الحاكمة . ولذلك قامت كلها في أعقاب
الحرب العالمية الأولى ، تناضل في سبيل حريتها واستقلالها . وهذا
النضال هو الذي أدى بالسياسة البريطانية من ذلك الحين لتتغير
المصير ولتتعترف لطائفة من الأمم التي كانت تستعمرها بحقها في الحياة
الحرية ، وأن تكون في نفس الوقت جزءاً من الكونولك البريطاني .
لكن هذا التفكير اقتصر يومئذ على بريطانيا ، واقتصر في بريطانيا
على الشعوب القادرة على أن تأخذ حقها بيدها ، سواء من طريق
القوة والاقتدار ، أو من طريق المقاومة السليبية والعصيان المدني .
فأما الأمم التي استطاعت بريطانيا أن تنهض فيها النزعة
الاستقلالية فقد استبقتها في مركز المستعمرات ، وتركها لذلك تقاوم
بكل وسائلها مذلة الخضوع لحكم الغير على أنه رق للأمم أشد إهانة
من رق الأفراد .

ليس من حق ، وقد سردت من الحركات الفكرية ما أقص
بالشئون الروحية ، وبالشئون العلمية ، وبالشئون الاقتصادية ، وبيعض
الشئون السياسية ، أن أغفل من هذه الحركات ما كان عظيم الأثر في
تهذيب النفس الإنسانية . أقصد الحركات الفلسفية ، والحركات
الأدبية ، والحركات الفنية . فإقام من حركات فكرية في هذه الميادين
قد صقل الحياة الإنسانية وجعلها أعذب مذاقاً ، وجعل متاعنا بها
أبقى وأرقى ، وإن عذفت في كثير من الأحيان رفته ، وإن بلغ رقيه
في بعض الأحيان حداً أذهل عقولا لا تستطيع متابعة هذا الرقي
والسمو إلى عليا درجاته .

والواقع أن متاعنا الحق بالحياة أكثر اتصالاً بهذه الألوان من
الحركات الفكرية منه بسائرهما ، وإن كنا في حاجة إلى المتاع بنتائج
الحركات الفكرية في الشؤون التي سبق لي ذكرها لنستطيع تذوق هذه
الألوان الدقيقة الرقيقة السامية من التفكير الفلسفي والأدبي والفني .

ولإنني لأحاول أن أتصور ما تكونه الحياة لولا الفلاسفة والشعراء
والكتّاب وأرباب الفنون الجميلة من موسيقيين ومصورين ومن إلهيم ،
فأشعر أنا لولاهم لكاننا أقرب إلى حال الحمجية الأولى وإن بلغنا من السمو
الروحي ومن الحرية السياسية ومن الرخاء الاقتصادي أعظم مبلغ .
تصوروا معي حال البلاد العربية في نهضتها الروحية القوية التي أعقبت
رسالة النبي العربي عليه السلام ، لولم يكن فيها هؤلاء الشعراء والأدباء
الذين أشاعوا في جوها من رقيق العواطف وجيل الصور والمعاني

مالا نزال تتغنى به إلى اليوم . ولقد سئل أحد مفكرى الانجليز يوما : من أعظم ما تعز به انجلترا ؟ فكان جوابه : شيكسبير والامبراطورية . وهل بقى من أثر الامبراطورية الرومانية شئ ؟ أجل خلودا على الدهر من آيات مارك أوريل ولوحات رفاتيل ومكسينج ، ومن موسيقى فردى وأضرابه ، وهل تعز البلاد الجرمانية بشئ ما تعز بأسماء بتهوفن وموزار وفاجنر بمن لا تزال ألحانهم الموسيقية الشجية تشتف آذان العالم ، ومن أدب جيمى وفلسفة نيتشه بمن لا تزال كتبهم تهز العقول والعواطف . أفأستطيع وهذه هي الحال أن أغفل فى حديثى إليكم هذه الحركات الفكرية الإنسانية البالغة غاية السمو .

لئننى من أشد الناس إيمانا بأن حضارة الأمم لا تقاس بقوتها الحربية ولا بتقدمها الصناعى بمقدار ما تقاس برقيها فى العلوم والآداب والفنون ، وبأن القوة الحربية والتقدم المادى إنما يستمدان من سليقتنا الحيوانية فى المحافظة على الحياة ، بينما بصور الرقى فى العلوم والآداب والفنون حيويقتنا الإنسانية التى لا شريك فيها للإنسان من سائر الحيوان . فهذه العلوم والآداب والفنون تخاطب العقل والعاطفة والشعور وتدفعها إلى السمو فى مدارج البشرية العليا حيث يتجلى النور الإلهى فى بهائه وسنائه وضاء لآلاءه ليقربنا من مراتب الكمال ويرينا نور الحق فى جلال روعته التى تأخذ بالقلوب والأبصار .

والأمم التى ازدهرت فيها العلوم والآداب والفنون هى التى

استطاعت أن تضع في بناء الإنسانية كلها ، لافى بنائها هى وحدها ،
لبنيات متينة قام البناء الإنسانى فيها فى حقب التاريخ كلها على
أساس متين .

ولانه لمن حسن الطالع ، أن تكون الحركات الفكرية فى ميادين
العلوم والآداب والفنون قد بلغت فى عصرنا الحاضر إلى حيث قربت
بين الأمم ووصلت بينها بأوثق الوشائج . لما حضرت إلى مدينتكم
الشهباء من إحدى وعشرين سنة حضرت إليها من لبنان ، ومع ذلك
لاقتضانى الحضور ساعات طويلا اضطررت معها إلى المبيت فى أثناء
الطريق بطرابلس وباللاذقية . واليوم أحضر اليكم من مصر فى ثلاث
ساعات بالطائرة . ولولا إصرار صديق سامى الكيالى لمخاطبتكم عن
طريق الإذاعة وأنا مقيم بمصر ، ولا ستمعتم إلى كما تستمعون اليوم ،
وكما استمع أهلى وأصدقائى إلى إذاعة لى من الهند حيث كنت فى يناير
الماضى . وأنتم تسمعون حين مقامكم بمنازلكم إذاعات أوروبا وأمريكا
تقفون منها على أنبائها وعلى علومها وآدابها وفنونها . وأحسبنا عما
قريب سنشهد عن طريق التلفزيون أو لثك الذين يحدثوننا أو يشنفون
بأغانهم أو بموسيقاهم آذاننا وإن بعدوا عنا مئات الأميال بل
ألفوها . ومن يدرى ، فلعل العلم يزداد العالم قربا بعضه من بعض
فلا يكتفى بإلغاء المسافات التى تفصل بين الأماكن ، بل يتغلب كذلك
على الزمان فيجعلنا قادرين على أن نعيش مع أجدادنا ومع حفدتنا .
ويومئذ تتحقق وحدة الوجود تحققا ماديا ، ولا تكون فكرة
عقلية وكفى .

لا أرانى بحاجة إلى أن أقص عليكم ما كان لهذه الحركات الفكرية من أثر في بناء الأمم التي قامت فيها بعد الذي قدمته في أول هذا الحديث . ولا يخفى على أحد ما كان للحركات الفكرية السياسية من أثر في فرنسا حين قامت الثورة الفرنسية الكبرى ، وفي روسيا حين زالت القيصرية لتحل محلها البلشفية ، وفي إنجلترا حين قامت ثورتها الكبرى في القرن السابع عشر فأكرهت ملوكها على الاعتراف بحقوق الشعب ، وفي أمريكا حين قام واشنطن على رأس المحاربين في سبيل الاستقلال ، وفي الهند حين تولى غاندى وأعوانه قيادة حركة العصيان المدني وعدم التعاون في غير عنف ، وفي غير هذه من الأمم الغربية والشرقية التي فاضلت في سبيل الحرية الفردية أو الحرية القومية . كما لا يخفى على أحد ما كان للحركات الفكرية الاقتصادية والصناعية من أثر رخاء الأمم وفي توزيع الثروات توزيعاً يتفق مع موجب العدالة الاجتماعية . ونحن نعرف كيف ارتقت الحركات الفكرية في ميادين العلم والأدب والفنون بالشعوب التي ازدهرت فيها ، فضلاً عن ذلك فإن الحركات الفكرية يأخذ بعضها برقاب بعض ، فإذا قامت حركة روحية أو حركة علمية عاصرتها وسابرتها حركة سياسية وحركة اقتصادية وحركة علمية أو أدبية أو فنية . ذلك بأن هذه الحركات الفكرية تهز الأمم فتوقظها من سباتها ، فإذا استيقظت نشطت كل عناصرها واندفعت تستبق تريد كل واحدة منها أن تبلغ الكمال .

ومهما تقف العوائق في سبيل هذه الحركات المتدافعة فإنها تنتهى

بالتغلب على كل عائق ، شأنها شأن الماء إن حبسته تجمع حتى يحطم
السد الذي يحول دون اندفاعه ، أو يطفو فوق هذا السد ثم يتخطاه
بغير عائق به .

كثيراً ما قامت هذه الحركات الفكرية حين كانت القيود مفروضة
على المفكرين في التعبير عن أفكارهم . ففيما قبل الثورة الفرنسية
بقليل كان بعض المفكرين والكتاب في فرنسا لا يستطيعون أن
ينشروا كتبهم في البلاد الفرنسية ، فكانوا يضطرون للذهاب إلى
هولاندا لطبعها هناك . وفيما قبل ذلك لقي المفكرون والعلماء الذين
قالوا بكروية الأرض ألواناً من الإرهاق قل أن يحتملها غيرهم .

وسجلات التاريخ حافلة بالأدلة على أن الحركات الفكرية لا يمكن
حبسها ، فإن هي حبست زمناً فلتخرج بعده من حبسها أعظم أيداً
وأقوى سلطاناً ، وليكون لها من الأثر المحسن في حياة الأمة وفي
بنائها ما يسلك الذين حبسوها من قبل في سلك الطغاة والأئمة الذين
يذكرهم التاريخ بأسوأ ما يذكر به لإنسان .

لهذا اقتنعت الأمم المتحضرة كلها بأن الحرية الفكرية وحرية التعبير
هي أقدس ما يجب الدفاع عنه . ولعل قوة الحركات الفكرية على تحطيم
كل عائق يقف في سبيلها لم تكن الدافع الوحيد لهذا الاقتناع الذي
بلغ حد الإيمان . بل لعل ما كان لهذه الحركة من أثر في رقي الإنسانية
إلى مدارج قد كان أبلغ حجة في هذا الاقتناع وهذا الإيمان . فقد
تبينت هذه الأمم أن تاريخ التقدم الإنساني هو تاريخ هذه الحركات

الفكرية ، وأن حرية التفكير والتعبير هما اللذان كفلا لهذه الحركات أن تزدهر وتقوى ، وكفلا لذلك عزة الأمم وسعادتها ، فأيقنت بأن كل قيد من تشريع أو من بطش أو إرهاب يقف في سبيل هذه الحرية يضر بالامة أحش الضرر ، ولذلك جعلت لها من القدسية في دساتيرها وقوانينها ما يرد عنها كل غائلة ؛ ويدفع عنها كل عادية ، لتتوقى من الثمرات ما يدفع الإنسانية كلها نحو السكال ، وهو غايتنا جميعاً ، وغاية كل من يدرك المعنى الصحيح لكلمة الإنسانية .

لقد طوفت بكم في آفاق شتى من تاريخ الحركات الفكرية في العالم ، ولم أقف مع ذلك إلا لما عند كل واحدة منها . فاعذروني إن كنت قد أطلت عليكم أو أملتكم . وغاية ما أرجو ، أن يكون لنا ، نحن أبناء هذا الشرق ، عظة وعبرة من هذا التاريخ . فمستقبل الإنسانية كلها ، لا مستقبلنا وحدنا ، يتطلع اليوم إلينا يريد أن يعرف أين اتجاهنا . ومن لم يعرف الماضي ليعتبر به لم يعرف كيف يصور طريقه للمستقبل . وحاشا أن يكون ذلك شأننا .

وإذا رجعت إلى نهضة الشرق من بضع عشرات من السنين ، وجدت مؤلفات ، ووجدت نزعة إلى حرية الفكر ، لكنك لا تجد لها صريحة صراحة النهضة الحاضرة ، ولن تجد لها صادرة عن مثل الإيمان العميق التي ترتكز النهضة الحاضرة عليها . وهذه ظاهرة لها معناها ولها أثرها . فمعناها أنه إذا كان للقديم مكانته واحترامه ، فإنه قد فسد فساداً أصبح لا يمكن معه البناء فوقه ، بل لا بد من بناء جديد .

ولإمكان هذا البناء الجديد يجب ألا يكون القديم غلا في أعناق العقول وحجر عثرة في سبيل التفكير . وإذن فقد ملت مصر ومل الشرق الإقامة في الأطلال الخربة المختلفة عن الماضي ، وانطلقا يبحثان جميعا عن حضارة المستقبل . وقد سئمت مصر وسم الشرق حكم الجامدين من عباد هذه الأطلال الذين ينبعون من خلالها ، كما تنعب حشرات الأشجار التي تنمو في المقابر . وقد اعتزمت مصر واعتزم الشرق إقامة حضارة جديدة تكون بعثا لهما بعد هذه الرقعة الطويلة التي رقداهما منذ القرن الخامس عشر .

هذه الدلالة الواضحة لتلك المظاهر التي أشرنا إليها موجودة في غير الكتب وفي غير المجلات والصحف ، هي موجودة في هذه النهضة العظيمة التي نهضتها مصر ونهضها الشرق في مختلف الميادين .

وهذا البعث الذي تدل عليه هذه الدلائل لا يقف عند طائفة المستنيرين من أهل الشرق ، بل هو قد عم الطوائف جميعا . وبحسبك أن تنظر إلى عباد الماضي أنفسهم لترى ذلك واضحا في تصرفاتهم . فهم لا يسلكون أبنائهم سبيلهم ، بل يعدلون بهم إلى السبيل الذي تسير فيه النهضة الحاضرة ويوجهونهم نحو هذه الوجهة التي يزعم بعضهم أنه يجارها . ولو أنه كان مؤمنا حقا بما يقول ، ولم يكن دفاعه مجرد تمويه يستر به عجزه وضعفه لرأى أولاده تربيتهم وسلكهم في سبيله . أما أن يوجههم في السبيل الأخرى ، وهو يعلم تمام العلم أنهم سينتهون إلى محاربة مذهبه ، وإلى تقويض الأطلال

التي ينعب هو من خلالها ، ثم يزعم بعد ذلك أن هذه الأطلال هي السياج الحامى للجماعة ، فذلك هو الرياء مع النفس ومع الناس رياء لا يتفق لرجل تعمر قلبه ذرة من الإيمان برأيه .

ومهما يقل هؤلاء إنهم إنما يفعلون ما يفعلون من ذلك اندفاعاً مع التيار ، أو لكفالة خير أسباب العيش لأنبائهم ، فإن قولهم مردود عليهم . بل فيه ما يدل على أنهم أصبحوا زوائد متخلفة لا حاجة بالناس إليها . ذلك أن التيار إذا جرف ، وكنت أنت مؤمناً حقاً وعن عقيدة وإيمان بأنه تيار ضار ، فأول واجب عليك أن تقاومه بكل ما لديك من وسائل ، وأن لا تقدم له من الأسباب ما يزيد قوة واندفاعاً . خير أسباب العيش ليس وحده سبباً كافياً ليحازف الرجل بأنائه وبالأعزة عليه في سبيل يعتقد أنه أذى وشر . فليس بمقول مطلقاً أنك إذا رأيت السرقة أو النصب أو غيرهما من الوسائل الدون رائجة في بلد ، وتكسب المتسم بها من أسباب العيش مالا يكسب غيره ، زججت بأنائك ومن تعول في غمار هذه الطوائف لتكفل لهم خير أسباب العيش . . فالحقيقة إذن أن هؤلاء سكان الأطلال الخربة تضعف إيمانهم وتحطمت عقائدهم بأن ما ينصحون الناس به هو الخير ، وهم لذلك لا يتغفونه لأنبائهم . ولو أنهم قد بقي لهم من مرونة الذهن ما يمكنهم من تغيير عقلياتهم وتحوير أذهانهم لما ترددوا لحظة ، ولا قلبوا إلى هذا الجانب الذي يعمل السكل فيه لتوطيد أسباب بعث الحضارة في الشرق وتدعيمها .

ثم إن هذا البحث قد تناول طوائف الأمة غير المستنيرة بمقدار

ما تناول طوائف الأمة المستنيرة إن لم يكن بمقدار أعظم وأقوى . وهؤلاء الذين هم أشد الطبقات فقراً يفتخرون من أسباب قوتهم للاندماج في هذه النهضة بأنفسهم إذ استطاعوا ، وبأبنائهم إن لم تمكنهم مشاغل العيش والحياة . فلم تفتح مدرسة ليلية في قرية من القرى حتى اكتظت بالفلاحين المقبلين على التعليم فيها . وقد ضاقت مدارس الأولاد والبنات بمن فيها في المدائن والقرى . وضائق الحكومة والهيئات لإنشاء موائل للملم أقصر من إقبال الناس على هذه الموائل بكثير . وهذا الإقبال هو في الواقع إقبال على الحضارة الجديدة التي يعمل العاملون لبعثها في الشرق بكل ما أوتوا من قوة .

وهذا السعي الخثيث في سبيل حرية الفكر يكفل لهذا البعث أن يؤتي خير الثمرات وينتج أصلح النتائج ؛ ذلك بأن كل حضارة يربى تجديدها لا يمكن أن تتجدد بمجرد النقل عن حضارة أخرى ، كما أنها لا استطاع بعثها بالوقوف عند الأساليب القديمة التي بليت وأصبحت لا تتحمل مطالب الجماعة الجديدة . وقد كان الناس إلى زمن يتحدثون في سبيل تحضير الشرق وبعثه عن الأخذ من الحضارة الغربية بما يصلح للشرق وترك ما لا يصلح له . وما يصلح وما لا يصلح تعبير مرن مطاط يمكن لكل فرد أن يختلف مع الفرد الآخر فيه . وما دامت الجماعة ضعيفة فهي تضطرب كل يوم إلى ناحية ما يقول به فرد من الأفراد . ولذلك نسي الناس هذه الفكرة القديمة واتجهوا إلى ناحية أخرى تظهر جليا في مناحي بحث الباحثين وتفكير المفكرين . هذه الفكرة الجديدة هي أن كل حضارة لا تتفق وطبائع

العمران في الناحية التي تقوم فيها الحضارة مقضى عليها بالفشل لاحتالة . وأنت إذا استطعت أن تقر في إنجلترا مثلاً صورة من صور الحضارة أخاذاً بالنظر واللب فقد يستحيل عليك أن تقر هذه الصورة في مصر أو في الشام أو العراق ، لأن طبائع العمران في هذه النواحي تختلف اختلافاً جوهرياً عنها في إنجلترا . وإذن يجب أن تتفق الحضارة المراد بمشها مع هذه الطبائع التي شكلت حضارات هذه الممالك والأمم في الماضي . وإذن فشكل حضارة يراد توطيدها يجب أن تتصل بالماضي اتصالاً وثيقاً ، ويجب أن يكون ما يضم إليها من جديد قابلاً لأن يظهر فيها ولأن يشعر .

ووسيلة معرفة هذه الطبائع تحرير الأفكار سلفاً قبل البحث والنظر فيما أمامها . فهذه الطبائع ليست غريبة عنا ، بل هي طبائعنا ، وهي التي شكلت صبا ناً ، وهي التي يحتمى وراءها سكان أطلال الماضي . فإذا نحن نظرنا إليها نظرة مؤمن بها لم نستطع أن نجردها عما أحاط بها من أساطيرها ووثنياتها . فأما إن حررنا أفكارنا بحيث صارتصالحة لبحثها والتنقيب فيها ومعرفة مبلعها عند صفائها من الشوائب من التأثير في الجماعات التي تخضع لها ، كان لنا بعد ذلك أن ننفي عنها الأساطير والوثنيات التي علقت بها . وأن نقيم على أساسها صافية صريحة صرح الحضارة الجديدة التي نرجو بعثها ، وهذه الطبائع تصبح هي المنبع العذب الخصب الذي تنبعث منه الحضارة .

والجهاد في سبيل تحرير الفكر جهاد مضمّن في كل العصور التي

تسبق التحرير بالفعل. أليس هو إزالة هذه الأستار الكثيفة الموجودة،
 أستار الجهل أو الضعف والرياء . أليس هو حرب الجامدين في
 أرزاقهم وأقواتهم حرباً يستमितون أثناءها في سبيل الدفاع عن أنفسهم.
 إن ما أورده صاحباً ككتاني حرية الفكر والجمعيات السرية من تواريتج
 الثورات والمجازر والمحاكات والتعذيب، وما صوراه من ألوف ماتت
 ضحايا التعصب الأعشى، ومن رجال ذوى أفكار سامية سيقوا إلى
 العذاب وإلى الموت بما تشيب من هوله الرؤوس، لكنه مع ذلك الدية
 المحتومة للجهاد في سبيل تحرير الفكر . ولقد يكون من حسن حظ
 الشرق اليوم أن سادت فيه الأفكار الحرة في العصور الأخيرة رويدا
 رويدا، وأن أصبح النضال في سبيل هذه الحرية كما كان في العصور القديمة.
 وإن كان مع ذلك نضالاً قاسياً بما جر من حرب على الرزق والحرية .
 لكن هذا الجهاد قد أثمر إلى اليوم ثمرات توشك أن تجعلنا نعتقد أن
 أنصار الحرية أصبحوا على أبواب الفوز إن لم يكن الفوز قد تم لهم
 بالفعل . كما أن النهضة التي وصفنا والتي عمت كل طوائف أمم الشرق
 وسرت عدواها إلى أشد الناس جهوداً كفيفة بأن تقضى على كل محاولة
 لمحاربة حرية الفكر .

— ١٠٧ —

— ٢ —

الحرب وحركة التجديد في الشرق

عجيب ما أحدثت الحرب من انقلاب أفعينا نرى الذين أناروها من أهل أوروبا قد اكتتوا بنارها وأحرقهم اظها ، فأفسد عليهم ما كانوا يتمتعون به في جنة الحياة ، واضطرم اليوم إلى جهاد أى جهاد لاستعادة هذا النعيم الداهب ، نرى الذين كان يرتجيمهم أهل أوروبا مغنا للحرب من أمم الشرق قد نشطوا من خمول وتحركوا من جمود ، وتطلعوا من مرآة كان يحسبها غيرهم مدافن الشرق الأبدية ، ينهضون إلى بعث يضارع بعث أوروبا على أثر العصور الوسطى ، ويضارع بعث هذه الأمم الشرقية نفسها لآثر قيام الإسلام . فكأنما كانت الحرب محاريث ومناجل دفعتها يد المقادير في الغرب والشرق ، فكان أمامها في الغرب حدائق وأعشاب وجنات ذات عيون لم تلبث أمام هذه المناجل والمحاريث أن تجث من الأرض وأن تقع على الجانبين ، فذبل منها ما ذبل وتداعى ما تداعى وبقي البعض وله بالأرض اتصال هو الذى يسمح بالرجاء اليوم في استعادة النعيم الداهب ، وكان أمامها في الشرق أرض جامدة تلبدت قواتها حشائش وأعشاب جافة لم تلبث أمام مناجل القدر ومحاريثه أن تطايرت ، وأن شقت الأرض ، وأن فجرت فيها العيون فإذا قوة الإنبات والإثمار تنشط من جديد ، وإذا الجذور القديمة التى ضعفت عن أن تجدد لها

مخرجاً خلال جمود الأرض قد وجدت سبيلها إلى النور والهواء والحياة ، وإذا بذور وفروع جديدة من دوحات الغرب التي حطمت قطعم هذه البذور والفروع القديمة لتعود أنضرم ما كانت ، ولتبعث الشرق إلى حياة المجد والمظنة كرة أخرى .

قلبت مناجل الحرب ومحاربه الطبقة الجامدة من أرض الشرق ، هذه الطبقة التي تكونت خلال عصور وعصور بفعل الظلم والإرهاق والاستبداد خبست عن أهل الشرق نور الحياة وقبرتهم مقعدين في أصفاد من الأوهام والباطيل ، لا تنفذ إليهم من شمس الحياة الإنسانية حرارة تصهر الطبقة الجلينة فتذيبها فتطلق الأسرى من إسمارهم . وخلال هذه العصور والأجيال المتعاقبة ألف الشرقيون أغلالهم وما هم فيه من ظلمات حتى حسبوه الحياة والنعيم . ولم لا ؟ أليس كل شعاع يرق خلال الظلمة الداجنة تعشى له الأبصار وتفزع منه ولا تألفه إلا إذا ثبت واطمأن فاطمأنت له ولم يكن يحرق حجب طبقات الظلم والاستبداد الكثيفة إلا بروق خاطفه تجيء في فترات متباعدة فلا يكون من أثرها على المصفدين في الأغلال إلا أن نهر من غير أن تضىء . لذلك اطمأن الشرق إلى حجبه فركدت عواطف أهله رجعت قرائحهم واضطرب حسهم ، بل فسد ما فيهم من الفرائز الحيوانية الأولى . فلما آن للحرب أن ترفع عنهم الطبقة المتحجرة من غير أن تطلقهم من أغلالهم . ثم لما ألقت عيونهم النور ونقوسهم الحياة هاجوا واضطربوا وثاروا ومايزالون إلى اليوم في ثورتهم وعياهم .

وهذا أول البعث ومقدمة النور والحياة في الشرق . وهذا بدء
 عود الشرق إلى مجده وعظمته . ولما كان الطغاة والمستبدون إنما أذلوا
 الشرق وسدوا عليه حجاباً من الظلمة تحجب إلى الطبقة القاسية التي
 أشرنا إليها بمؤازرة طوائف أنصار الجور في التفكير والحس
 والعاطفة ، لذلك رأيت الثورة التي بدأت سياسية بمحنة على أثر الحرب
 — لأنها كانت متأثرة بمطامع الذين أعلنوا الحرب وبما أعلنوا من مبادئ
 سياسية — رأيتها بعد أن ألفت أهل الشرق النور الذي تكشفت عنه
 حجب الماضي ، تناولت هذا الجور في التفكير وفي الحس وفي
 العاطفة ، وجعلت من أنصاره خصماً يجب القضاء عليه ، أو إخضاعه . كما
 يجب القضاء على المتحكمين السياسيين وإحلال مبدأ التضامن في العلاقات
 الدوائية مكان مبدأ الاستعمار والعسف . وليست الجهود التي توجه
 لمحاربة الجور دون الجهود التي توجه لمحاربة الاستعمار والاستبداد ؛
 ذلك بأن الجور هو الذي مكن في الماضي للمستبدين وللمستعمرين ، وهو
 الذي يمد اليوم في أمل من لا يزال له منهم أمل أن يحكم أمم الشرق
 بالسيف والنار أو بالخدعة والتفرقة . فإذا قضى على الجامدين ، أو إذا
 هم ذلوا وخضعوا ، رأى المتعسفون في الحكم أن لم يبق لهم إلى العنف
 والعسف سبيل ؛ لأن الحرية الغالية تطفئ على كل عنف وعسف ،
 فجاءوا عن أممهم جلاءً أخيراً ونزلوا عن عتيق مبادئهم ليعتقوا
 مبدأ التعاون والتضامن في سبيل الحرية والحق .

فما نراه اليوم من نضال بين القديم والحديث في اللغة والآداب ،
 وما نراه من دعوة إلى التجديد في العلم والفكر ، وما نلحسه من اندفاع

إلى الحرية في الحس والعاطفة وفي الرأي وإبدائه ، وما نشهده من محاولات جريئة للقضاء على كل آثار الجود الماضي في الصلات الاجتماعية كحجاب المرأة وكنظام الطوائف بين الرجال ، وهذه النزعة الطموح إلى ناحية الفن الجميل في مختلف صورته — هذه المظاهر التي نراها للشرق في طور بعثه ليست إلا آثار الثورة على جود الماضي العتيق . وعلى عسف الحاضر وما يؤيد هذا العسف من استبداد واستعمار .

وهذه النهضة وهذه الثورة لاشك بالغة غايتها ، محقة للشرق بعثاً مجيداً . ذلك بأن النفوس الشرقية التي كانت حبيسة في ظلم الجود وغيابات الظلم ، والتي ضعفت لذلك فيها أسباب العزيمة والنشاط ، قد شعرت بهذه الأسباب تعاودها مع النور الجديد كما رأت إبّان الحرب . وعلى أثرها أن هؤلاء الغربيين التي كانت تنظر لهم فيما مضى كأنهم آلهة الفكر والنظر والإبداع والاختراع لم يكونوا آلهة إلا لأنهم كانوا أحراراً ، وأن الشرق لم يعيدهم إلا لأن الجود أقعده حريته . أما وقد تحطمت قيود الجود فقد آن لأصفاد الاستعباد والاستعمار أن تتحطم هي الأخرى ، وأن الشرقيين أن يكونوا آلهة كالغربيين أو أن يكون الغربيون أناساً كالشرقيين سواء بسواء ، والشرق يخطو إلى هذه الغاية بخطى الجبابة ، لأنه وقد رأى ميادين العمل انفسحت أمامه ، ورأى عقله وذكاه تحرراً ، لم يبق ما يعوقه عن العمل بكل ما أوتي في العقل والعاطفة والحسن وفي البدن أيضاً من قوة ونشاط . ومن عمل يستحق أجر عمله وحصل عليه وإن يسلبه منه سالب مادام

يعتزم الاحتفاظ به مستعداً لدفع من يريد العدوان عليه بكل ما أوتي من قوة بدنية وعقلية .

وهذه المرتبة السامية التي يخطو الشرق نحوها ولا تخامره ريبة في قرب دركها هي التي تحفز من ألقت عليهم المقادير بعبء هذا البعث وتجعلهم يرون في كل تضحية يتقدمون بها كسباً جديداً دونه كل كسب . أرايت إلى هذا الذي يجاهد في سبيل حرية الفكر كيف يجاربه الجامدون وكيف يعملون بكل ما أوتوا من قوة ليحرموه من رزق الحياة ، بل من الحياة نفسها ؟ أرايت إليه يستهين بما يستطيع خصومه أن يبلغوه منه ولا يتردد لحظة في مساجلتهم الحرب واثقاً من أنه سينتهى إلى الظفر وسيلقي بهم تحت أقدامه أذلة صاغرين ؟ ثم أرايت إلى هذا الشخص الذي لا يحفل بحكم الجمهور ولا بزرايته بفن من الفنون فيزدرى الجمهور ليعلى مكانة هذا الفن ويواصل السنين تبعاً عما في من ألم الحرمان المادى ما كان في غنى عنه لو أنه جارى الجمهور وخضع لأهواء الجامدين ؟ وهل رأيت لأبطال النهضة النسوية يريدون أن يحرروا نصف الإنسانية تحريراً عملياً من إساءة الذل ويبيعوا إلى العالم من نشاط العواطف الحية السامية ما يضاعف العالم نشاطاً وسمو عاطفة ، غير آبهين لما يقوله الجامدون عنهم ، ولما يجاهدون في سبيل حرمانهم وما يصلون إليه أحياناً من نصر مؤقت في هذا الحرمان المادى ؟ أرايت إلى الذين يضجون في سبيل النهضة بالشرق إلى المراتب الإنسانية السامية ! إنهم ليجدون في تضحياتهم لذة معنوية دونها كل لذة الحياة الجامدة . وما المال ، وما الألقاب وما المناصب إلى جانب رضا النفس .

وطمأنينتها إلى أداء واجبها السامى للإنسانية . إن قلب الإنسان
لأكثر أعضائه بضعاً وأدقها حساً وأكثرها تعرضاً لسكل ما يصيب
سائر الجسم من آلام ، وهو مع ذلك أشرف الأعضاء وأسناها لأنه
هو الذى ينظم فيها الحياة ويجعلها — ما دام هو سليماً — تتذوقها على
خير ما تمكسها قواها الباقية .

والغبطة النفسية التى تنسى صاحبها آلام البدن وحرمانه ، واللذة
المعنوية التى تذيب العذاب المادى فلا يشعر به صاحبه ، هذان هما دعامتا
الإيمان الذى يحرك الأجيال ويدك الأطواد ، وهذان هما اللذان كانا
فى تاريخ الأمم المحرك والدافع إلى المجد والحضارة . استطاع أصحابهما
فى كل عصر نجموا فيه أن يتشعلوا أهمهم الغارقة فى عبادة المادة الجامدة
عن إدراك بها ، الحق والجمال والحرية . وهما اليوم متوافران فى الشرق
بما لم يتوافرا فيه منذ قرون . وهما يسيران جماهيره مسحورة بأصحابهما ،
وإن وجدت فيهم أكثر الأحيان خوارج على ما قدسته القرون ، نواراً
على ما شادت به يد الظلم والاستعباد من هياكل الوهم ومعايد الأباطيل .

نعم إن جماهير الشرق لتسير اليوم مسحورة وراء دعاة الحق والجمال
والحرية وإن أشعرتها غرائزها المكسوبة أنهم ثوار وخوارج لأن
روح الثورة والخروج قد انسكبت فى قرارة روح هذه الجماهير نفسها ،
فهي قد رأت بعينها ، بعد ما أزاحت الحرب طبقات الجلود المتحجرة ،
أملا فى حياة جديدة . ولكن : ما هى هذه الحياة الجديدة ؟ وكيف
يتحقق هذا الأمل ؟ إن أصحاب الرأى أيام الجلود لن يكونوا دعاة

الحياة الجديدة ولا يحقق الأمل الإنسانى الأسى . هذا أمر تشعر به الجماهير شعوراً صادقاً . وهى لذلك قد نخلت عن هؤلاء الجامدين . وإن كانت ما تزال آخذة بتعاليمهم لأنها لما تجد فى الجديد ما يحل محلها وينظم شئون العيش والحياة تنظيمًا يكفل الطمأنينة الوادعة المستريحة . لكن الجديد يجب أن يقيم قواعد مكان ما انهار وتداعى . فلننظر نحن الجماهير بعطف يشوبه الحذر إلى كل الدعاة للتجديد ، فمن أفلح منهم تبعناه إلى مكانة الحكم وقبائنا من جديده ما تسيغه عواطفنا وما يتفق وتراث أسلافنا الأجداد .

نفوس طامحة إلى الحرية تستعذب فى سبيل الحق والجمال كل تضحية وتندفع مؤمنة بما ألتقت عليها مقادير هذا العصر الحاضر من رسالة . وجماهير شعرت بما خلف الماضى وقد أصبح خرائب تلجأ إليها قهراً وكرها ، لأنها لما تطمئن إلى بناء جديد أقيم . وبيئة مؤاتية لهذه النهضة مؤيدة هذا البعث أنشأتها الحرب وقدمتها الدعوة إلى تحطيم الاستعمار والظلم . هذه هى أدوات الشرق فى طور بعثه . وهى أدوات كافية كل الكفاية ليتم هذا البعث ولتقوم على أثره حضارة قوية تزحزح الاستبداد والاستعمار جميعاً عن كواهل أمم الشرق . وما دامت هذه الأدوات تعمل . ووفقة فستصل من البعث إلى غايته .

وأكبر يقيننا أنها تعمل وستعمل موفقة . فهذه هى الجهود الجسام تبدل لكشف كل ناحية من النواحي الإنسانية وتخليصها من رق جمود الماضى وبعثها حياة تبنى ما يستطيع من السكال . وهذه الدعوة إلى

التجديد وإلى الحرية في كل شيء ، وهذا القبول الحسن من جانب الجماهير لتلك الدعوة ، ليس إلا مقدمة لهذا الكشف في النواحي التي ما تزال بحاجة إلى الجهاد . انظر إلى جانب الفن الجميل لم يكن يعرف أهل الشرق من أمره شيئاً حتى أيام الحرب ، ولم يكونوا يحملون بفن جميل شرق أو منسوب إلى أمة من أمم الشرق ، وكان المتقدمون إلى ناحية الحضارة منهم يقفون عند الإعجاب بما تنتج حضارة الغرب من آثار الفن نظرة ازدراء وتحقير ويعتبرونه عملاً تافهاً إن لم يكن عملاً محرماً . أما اليوم فالجمهور يتطلع بعين العطف الكبير إلى ما يبذل من الجهود لإحياء الفن الشرقي والتقدم به لمجاراة حضارة العصر الحاضر . فالشعر والنحت والتصوير والنقش وما إلى هذه الفنون مما كان بعضه باقياً عندما رسم العرب له من خطى ، والبعض الآخر موسوماً بميسم الإثم ، أصبح السكل ينظر اليوم إليها يريد بعثها في صورة شرقية جديدة تتفق والبعث النفسى العام الذى تهتز به أرجاء الشرق جميعاً . والفن الجميل ثمرة الحضارة ، بل هو رحيق هذه الثمرة ، فالتطلع إليه ورجاء النجاح فيه والبلوغ به إلى مرتبة الكمال ، نطلع إلى هذا الرحيق إن لم نبغضه اليوم فأبناؤنا أو أحفادنا بالغوه لاريب كى أثر للبعث الحاضر .

ثم انظر إلى جانب التفكير . لم يقف أمره عند الدعوة إلى حرية الفكر والرأى ولابد أنهما ووسائل هذا الإبداء . بل لقد كادت هذه المسألة تصبح اليوم بديهية على قصر العهد بالدعوة لها دعوة جديدة . بل تعدى التفكير ما ألفت الناس خلال العصور الطويلة الماضية إلى ما يزعمه البعض تجديفاً وإلحاداً ، وأصبح البعث الحر عن الحقيقة لذاتها أمراً مسلماً

به من ناحية ، وأمرأ واقماً بالفعل من الناحية الأخرى . فكثيرون يبحثون في الأدب وتاريخه ، وفي الدين وعلاقته بالعلم ، وفي العلوم المختلفة ، على طرائق البحث الحديثة التي تبدأ بالشك وتختار من مذاهب البحث العلمية ما شاءت . ولئن كانت ثمرات هذه البحوث ما تزال قليلة وما تزال فجوة فإن السنوات القليلة التي مرت منذ البحث ، والجهود التي أنفقت في سبيل هذا البحث بالذات لم تكن لتتسع أكثر من هذا . ثم إن سمو الثقافة الحاضرة وإنشاء التعليم العالي وإقامة منشآته على أسس متينة كل ذلك بشير بإنتاج خصب في المستقبل القريب يتناول كل ألوان البحث الفكري ويتناول العلوم والفنون جميعاً .

وانظر كذلك إلى مقياس الحياة عند الناس اليوم وما كان قبل الحرب . لقد زادت حاجات العيش عندهم زيادة محسوسة ، ودخل بين هذه الحاجات كثير مما كان يحسب من قبل كالا ، وهو بعض الغذاء الأولى للنفس الإنسانية . فهم اليوم أكثر ميلاً للقراءة وللإتصال بالحياة العالمية أضعاف ما كانوا من قبل . وليس أدل على ذلك من سعة انتشار الصحف من ناحية وكثرة عددها وتنوع موضوعاتها من الناحية الأخرى ، وسموها في كل شؤونها على ما كانت مثيلاتها قبل الحرب سمو كبيراً . وهم اليوم أشد حرصاً على الاستفادة من كل المكتشفات والمخترعات الإنسانية وأعظم إقبالاً مما كانوا في أي وقت سالف على المتاع بنعيم العيش متاعاً إنسانياً كاملاً . اذهب إلى دور المسارح وإلى دور السينما وإلى معازف الموسيقى وإلى كل ما يتصل بمعاني الحس والعاطفة نجدتها تضاعف عددها

وتضاعف الإقبال عليها ، ثم هي إلى جانب ذلك تسير في سبيل السمو والإتقان عما كانت عليه مثيلاتها قبل الحرب وعما كانت هي عليه أول خلق منشأتها الأولى أثناء الحرب . ثم هم اليوم في عيشهم المادى في منازلهم وخارج منازلهم أرقى مما كانوا بكثير . ولو أنك قارنت مدائن القاهرة ودمشق وبغداد وغيرها من كبريات عواصم الشرق بما كانت عليه هذه المدائن نفسها قبل الحرب لبهرك الفرق ولحسبت بين عمارة هذه المدائن اليوم وعمارتها من عشرين سنة ماضية عمل أجيال وقرون متعاقبة . وليست المدائن وحدها هي مظهر هذا التطور السريع في دور البعث الذى يحتازه الشرق بل إن البلاد الصغيرة والقرى قد تأثرت به كما تأثرت الأمصار والعواصم أو أكثر مما تأثرت الأمصار والعواصم ، والناس في الشرق كله قد أنفوا الزهد القديم في الحضارة الإنسانية ، وألفوا عيشاً جديداً لا سبيل إلى بقاءه من غير جهاد مستمر هو الجهاد في سبيل الحضارة ، وهو بعض أدوات البعث الذى نتحدث عنه الآن .

ولو أنك نظرت إلى أى جانب آخر من جوانب حياة الشرق رأيت فيه مثلاً رأيت في جوانب الفن والتفكير والعلم وتصور الحياة من نهضة وجهاد للبلوغ بالنهضة غاية السكال، ولرأيت أن هذه النهضة الإجتماعية والفكرية والخلقية تتضافر أطرافها المؤازرة النهضة السياسية تضافراً يضىء سبيل الحرية أمام الشرق كله ويجعل محالاً في سنين معدودة أن يخضع هذا الشرق لحكم متحكم أو لاستعمار

مستعمر ، وأنه . إن ارتضى في علاقاته الدولية قاعدة أو صلة فإنما تكون صلة التعاون بينه وبين الغرب للبلوغ بالإنسانية كلها إلى مرتبة السكال .

قد يرى بعضهم ، فيما لفتا النظر إليه من جوانب النهضة ، قصوراً واضطراباً فأين علمنا ما يزال من علم الغرب ؟ وأين تفكيرنا من تفكيره ؟ وأين فننا من فنه ؟ ونهضتنا الاجتماعية من نظامه العتيق المؤسس على أثبت القواعد ؟ بل ما قيمة هذه الجهود في تلك الجوانب وما عساها تستطيع في نهضة بلاد انقضت عليها عصور وهى سيجية تحت ظلمات تلك الطبقات المتحجرة من عسف واستبداد وجهل وجور ؟ ! وقد يكون الناظر السطحي أن يتأثر بهذا الاعتراض حتى ليحسبه جديراً بالاعتبار . لكنه لا يزيد على أنه اعتراض سطحي فهذه النهضة التى تبعث الشرق اليوم إلى الحياة ليست بنت اليوم . بل إن لها المقدمات ترجع إلى أكثر من مائة سنة مضت ، وللجاهدين اليوم طلائع تقدمونا وقضوا في ميدان الجهاد أبطالا عظاماً ، وإن كان التاريخ لم يذكرهم فذلك لأن التاريخ لما يكتب بالعناية التى يجب أن يكتب بها . ثم إن الجهود ما تزال قاصرة حقاً ، وما يزال الاضطراب بادياً في نواحي نهضة الشرق . لكن هذا الاضطراب نفسه أمارة أخرى من أعلام البعث وحجة من حججه . ألسنت إذا أردت تشييد قصر منيف بدأت بإزالة ما يعترض أساساته من أسباب الضعف حتى لا يتطرق إليه في مستقبل الزمن وهن ،

ثم قلت بعد ذلك بإحضار كل مواد البناء وتحضيرها . فإذا ظهرت على السطح أوليات بناء القصر حسبها الناظر إليها خليطاً مضطرباً من الحجر والطين والجير ، ثم رأى حولها وخلالها ما هو أشد منها اضطراباً . لسكنه لا يلبث كلها ارتفع البناء أن يرى النظام يحل محل الفوضى ، والعواضد تربط بين أجزاء البناء ، حتى إذا بالقصر المنيف تأخذ العين روعته واللب بهاؤه وجلاله فهذه الجهود التي يحسبها السطحيون قاصرة ، وهذه الاضطرابات الذي يتوهمونها الفوضى ، إنما تلك احتتمار أسباب الضعف والوهن من أسس نهضة الشرق وأدوات عمارتها . وهذه النهضة ليست بكبير حاجة إلى زمن طويل ليقف منها الناظر السطحي ، وغير الناظر السطحي موقف المعجب المقدس .

وإن عواضد هذه النهضة وروابطها لتظهر أمام الرائي رويداً رويداً . فالجهود العقلية — علمية وفكرية وأدبية — كانت مبعثرة في الماضي لا تربط بينها رابطة ، وكانت ضعيفة لا تقوى على خلق هذه الرابطة . ثم ها هي ذى اليوم قد ربطت بيننا الجامعات منتشرة على بلاد الشرق العربي المختلفة بما قررت من اتصال فيما بينها وبين غيرها من معاهد العلم المختلفة فيه . وهذه روابط فكرية ومعنوية تتقدم كل بعث إلى ذرى الحضارة كلها أن لبعث أن يؤتى ثمراته . ثم إن الروابط المادية نفسها تزداد كل يوم وتزيد أهم هذا الشرق اقتراباً بعضها من بعض . ألاست تتجول اليوم خلال الشرق كله في أيام فتصل من القاهرة إلى

القدس و عمان و دمشق و بغداد ثم إلى جزيرة العرب لتعود منها إلى القاهرة أو إلى أية نقطة أردت . وهذا التجوال كان يقتضيك في الماضي شهوراً طوالاً و نصباً لا قبل للأكثرين بها .

وكلما قويت الروابط المعنوية و المادية ، وكلما تكدست ثمرة المجهودات الصادقة التي تبذل اليوم ، ارتفع أمام النظر هذا البناء العظيم و بدت على جوانبه تماثيل العلم و الفن و الفكر و كل أسباب الحضارة الشرقية رافعة الرأس يمسك كل منها بيد صاحبه علامة التضامن و التآزر لبناء هذا الشرق قوياً مجيداً .

و لقد اجتاحت بلاد الشرق في السنوات الأخيرة حركة تجديد واسعة النطاق حقاً ، و هي متهمة بالتطرف إلى حدود الثورة أحياناً . وإذا كانت مصر لم تلجأ إلى طريق الثورة الذي لجأت إليه تركيا و الأفغان و فارس لأسباب سياسية و غير سياسية مختلفة فإن ذلك لم يمنعها — رغم سبقها هذه الدول الشرقية في الماضي إلى ناحية المدنية الغربية — من أن توسع خطاها في حركة التجديد ، و من أن تحت السير في سبيله . و البلاد السورية و العراق و تحاولان ما تحاول مصر و ما تحاول البلاد الشرقية الأخرى . بل إن حركة التجديد لم تفت الحجاز و بلاد شبه جزيرة العرب برغم عدم ملائمة أحوالها الاقتصادية و ظروفها الاجتماعية له . كلامه أحوال البلاد الشرقية الأخرى و ظروفها .

و ما نحسبنا نغلو في قليل و لا كثير إذا اعتبرنا حركة التجديد التي نتناول أهم الشرق جميعاً دليلاً على عمق إحساسها بأن النظام القديم ،

بل المدنية القديمة ، التي كانت آخذة بهما لم يعودا صالحين للجهد والتعاون مع أمم الأرض الأخرى . وليس في هذا انتقاص للنظام القديم لذاته أو للمدنية القديمة لذاتها ، ولكن معناه أن هذا النظام وتلك المدنية قد قاما بما أريدهما أن يقوموا به في العصر الذي كانا فيه ملاك قوة الأمم وتقدمها . ثم كانت التطورات الأخيرة في مدنية أوروبا ، فتغلبت بمنشأتها الحديثة على ما كان في النظام القديم من قوة بحيث أصبح عاجزاً عن مجاهدة هذه المدنية الحديثة ومنافستها . ولقد كان ذلك أبداً شأن النظم والمدنيات في العصور المختلفة . يخلف واحد منها واحداً ويتغلب عليه فيزج به في أعماق التاريخ . وليس في هذا قضا . أخير على النظام المغلوب . فكثيراً ما حدث أن بعثت تطورات وعوامل جديدة هذا النظام إلى الحياة من جديد في صورة تلائم تفكير الناس واتجاههم في الحياة . ولكن فيه انتصاراً لنظام جديد عليه لا يرى الناس بداً من الأخذ به حتى يصلوا من الحياة إلى خير ما تستطيع الحياة أن تقدم به من نعمة لإبان العهد الذي يعيشون فيه .

ولقد يكون من موجبات الأسف عند البعض أن يكون النظام الجديد الذي تسعى أمم الشرق إليه مشرباً بالروح المادى الذى بعثه العلم في أوروبا في القرون الأخيرة . وقد يكون من حق هؤلاء أن يزدادوا أسفاً لأن الشرق كان في الماضى مبعث النهضة الروحية التى جددت قوى الأمم فجعلت من مهابط الوحي على الأنبياء في مصر وفلسطين وبلاد العرب مصدر قوة كفلت لهذه الأمم سعادتها قروناً طويلة . ولكن هذه الأمم الشرقية شعرت بأن شعلتها هذه

القوة الروحية خبت في الأزمان الأخيرة بما مسكن لأمم الغرب من التغلب عليها والاستئثار بالأمر فيها وإكراه أهلها على ألوان من العبودية لا ترضاها أمة تحترم نفسها وتقدر كرامتها . ولم تجد هذه الأمم في الرجال الذين تتمثل هذه القوة الروحية فيهم شيئاً من ضياء هذه القوة ونورها . بل كثيراً ما كان هؤلاء الحفظة للقوة الروحية أعواناً للغائبين في بلادهم . فلما كانت الحرب ورأى الناس في بلاد الشرق جميعاً مظاهرها المادية أقنعهم ذلك بأن هذه المدنية المادية ونظامها غاليان لا محالة . لذلك ما لبثوا أن رأوا في طائفة ممن ولوا أمرهم أنصاراً لهذه المدنية حتى بايعوهم ولم يتيعوا الاعتراض معترض عليهم وزناً . ولعلك إن بحثت عن السبب في ضعف هؤلاء الحفظة للقوة الروحية في العصور الأخيرة في الشرق وفي القرون التي سبقتها في أوروبا نفسها ، وجدته في الأثرة الطائفية التي بعثتهم ليجمدوا على التعاليم القديمة ولا يعترفوا بما استحدث العقل الإنساني في مختلف ميادين الحياة من قوى . والأثرة الطائفية كالأثرة الفردية كانت دائماً سبب ضعف وانحلال ما اعتزت بنفسها وناوت القوى المحيطة بها وانكسبت دون الاندماج في هذه القوى الفائدة الجماعية ولفائدة الإنسانية . وكما أن رئيس الأسرة أو الطائفة يزداد قوة كلما شعر أهل الطائفة أو الأسرة أنه لهم أكثر مما هو لنفسه ، على حين هو يضعف إذا هم رأوا فيه توفراً على ذاته وانكاشاً عنهم ، كذلك تضعف الطوائف التي يجلبها الناس ويقدمونها إذا هم شعروا بها بتباعد عنهم ولا تريد لهم خيراً ولا إصلاحاً . ومن الثابت في التاريخ أن حفظة القوة

الروحية من رجال الدين في أوروبا وفي الشرق وصلوا في عصور مختلفة إلى ظروف من الأثرة جعلت الناس ينظرون إليهم نظرة خوف وقلق . وفي هذه الظروف التي تغلبت الأثرة فيها على هؤلاء أبدى المشتغلون بالعالم من التضحية ما لفت نحوهم الأنظار وجعلهم يعتبرون رجال التضحية لخير الإنسانية ولفائدتها . كذلك كان الشأن في أوروبا منذ القرن الخامس عشر ، ولعل هذا هو الشأن الآن في كثير من الأمم الشرقية .

وأنت إذا نظرت مثلاً إلى أمة كتركيا كان سلطانها يمتد حتى أيام الحرب العالمية الأولى إلى بلاد الأمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف وبحث في نفسية أهلها عما يعتقدونه السبب لتدهورها ، ألفيتهم يؤمنون بأن السبب يرجع إلى أثرة طائفة الذين كانوا يمسكون بالفة الروحية في الماضي والذين كانوا مع ذلك مثال الأناية والأثرة فيها ، وسواء أكان هذا الاعتبار صحيحاً أم غير صحيح فإنه حل من النفس التركية محل الإيمان ، وهو الذي جعل الناس يقبلون على حركة التجديد والإصلاح التي قام بها الغازي مصطفى كال أفواجاً أفواجاً لأنهم رأوا هذه الحركة تقصد إلى رقيهم وسعادتهم جميعاً كأمة ولم يروا فيها شيئاً من الأثرة التي تميز بها ذلك العصر الماضي .

ومثل الاعتقاد الذي رأيناه في تركيا نرى اعتقاداً شبيهاً به في غيرها من الأمم الشرقية . ولهذا الاعتقاد نرى الناس يترددون قبل أن يحكموا حكماً قاسياً حتى على ما يعتقدونه متطرفاً غاية التطرف . من حركات التجديد التي تقوم تلك البلاد بها ولا يابون أن يضعوها

موضع بحث ولا مناقشة . وما دامت النظم الاجتماعية توضع موضع البحث من غير تعصب لأى منها فتلك بداية حركة التجديد فى كل عصر وفى كل أمة .

فضلا عما لحركة التجديد من الدلالة على عمق إحساس الأمم الشرقية بأن النظام القديم ، بل المدنية القديمة لم يعودا صالحين للجهاد والتعاون مع الأمم الأرض الأخرى ، فإن لها دلالة غير هذه ليست دونها قوة . فحركة التجديد دليل أيضاً على عمق إحساس الأمم الشرقية بضرورة إلقاء النير الأجنبي عنها . وإن كلفها ذلك ما كلفها ، وبضرورة التعاون مع الأمم الأخرى تعاون أخوة ومحبة ، لاتعاون سيادة وعبودية . ألسنت ترى الناس جميعاً يقولون : إنا يجب أن نتسلح بأسلحة أوروبا إذا أردنا أن نتجسج فى وجه أوروبا . ولقد كانوا يقولون هذا القول فى الماضى ثم لا يكادون يشفعونه بعمل . ذلك بأنهم لم يكونوا يؤمنون إيماناً صحيحاً ، وكانوا ما يزالون يتوهمون فى النظام القديم وسيلة للتخلل من الرق ، أو أنهم كانوا مطمئنين إلى هذا الرق . أما اليوم فهم يقولون ويعملون ويجاهدون بكل مالههم للتسلح فعلاً بالأسلحة الأوروبية المعنوية والمادية . ولقد أدركت أوروبا مدى ما يمكن أن يترتب على هذا الإيمان الجديد لدى الأمم الشرقية ، ففكرت فى ضرورة الارتباط بينها وبين أمم الشرق بروابط المودة والتحالف والتعاون ، وإن كانت ماتزال إلى اليوم مترددة فى المدى الذى تذهب إليه من هذا التحالف والتعاون الودى . وكانت

ما تزال تماطل قبل وضع القواعد الأخيرة لهذا التحالف لأنها تريد أن تعرف غاية ما يدفع الإيمان الجديد الأمم الشرقية إليه من اعترافها الميش حرة رافضة أى نير يفرض عليها .

وأحسب أن ثمة اعتباراً آخر هو الذى يدعو إلى تردد الأمم الغربية ؛ فالأمم القائمة بحركة التجديد على صورة جدية لا هواة ولا موارد فيها هى الأمم التى كانت قبل الحرب مستقلة استقلالاً صحيحاً والتي ما تزال مستقلة استقلالاً صحيحاً كذلك . فتركيا وفارس وبلاد الأفغان لم تخضع فى يوم من الأيام خضوع غيرها للنير الأجنبي . وإذا هى كانت فى بعض الظروف قد خضعت لتسكون منطقة نفوذ لبعض الممالك الأوربية فإن خضوعها هذا لم يدم أمداً طويلاً ، ولم يكن عن رضا وطواعية . وهذه الأفغان — على أنها بلاد صغيرة — لم ترض حكماً انكثرا إياها ولم تترك فرصة من الفرص التى انتهزتها حتى وصلت للاعتراف لها بالاستقلال التاجز لا تعليق فى أية ناحية من نواحيه بحال ، وتركيا إذا كانت قد فقدت مستعمراتها ، التى كانت تجعل منها امبراطورية كبيرة ، فإنها لم تكن يوماً من الأيام خاضعة لنير أجنبي خضوعاً بالمعنى الذى تفهمه الأمم الأوربية . وفارس التى كانت يوماً من الأيام مقسمة إلى مناطق نفوذ بين الدولتين الانكليزية والروسية لم تقدم على ذلك إلا ريثما وجدت السبيل للثورة عليه . وهذه البلاد التى كانت فى هذه المراتب السياسية فى الماضى هى القائمة اليوم بالتجديد على وجه قوى واضح . أما سائر البلاد الشرقية فكانت خاضعة من قبل

لنير أجنبي هو نير تركيا ، أو لنفوذ أجنبي هو نفوذ انكلترا أو فرنسا أو غيرهما . وحركة التجديد في هذه البلاد ليست بمثل القوة الحادثة بها في تركيا وفارس والافغان . أفليس من حق أوروبا — وهذه هي الحال — أن تتمهل وأن تطاول وتماطل قبل أن تمتد لهذه البلاد — التي كانت محكومة إلى قرون ماضية ، والتي وقعت بعد الحرب في قبضتها — يد مودة وصداقة وتعاون خالص .

ولأوروبا أن تفكر على هذا النحو ؛ فالعلاقات الدولية لا تقوم بين الأمم على قواعد من مبادئ الحق والعدل والحرية على نحو ما اعتدنا أن نسمع إبان الحرب وبعدها . وإنما تقوم هذه العلاقات على أساس ما في كل أمة من الأمم من قوة الحياة . فإذا صح يوماً من الأيام لدى أوروبا أن حركة التجديد القائمة في الشرق حركة متمكنة من النفوس بالغة منها مباح الإيمان ، واصلة يوماً من الأيام لتقف هذه الدول في وجه أوروبا موقف الند للند بطريقة عملية ، واتكلف أوروبا مشقات للتغلب عليها ، لم يبق بد من أن يقوم التعاون الصحيح بين الشرق والغرب ، ومن أن تقر أوروبا الدول المغلوبة اليوم بمثل ما أقرت به من قبل لتركيا وفارس والافغان ، ومن أن ترتبط وإياها بعلاقات المودة الخالصة .

ونحن من جانبنا نقر بأن أوروبا واصلة آخر الأمر لهذا الاقتناع بضرورة العدول عن سياسة التعاون . فإنما يحول بين الدول الواقعة اليوم تحت السلطان الأوربي وبين القيام بحركة التجديد على النحو

الذى تقوم به تركيا وفارس والافغان وجود هذه الدول الأوربية نفسها وإلزامها البلاد الواقعة تحت سلطانها أن تسير فى خطاها إلى التقدم ، مع شيء كثير من الحذر حتى لا تتخذ أوربا من اندفاعها وسيلة لنهاياتها والعمل على محاربة آمالها فى التجديد ، ومع هذا الحذر فإن الخطى التى تسير بها الأمم واسعة إلى حد كبير ، وخذ مصر مثلاً ؛ فلم تبق بين أمم العالم أمة تخضع لمثل الاعتبارات السياسية الثقيلة التى تخضع لها مصر : تحفظات انجلترا المكفولة بجيوشها من جهة ، والامتيازات من جهة أخرى ، والاضطراب الحزبى الناشئ عن هذا الموقف السياسى من جهة ثالثة . مع ذلك فإن خطى مصر فى سبيل التجديد خطى العالقة . ومهما يتغير القائمون بأمر الحكم فى مصر فإن حاجمة الشعب نفسه للتجديد تدفع هؤلاء القائمين بالأمر إلى السير فيه طوعاً أو كرها . وإذا كان من بينهم من لا يؤمن بالتجديد إيماناً صحيحاً وكان يستطيع لذلك أن يحاول الوقوف فى وجهه ، فهو إنما يحاول بوسائل ملتوية لأنه لا يستطيع أن يصارح الناس بأنه عدو التجديد وخصم تقدم الأمة إلى الصف الذى يمكنها من التغلب على الجود الذى عصف بها وبحريتها واستقلالها فى الماضى . وأنت لا ريب واجد من سوريا وفلسطين والعراق مثل ما تجد من ذلك فى مصر سواء بسواء . والحق أن الذين حضروا العهد القريب السابق لأيام الحرب فى هذه البلاد ليدكرون كيف كان الجود متمكناً ، وكيف كانت الصيحات إلى التجديد تقابل بفتور أدنى إلى السخرية منها والاستهزاء بها . وبالرغم من تضافر كثير من القوى فى هذا العصر الأخير على الوقوف فى وجه حركة

التجديد فإن هذا التجديد منتصر لا محالة بالغ غايته من إلغاء النير
الأجنبي والوصول بهذه الأمم لتسكون علاقتها مع غيرها علاقة تفاه
وتعاون لا علاقة خضوع وذلة .

بقي الآن أن نتساءل عما يكون شأن مخلفات النظام القديم الذى
جهد ، والذى حدثت الحركة بقدر ما جهد . هل يكون من أثر هذه الحركة
القضاء على هذه المخلفات قضاء أخيراً ؟ ذلك ما يمكن أن تبعث مثل
حركة تركيا إلى الاعتقاد به . فالتكيا القديمة ، والملابس التى كانت معتبرة
وكأنها ملابس دينية ، والمحاكم التى كانت مصبوغة بهذه الصبغة ، كل ذلك
قضى عليه إلى غير عودة . لكن تركيا نفسها — مع ظهورها فى حركة
التجديد بمظهر المتطرف الذى لا يريد الوقوف فى منتصف الطريق من
إصلاحها — قدرت أن لا بد فى حياة الشعوب من قوة روحية . وإذا
كانت هذه القوة قد أغرقت فى الماضى فى قبض من الجهالات والأباطيل
كانت هى التى تعمر التكيا وما إلى التسكيا من نظم ، فإن تنظيف أسباب
هذه القوة من الإدارات التى أحاطت بها فى الماضى وجعل الدين والعلوم
المتصلة به موضع دراسة صحيحة كفيل بما تحتاج إليه الجماعة من هذه
القرة من غير أن يخلق بسببها عاطلين ومرترقة بغير عمل . وما نحن
أولاء نرى فى الأفغان وفى فارس مثل هذا الاتجاه . بل ها نحن أولاء
نراه أخيراً فى مصر وإن كان يسير بخطى متعدة ليس فيها معنى الثورة
التي لزمت الانقلاب فى تركيا وفى الأفغان وفارس . وإن فسيكون
أن تأخذ هذه البلاد من هذا النظام القديم ؛ لتقدر اللازم لحياته ولحياتها

- ١٢٨ -

وستنفي منه ما كان معطلا لغيره من أسباب حياتها وتقدمها ، وسيبدأ هذا النظام لذلك يستعيد شيئاً من القوة التي تكفل له التعاون مع حركة التجديد الذي كان يعتبر في الماضي عدوا لها ، وعندئذ توثق حركة التجديد ثمارها فتتقف الأمم الشرقية تسكاتف غيرها من سائر الأمم ، وتكون قد خالفت لنفسها الحضارة التي تكفل لها الحربة وتكفل للعالم السلام .

(٣)

حضارة الشرق الأوسط

متى تلبعث من جديد ؟

قامت في تركيا وإيران وأفغانستان في الحلقة الثالثة من هذا القرن حركة تجديد عظيمة أساسها إحلال مظاهر الحضارة الغربية محل آثار الحضارة الشرقية ، ولقد ذهبت تركيا في هذا السبيل إلى أبعد مدى حين قررت استبدال الحروف التركية بالحروف اللاتينية في الكتابة . وكثيراً ما قيل في تركيا إن سبب ما أصابها في الماضي إنما يرجع إلى أخذها بالحضارة الشرقية وقيامها على رأس الأمم الإسلامية حين كانت صاحبة الإمبراطورية العثمانية . ولعل شيئاً من مثل هذا يقال في إيران وفي أفغانستان . فهل نستطيع أن نعتقد أن الحضارة الغربية ستقضي على الحضارة الشرقية . وأن الأمم التي عاشت قروناً طويلة ذات حضارة شرقية خاصة ، ستضطر أمام تيار المدنية الغربية إلى أن تنسى ماضيها وإلى أن تأخذ في الدقيق والجليل بالحضارة الغربية ، وأن هذه النزعات القائمة اليوم في الدول الثلاث التي أشرنا إليها ، وما شابهها من نزعات قائمة في سائر الأمم الشرقية ، لا يمكن أن تنتهي بالشعوب الشرقية إلى الأخذ بالحضارة الغربية وحدها ، وأن هذه الأمم متى استعادت نشاطها بما تقتضيه من أهم الغرب ستضطر بحكم طبيعة الوجود إلى بعث حضارتها الشرقية من جديد ، والغأ ما بلغ تأثير هذه الحضارة الشرقية بمظاهر الحياة الغربية التي اقترضتها ؟

وقد يحسب البعض عند النظرة الأولى أن الحضارة الشرقية قد أفلسـت بل اندثرت ، وأن لا سبيل لها إلى عودة أو بعث . أو ليس العالم تتقارب اليوم أجزاءه بما ييسر العلم من طرق المواصلات وما يسهل من ذبوع الأفكار والآراء بمختلف الطرق والوسائل ؟ وإذن فالمدينة الحاكمة في العالم ستكون مدينة واحدة ، وهذه المدينة اليوم وإلى أجيال مقبلة هي مدينة الغرب ، مدينة العلم والصناعة . بل لقد يصح القول عند أصحاب هذه النظرة الأولى بأن ما امتاز به الغرب من نشاط ، وما عرف عن أمم الشرق من ميل للدعة ، قد يجعل الشرق أبداً تابعاً للغرب في مدينته ، أسيراً له في حضارته .

لكنني أحسب هذه النظرة الأولى لا تلبث أن يتغير رأى صاحبها إذا هي دامت إلى زمن يسمح بتفكير أعمق من التفكير السطحي ؛ فالشرق يستعير اليوم حضارة الغرب ويندفع في استعارته إليها لأن الحضارة الشرقية التي كانت زاهرة في عصور كثيرة قد تدثرت في القرنين الأخيرين بنوع خاص بدثر ثقيلة من أوهام الماضي التي لاغنى عنها لسعادة السواد حتى في أبهى أيام الحضارة ، والتي لا تتصل بهذه الحضارة إلا كما تتصل الألياف الذائبة بالشجرة القوية ، فإذا ذبلت الشجرة نفسها رأيت الألياف تتكاثر حولها وتماسك وتصبح غطاء كثيفاً يحجب عن الجذع مقومات الحياة ويحجب عن الناس ما يبق في الجذع من حياة . وليست حضارة الشرق فيما أصيبت به من هذه الدثر إلا خاضعة لما خضعت من قبل له مدينيات سبقتها ، كالحضارة المصرية القديمة والحضارة الإغريقية القديمة وما اتصل

يهاتين الحضارتين في روما وفينيقيا قد عدت عليها عوادي الأيام كما فعلت بحضارة الشرق في آخر عصوره . لكن ذلك لم يكن معناه أن هذه الحضارات القديمة قد قبرت إلى غير عودة . وإنما معناه أنها يوم تبعث تبعث متأثرة بحياة العصر الذى تقوم فيه بعد رقدتها الطويلة، متأثرة كذلك بالمذنيات التى تجاورها ، والتى قد تندمج ولياها في حضارة أوسع نطاقاً وأبعد في حياة الإنسانية أثراً .

والحضارة ليس قوامها هذه المظاهر التى تراها العين في الملبس أو حياة الأسرة وما إليها مما نستعيرها نحن بني الشرق بما في الغرب . كلا . فهذه المظاهر ليست إلا آثاراً تتفق وتختلف بين أمة وأخرى وطائفة من الناس وطائفة غيرها في الأمة الواحدة . إنما الحضارة روح وإيمان . فإذا قلت الحضارة الإسلامية ، أو الحضارة المسيحية ، فأنت لم تقصد إلى الغزو الذى غزاه المسلمون وإلى ما فتحوا من أمصار ، ولم تقصد كذلك إلى ما استحدثوا في اللباس وفي حياة الأسرة ، وإنما أنت تقصد إلى أصل أعمق من هذا ، أن تقصد إلى قصور الناس لعلاقة الفرد ولعلاقة الجماعة الإنسانية بالوجود كله ، فهذا التوحيد الذى قام محمد بالدعوة له هو أساس الحضارة الإسلامية كلها . ولهذا الفكرة خضعت ألوان التفكير والإحساس في الأمم المختلفة التى انتشر الإسلام فيها . ولأفكار معدودة متصلة اتصالاً وثيقاً بفكرة التوحيد يرجع الفضل في تطورات العالم الإسلامى العظيمة وفي أيام مجده ونفاره . وفي طليعة هذه الأفكار المتصلة بالتوحيد فكرتا العدل

والانصاف . كذلك الحضارة المسيحية تقوم على أساس من فكرة التضحية — تضحية عيسى بنفسه لنجاة نبي الإنسان ، وفكرة الحب المتصلة في الحضارة النصرانية بفكرة التضحية اتصالاً وثيقاً . لكن المتكلمين من المسلمين ومن النصارى قد أضافوا إلى هذه الأسس من استنتاجاتهم ومنطقهم ما كدس حولها الشيء الكثير من نظم وعقائد . ولما أن لهذه الحضارة الإسلامية وتلك الحضارة النصرانية أن يستريحا الزمن الكافي من الأوهام التي علفت بهما ، قامت الحضارة الأوروبية الحاضرة ، والتي يمكنك أن تسميها حضارة العلم ، أو الحضارة الصناعية .

قامت هذه الحضارة العلمية أول قيامها على أساس من هدم قواعد الحضارات التي نشأت بينها . وإذ كان منشؤها في أحضان الحضارة النصرانية ، فقد جدت أكبر الجدة في محاربة النصرانية ، وحاولت أن تحل محلها . وكأنت هذه المحاولات بادئ الرأي بتأييدها الأساس الأول الذي تقوم عليه النصرانية : أساس الألوهية . فسخر ديكارت وكانت وغيرهما قواعد العلم والبحث الجديد لإثبات ما اعتمدت المسيحية على الوحي وعلى المعجزة في إنياته . ثم كان الملحدون والعلميون وكان آخر الأمر المتشككون الذين قصروا العلم على ما نعلم وما نستطيع عمله من طريق البحث والملاحظة والاستقراء . فأما مالا نعلم فقد وضع جانباً إلى أن تتاح فرصة لإثباته . وكان الكثيرون في القرن التاسع عشر يؤمنون بأن هذه الفرصة آتية لاحالة ، وإنك إذ قرأ

الفيلسوفين الفرنسيين : تين ورينان لتشعر بأنهما يريان بعين الإلهام يوم يحل العلم طلاسماً مافى الأرض والسماء ويكشف عن لغز الوجود بوسائله التى لاتقبل الشك ولا يأتيتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . على أن هذا الإيمان بقدرة العلم المطلقة قد بدأ يتراجع شيئاً فشيئاً بما ظهر من مذاهب جديدة تهدم مذاهب عليية قديمة ، وبما شعر به الكثيرون من العلماء أنفسهم بأن كل حضارة يجب أن يكون لها روح وإيمان . ولعل « كمت » العالم والفيلسوف الفرنسى كان فى مقدمة العلماء الذين قدروا هذا . لذلك قرن بفلسفته العلمية ديانته الإنسانية لتتكون روح حياة السواد وإيمانهم . وها هو ذا « برجسن » والروحانيون يشعرون اليوم بأن العلم — على ما أحسن للإنسانية ومدى أسباب الرخاء والسعادة المادية — قد اعترف بقصره عن أن يجد حلاً علمياً لصلة ما بين الفرد والجماعة الإنسانية بالوجود كله ، وبأنه لأمقر من الالتجاء للإلهام إذا أريد الوصول إلى هذا الحل ، ولا بد من أن يكون حلاً يجمع إلى الحقيقة البساطة لتمثله روح السواد والجماهير كى يكون لها أساس حضارة جديدة .

وليس هذا النوع من التفكير مقصوداً على العلماء والفلاسفة . بل إن موجة التفكير العام الأخيرة فى أوروبا لتذهب إلى أن العلم قد عجز عن أن يعد غذاء نفسياً للشعوب الغربية ، وأنه لا مفر إذن من الالتجاء للشرق ومذاهبه وأديانه علّ الغرب يجد فيها هذا الغذاء . وإنا نجد هذا التفكير فى أمريكا وأوروبا واخيراً قوياً : نيجده فى

أمريكا حيث تعددت المذاهب الدينية إلى غير حد ، وحيث جعل الناس يأخذون عن المذاهب الشرقية كالبهائية وغير البهائية . ونجد في أوروبا حيث يبحث الأوروبيون في مذاهب الهند القديمة يريدون أن يقيموا وحدة الوجود على أساس من إلهام أبناء بوذا وبرهمة بعد أن رأوا الملاحظة والاستنتاج والاستقراء عاجزة عن إقامة هذه الوحدة. والتيوزوفية وغير التيوزوفية من المذاهب ليست إلا بعض آثار النعش النفساني وبعض مظاهر مرجة التفكير هذه . فهل ترى يلهم الغرب الوصول إلى كلية جامعة تكون للسواد روحاً وإيماناً ، وتكون بذلك قاعدة حضارة جديدة يضطر الشرق إلى الأخذ بها فتكون مدنية غربية ؟ أم أن الغرب سيظل يضطرب بين موج من إلهامات الشرق السكشيرة القوية حتى يقوم في الشرق مناد بكلمة الحق فإذا الغرب وعلمه يتبعانه طائعين لأنهما يجدان في كلمته صلة الإنسانية بالوجود ، ويجدان لذلك فيها سبيل السعادة ؟

إذا صح لنا أن نتخذ التاريخ هادياً للجواب عن سؤالنا هذا ، أحسب جواب التاريخ أوضح من أن يحتاج إلى بحث بعيد ؛ فالكلمات الجامعة التي تفسر صلة الإنسان بالوجود تفسيراً يأخذ الناس به طائعين كان مصدر الوحي بها في الشرق دائماً . فالإسلام والمسيحية واليهودية والبودية والبرهمية وديانة كونفشيوس نزلت كلها على وسل من أهل الشرق ولم يعرف التاريخ في الغرب أحداً نادى بكلمة جامعة كالتى نادى بها أى واحد من أصحاب هذه الأديان . هذا مع أن الغرب كان دائماً موضع نشاط عظيم ، وكانت اليونان منبع الحكمة والفلسفة الأولى

التي تعتبر أساس الفلسفة الأوربية الحاضرة ما تزال . فإذا كان هذا جواب التاريخ كان لنا أن ننتظر صاحب كلمة الحق التي تفنر الوجود في الشرق . وكانت مدينة الشرق الروحية هي التي ستعم العالم بعد أن تربط أواصر العلم وصلات الميكانيكا العالم كله وتجعل منه بقعة ضيقة . ويومئذ يكون التعاون بين حكمة الشرق ونشاط الغرب تعارفاً يجمع إلى الرجاء السعادة ، وإلى الحكمة السامية الطمأنينة الروحية .

قد يذهب بعضهم إلى أن عصور الإلهام قد انتهت ، وإلى أن العلم وامتداد سلطانه إلى مختلف نواحي الحياة يجعل الكلمة الشعرية التي تستريح لها النفوس جميعاً أمنية عزيزة المتال . وأصحاب هذا المذهب على حق إذا أنت نظرت للمستقبل القريب جداً . أو إذا أنت قدرت أن العلم سيصل من سعيه المتواصل إلى حل لغز الوجود ، وأحسب الظن بمقدرة العلم هذه لا يبرره الآن ما كان يبرر الإيمان بالعلم في أيام تين ورينان ، يومئذ كان العلم ما يزال في فتوة نشاطه ، وما يزال بذلك يكشف كل يوم عن جديد . فكان المؤمنون بالعلم يحسبون أن العلم أصبح وحدة قائمة بذاتها ، سامية فوق الطبيعة الإنسانية لا تعرف الوقوف ولا الاستجمام . أما اليوم فقد أصبحت خطى العلم أبطأ بكثير عما كانت من قبل وأصبح العلم التطبيقي يهر الأظار أكثر مما يبهرها الكشف عن قوانين علمية جديدة . بل إن القوانين التي اعتبرت ثابتة زمناً ما ، قد وضعت اليوم موضع النقد والتحليل . فالمرحلة الحاضرة من مراحل العلم في جانبه النظري مرحلة تحقيق وتمحيص ، وليست مرحلة كشف جديد .

فأما العلم التطبيقي ، وأما اختراع الأنومويلات والطيارات وزيادة أسباب الرخاء ، فليست في شيء من قواعد الحياة الجديدة . إنما هي استخدام لقوى اكتشفت استخداماً واسع النطاق . وسيكون يوم قريب أو بعيد يقف فيه هذا النشاط التطبيقي عن الجديد من الاختراع ليعنى بكمال المخترعات وإسباغ الكمال الفنى عليها . ويومئذ يدخل العلم التطبيقي هو الآخر في دور النقد . ويومئذ تتمخض الحركة العلمية العظيمة التي شهد العالم في القرن الأخير والتي ما تزال تهزه اليوم من جهتها التطبيقية عن صور فنية تبعث إلى النفوس شعراً أكثر مما تبعث لآيها علماً ، وتدعو الناس للتفكير من جديد في الوجود كله كجموع ، وفي الفرد الإنساني محاطاً بكل أسباب الرخاء وعلاقته بهذا المجموع .

قد يكون هذا اليوم قريباً وقد يكون بعيداً . على أنه وإن بعد قرن يتخطى بعدنا جيلاً أو جيلين . وفي هذا الجيل أو الجيلين سيندفع الشرق في اقتراض مدنية الغرب اندفاع تركيا وفارس والافغان اليوم . وسيمعقب حركات الاقتراض هذه حركات رد فعل وثورات كالتى تجيء منذ اليوم بها الأنباء من مختلف أنحاء هذه البلاد . خلال ذلك تأثير هذه الحركات خوف الشرق وتحرك حضارته القديمة المتدثرة اليوم بدثر كشيقة من الأوهام . وتقوى نزعات هذه الحضارة القديمة في نفس امتلاآت بأثار علم الغرب وحضارته ووهبت من لدن القدر شاعرية ذات قوة ليست في متعارف الناس . ومن هذا الاحتكاك بين القديم الموروث والحديث المستعار تكون شرارة إلهام تتجلى خلالها كلمة الحق التي تفسر لغز الوجود لأهل الجيل الذى تقال فيه ، كلمة الحق التي

تجتمع فيها مظاهر الحضارة الغربية المستعارة وهذا الأصل القوي الثابت من حضارة الشرق التي كانت دائمة الطموح لمعرفة كل شيء الحق .

يومئذ ينفخ الشرق في حضارة الغرب بعض آثار هذه الروح ، وإذا أهل الغرب يدخلون في حضارة الشرق أفواجاً مؤمنين لا مستعيرين . وإذا الشرق والغرب يتعاونان للخير والحق . وإذا ضياء باهر يفتح أبواب عصر جديد . وإذا الغرب ينادى مقنناً : المجد للشرق الذي قد أمدنا بروح قضينا الأجيال نلتهمسه فلا نجده . والمجد للروح روح الخير والسعادة .

أحسبني أرى هذه التطورات التي أشرت إليها والتي أؤمن بها رأى العين ، وأحسب الذين تهرهم اليوم مدنية الغرب يرونها مثلي إذا هم أطالوا التفكير فيها ، وبحسبهم أن يفكروا في مبلغ شعور أهل الغرب اليوم بما ينقص مدنيته من روح يسمو فوق المادة ولا يخضع الخضوع الأعشى لمذاهب الاقتصاد ليقفوا يقيناً بأن العالم تضارم اليوم بين أحشائه حياة جديدة لا سبيل لها إلى أن تبدو إلا أن ينبعث في العالم نور جديد غير نور العدمية وهذا النور الجديد عما قريب مضيئ .. ومن الشرق سيكون مطلعاه .

الفصل الثالث

البوذية

١- الأصول

كان الآريون حين انحدروا من مضائق كابل إلى بنجاب أشبه
الناس بالعجم، على ما يصفهم هيرودوتس ، أو بالجرمان على ما يصفهم
تاسيت ، قبائل بين البدو والحضر معظم مدراء ثروتهم قطعان
الثيران والبقر ، ولهم قرى ومنازل ، وهم على علم بالزراعة ، فكانوا
كما كانت شعوب الأرمن والسيروس على حدود ما بين حياة الترحال
وحياة السكن ، يحكم كل أسرة أبوها ، ويقود كل قبيلة ملك أو رئيس
حرب . ولم يكن عندهم فرق ولا طوائف لإكليروس ، بل كان كل أب
يقوم بالوظيفة التبعية في بيته ، وكانوا ذوي أخلاق ساذجة حرة
صحيحة كمتلك الأخلاق التي يمجدها الإنسان في أصول كل شعوب ذلك
الجنس الآري . ولم يكن للأوهام الصوفية المريضة أى أثر فيهم ، بل
كانوا على العكس من ذلك ذوي عواطف كلها رجولة وشرف ،
تنصرف عبادتهم للألهة إلى طلب القوة والمجد والنصر والغنيمة .
فإن بحثنا عن الصفة الخاصة التي كانوا يمتازون بها عن باقي

(*) هذا الفصل تلخيص لترجمة الفرنسية التي قام بها الكاتب الفيلسوف
جيبوليت تين لكتاب البوذية للكاتب الألماني الشهير كوين .

الاجناس التي ترجع إلى الأصل الآرى وجدناها متجلية في تخيلهم البالغ أبعد حدود الدقة ، وأعجب مظاهر النماء — فعندهم وحدهم توجد الأساطير في هذا الصفاء وذلك الامتداد ، حتى لكأنما خلق هذا الشعب ليرى آلهة في كل الأشياء ، وأشياء في كل الآلهة . يعبدون السماء المضيئة ، والنور اللآلاء الذي يعم الأشياء وينفخ فيها الحياة . ويعبدون الصاعقة الرائعة ، والرعد المحسن الذي يشق السحب فيمك الأمطار المخصبة من إسارها . ويعبدون الشعاعين التوأمين ينبعثان من شواطئ الآفاق بشيرين بعودة الضياء . ويعبدون حررة الآفق . والفجر الأبيض ينسل من خلال الظلام قبيل مطلع الشمس ليكشف صدره أمامها كشف العروس عن صدرها أمام زوجها . ويعبدون « آنى » — وهى النار التي يثيرها احتكاك العصي بعضها ببعض — آنى . اللابسة ثياب الإبداع ، مختلف ألوانها متعددة أشكالها بديعة تعم الأرض ، تخمد وقشب وكثيراً ما تهزم ثم يعود إليها شبابها . ويعبدون الرياح والأنهار ومختلف مظاهر الشمس . وبالجملة فهم يعبدون كل ظواهر الطبيعة على حالها في نقائها وصفائها لا على صور الإنسان كما جعلها هوميروس . وإن استطيع الإنسان أن يتخيل مبلغ ذلك النقاء والصفاء قبل أن يقرأ الفيدياس ، فليست الأساطير عندهم سرّاً خفياً ، وإنما هى أشياء واضحة جليلة . بل هى تعبير وإيضاح . وإن ترى لغة أبلغ ولا أسلس من لغتهم . تعطيك صور السحاب وموج الهواء وانتقال الفصول وكل ما للسماء والنار والعواصف من أحداث . ولم تلق الطبيعة وسطاً ألين مرونة ولا

أحدن ملاءمة تظهر فيه بمختلف مظاهرها غير المنتهية ما لاقت في هذا
 الحيز . ومهما يكن للطبيعة من استحداثات ومظاهر فإن الخيال البوذي
 ليس أقل منها في ذلك . فليست له آلهة ذات شخصية ثابتة ، واسكنها
 تستحيل ويمتزج بعضها ببعض . فقارونا^(١) هي أندرا ، لأن الرعد
 هو السماء الصاعقة ، وأندرا^(٢) هي دأني ، لأن الصاعقة هي النار السماوية .
 وكل واحد من هؤلاء الآلهة هو الإله الأعلى . وليس لأحد منهم
 شخصية معينة ؛ إذ كل واحد ليس إلا لحظة من لحظات الطبيعة قدّر
 حسب حال التصور أن يشتمل صاحبه أو أن يشتمله صاحبه . لذلك
 كانت الآلهة متعددة بالغة في الكثرة . فكل لحظة من لحظات الطبيعة ،
 وكل حال من أحوال التصور قد تنتج لها وقد تصبح الصفات والأسماء
 الإلهية ، بل وصفات الصفات آلهة هي الأخرى . والشراب الذي يقدم للآلهة
 والصلوات والأدعية وكل طقوس العبادة تنتهي بها الحال لتسكون قوى
 وآلهة تنادى وتوقر ، وحيثما وجدت قوة — والقوى توجد في كل
 مكان — فالآرى يقيم لها لأعلى أنه شخص ، ولكن على أنه قوة . وهذا
 لعمري جمع عجيب بين التعمق التجريدي والإحساس الشعري ، بل بين
 الصلاحية لفهم الطبيعة والميل لتمثيلها وتصورها . ولم يثبت جنس من
 الاجناس أول قيامه ما أثبتته الجنس الآرى من هذا الذكاء الدقيق
 الحساس المتحضر لإبداع خلاق محيطه غير متناهية المستعد للانثاء
 والاختفاء تحت النماء الخصب الذي تنموه آلهته .

(١) وهو الرعد

(٢) وهو السماء

ليسمح القارىء بالتدقيق في ملاحظة هذه الصورة من صور
الذهن القديم . فإذا أضيف إليها المركز الجديد الذى أعده الغزو
والطقس للشعوب الآرية إذن للاحظت بالسيبين الشاملين كل ما سواهما
الحاويين موجز شأن الجنس الهندى وفكرته ، وإذن للبست القوى التى
لن تزول ، والتى توجه زوينة الحوادث الإنسانية والإرادات الصناعية
البشرية والتى تقمى النظمات وتبعث الديانات وتنشر الأفكار وتقرر
الأخلاق فلا يستطيع حادث وقفها ولا يقدر مجهود شخصى على قهرها ،
التي تقضى على مئات الملايين من الخلاق بالذل وفساد الخلق والخيال
والياس ، وإذن يحيط الإنسان بموقعة الحياة الهندية العظيمة الفظيعة .
وما كان لنا أن ننبهج هنا ابتهاج سيديون بمنظر المذبحة التى خلطت
ما بين أشلاء جيوشى ما سليا وقرطاجنة ، فلسنا من الرومان ، بل نحن
رجال يأخذنا الإشفاق كلما فكرنا فى مصيرنا وفيما قدر لنا . ولو أن
شيئاً بالغا فى العظمة يدعونا للتفكير فيما قدر لجنسنا أن يحتمله
لسكانت تلك المأسى الصحيحة غير الملفقة مسرحها نصف قارة ، ومداهها
ثلاثون قرناً ، وأشخاصها قوى القدر المحتوم تتطاحن أرواؤها خلال
بؤس تسعين جيلاً من الأجيال الإنسانية ، ودموعها تنهمر من غير أن
تهدا إلى غاية .

تقدم الآريون على مهل من السند إلى الجنج وجعلوا يخضعون
لحكمهم السكان السود ذوى الشعر المستطوح . ولما كان هؤلاء الهمج
الذين احتلوا شبه الجزيرة عرضة لأمراض جلدية قضيعة ، وكانوا يعبدون
الشمالين وشياطين الهواء ، فقد عاملهم الغزاة كأثمهم قطع من الحيوانات

الخديسة ، وظلت الحروب أزمنة طويلة استقر بعدها القادمون إلى عصر
 يشبه عصور أوروبا المتوسطة التي عقيت غزو قوط الأربك ولبارودي .
 البرات وأفرنجة كلوفيس ، وأحلت بينهم حياة الاستقرار محل حياة
 الترحال ، وقام النظام البطركي (الأبوي) مقام الإمارات الحربية
 وتميزات الطبقات . فجاء فيما بعد طبقة الأشراف والعالين طبقة الجنس .
 الخديس المغلوب من (الكودرا) — وهم جماعة العميد من الزراع
 والصناع والعمار الذين خضعوا للغلب . وجاء من دون هؤلاء
 الأجناس المطرودون والهمج المتوحشون الذين امتنعوا على الجمعية
 الجديدة واحتموا منها بالمغائر والجمال والمستنقعات ، ثم انقسم
 الجنس الغالب بعد ذلك بقوة الظروف وانحط بمجموع الأمة من
 العاملين إلى مركز دون مركز الأسر المحاربة التي لزمتم التمرن على
 الأسلحة ، ودون مركز الأسر الدينية التي أخذت على عاتقها
 الاحتفاظ بطقوس العادات وأدائها . وقد أدى هذا النظام إلى
 انفصال الأعمال ، كما أدى الغلب إلى انفصال الأجناس وبدأت الفرق
 تتكون وجعلت الفوارق بينها تقوى وتعظم . ثم حدث من بعد ذلك
 حادث حاسم أدى إلى تقديسها ، وبالتالي إلى تخليدها ، فقد قامت بين
 الفرقتين الرئيسيتين : فرقة البراهمة وفرقة الشاترية ، حرب استعلاء
 كالحرب التي قامت بين الجلف والجيلان ، ثم انتصر فيها البراهمة بسبب
 استنادهم إلى الطبقات الوضيعة . وكان نصراً أتم بما حازه الباباوات
 ضد الهوهنستوفن . وقد ترتب على ذلك استئصال الشاترية لولا أن
 التجأ القساوسة لاستبقاء فرع عقيم منهم مخافة أن يبتلعهم الفناء بعد

لأذوقت جمعيّتهم المتداعية على حافة مائلة لتتأرجح فيه . وقد أصبح أهم مال للوك والشارية من وظيفة أن يباركوا البراهمة حماية لهم ، وبذلك طبعتم الجمعية بالطابع الديني وأصبح انفصال الفرق أمراً مقررأ ، وانقلبت الأنظمة المدنية قواعد دينية ، وأخذت الحكومة الشكل الديني ، والعقل الديني كذلك ، وظلا محتفظين به إلى وقتنا هذا .

ولتفوق البراهمة هذا أسباب مختلفة ، منها : تغير الخلق الآري تحت تأثير الطقس . فإن شمس الهند قاسية فظيعة لا يطيقها أحد ورأسه . عار إلا السكان الأهالي سود الجلود . فإذا جاء تحت هذه السماء المحرقة شعب أجنبي أت من بلاد معتدلة ، بل باردة رأيت لا يطيق المراتة الجسمية ، بل يبدأ عنده الميل للراحة والكسل ، وتتلأشى عنده حاجات البطن والمعدة وتفتر عضلاته وتصبح أعصابه سريعة إلى التهييج ، وذهنه أميل إلى التأمل والحلم . ينتهي ذلك بتكوين هذا الشعب الغريب الذي يصفه السائحون اليوم لنا : حساسية إنسانية مرتعشة ودقة في التصور عجيبة ، وروح واقفة عند حدود الجنون ، قادرة على كل اضطراب . وكل ضعف وكل إغراق ، مهياة أن تنقلب أمام ألقه الصدمات ، مجاورة للأفن والهوس ونوبات الجنون ، وخيال يمجج بأحلام فظيعة . تفتر الرجل وتطويه على نحو ما يطأ الرجل الضخم الدودة الحغيرة . ولم يجد الدين في الطبائع الإنسانية مثل ما وجد من الصلاحية في هذه الروح لينمو ويتزعرع . لذلك نما غراسه وتأصلت جذوره وامتدت فروعه وانقلب الطبع الشعري إلى نظر باطني أساسه وحدة الوجود .

فتضامت الآلهة الكثيرة المتفرقة تحت حكم ثلاثة آلهة ذوى سلطان هم : دفاروناء فى السماء ، دواندرا فى الهواء ، دوانى ، على الأرض . ومن وراء هذه الآلهة الثلاثة ظهرت الروح الكبرى التى تعمل بواسطتها لإحياء الأشياء . وتلك هى الشمس . ثم يستمر التفكير التجريدى العميق فى سبيل تقوية الطبيعة الحارة الدائمة التجدد والسيولة حتى يستبعد هذه الشمس المحسوسة ويستظهر القوة العليا من خلال الأشكال المنغيرة ويقرر : أنه لم يكن فى البدء إلا الموجود غير المحدود ، الموجود النقي غير ذى الشكل ، وأن كل شىء كان مختلطاً ، وأنه كان مطمئناً فى الفراغ ؛ وأن هذا العالم نتج بقوة فكرته . أما عن ماهية هذا الموجود فقد وصلت المثارة والجد بالابحاث الفلسفية لا نزاعه من دائرة الطبيعة المحسوسة ووضعه فى سلطان القساوسة . فقد كانت النار التى أوقدها البراهمة واستبقوا عقيدتها من بين الآلهة القديمة أيضاً ، لكن هذه النار بالرغم من عظمتها كانت محسوسة بحيث لا يمكن أن تكون الموجود العام النقي الطاهر . لذلك أخذ أحد أسمائها — البرامانسيائى ، أى ملك العادة — فصار إلهاً مستقلاً غير مادى ، وصار يزداد أهمية شيئاً فشيئاً حتى اشتمل كل ماسواه . ثم برز من هذا الآله برهمة جديد أبعد عن المادة وأعرق فى جوهر العبادة التى أصبحت الموجود الأول لاشكل له وهو لسبب شىء مشتمل . وكذلك اختلطت العبادة بمبدأ العوالم وبالإله الأعلى . وسبب ذلك أن التضحية والكلمة المقدسة والعبادة لم تكن عند هذه الأذهان المهتاجة بمجرد دعوة والتماس ، بل كانت قوة ظاهرة مفسلة . وقديماً

اعتقد هؤلاء الناس أنهم يلزمون الآلهة الطاعة بواسطة هذه العبادات .
و بالغوا في تصورهم لذلك حتى حسبوا أن ليس للعبادة دافع . لذلك
آلهوا « موته » البناء والعصى ، كما ألهوا كل لحظة من لحظات التضحية ،
و وصلوا في تصورهم إلى جعل القوة التي يخضع لها العالم بأسره ماثلة
في الفكرة المتوترة . وقد جاء على لسان الملكة في إحدى أغاني ريج :
« لأنني أنا الملكة وأول من يستحق التكريم . ففي مترا واندرنا وآني
والإسفانيين وكل من سواهم . وأنا الحاكمة بالآلهة في كل شيء . والنافذة .
على كل شيء . بل أنا مبدأ كل الموجودات وكالريح أهب من كل مكان » .
أما ساد هذه الكلمة وتلك العبادة فهم البراهمة ، وهم بذلك الآلهة على
الأرض . ولقد قال برهمة في إحدى پوراناته : Pourans : إنه
يأكل بفمهم وأن لا أحد يعدلهم ، وأهم الآلهة ، لذلك هم في الذروة من
كل الأشياء . وظاهر أن سلطانهم بين مثل تلك العقائد سلطان باق .
إلى الأبد .

والآن فلننظر في مجموع طريقتهم (مذهبهم) من أفكار ونظم ، حتى
ترى ماذا تكون الحياة تحت تأثيرها . فبرهمة الذي هو روح الأشياء
والموجود غير المحدود ينمو ، وتنمو هو العالم . وهذا النمو ليس منفصلا
عنه ، بل إن برهمة نفسه يسيل ويتشروى يخرج من نفسه خروج الجدول من
النبيع ، والشجرة من البذر ، والنسيج من العنكبوت . لكن هذا العالم
الذي هو الذات برهمة ليس إلا ذاته منقوصة مشوهة ؛ لأن ابتعاد المادة
الأصلية عن أصلها أفسدها حتى صارت درجات تحولها المستمرة درجات إلى
تزايد الفساد ، فبينما ترى الآلهة والنور في الصحف الأولى إذ الصف الثاني .

فيه الناس والشهوات ، وفي الصف الثالث الحيوانات والنباتات والظلمة والمادة . وهذه المظاهر المتعاقبة من برهمة ليست إلا برهمة مهدوداً مضطرباً ساقطاً مستمراً مع تحوله في سقوطه وتدركه ، فالعالم إذن فساد ، والحياة شر ، والأرض قرارة بؤس وتعس . ولا كمال ولا سعادة إلا في الوجود الجامد الخالي . وخير الخير لكل مخلوق أن يُيعود فينغمس في برهمة الجامد Immeuble الذي خرج منه .

هذه العقيدة تبعث بلا شك على اليأس المبرح وتدفع إلى النفس التفرز العام من الحياة ، وتدعو إلى إفناء الشخصية الإنسانية إفناء تاماً . وقد كان ذلك هو الشأن في أوربا حينما قامت مثل هذه العقيدة عند الإسكندريين والأغنوطيين وما سواهما من الطوائف المتصوفة وليدة الضغط الروماني . على أن الذي زاد الطين بلة أن امتزجت بهذه العقيدة الهندية عقيدة شر منها . تلك هي أن الحياة ليست شراً وحدها ، بل هي شريهوى الإنسان إليه من جديد بعد موته . فإن الأرواح تنتقل من جسم إلى آخر وفي مختلف أنواع الأجسام من حجر ونبات وحيوانات وآلهة ورجال بلا انقطاع ولا سكون مدى ملايين القرون . من أرقى الدرجات إلى أسفل الدركات تقذف بها خفاياها على مقدار دركات تلك الخطايا في أتعس الأحوال وأدنسها في ثمان وعشرين جهنم تشقى فيها يصنوف من العذاب رتبته وهزبتها وأطالتهأ أوهام أشقياء وجلادين ، ففكرة الشر السكائن المغروس في أعماق قلب الأشياء المتضاعف المنتشر في كل ما هنالك مما يحيط بالحياة الإنسانية ، المتعاطم إلى ما وراء كل الحدود بما أبدع له الخيال الهائج المضطرب من

مبتكرات الفظائع ، تلك هي الفكرة السائدة التي تثقل كاهلهم في الحياة النظرية وتودى بهم في الحياة العملية إلى شرور تتوارث معها جسامه وعظماً .

وسبب هذه الفكرة أن الاستبداد هناك تام شامل يحول من كل النواحي دون العمل ، ويشل الإرادة . وقد انقلبت الملكيات الحربية أثناء هذا التوتر العصبي العام إلى استبدادات مطلقة ، وأدخلت صنوف التعذيب والإلزام والتخريب وكل ما إلى ذلك من مفاسد الحكومات الشرقية . وقامت الفوارق بين الطوائف منيعة لا يمكن تخطيها ، وارتبط كل بحظه ونصيبه وكأنما شد إليه بأغلال من حديد . زد على ذلك أن كل لحظة من لحظات الحياة وكل جزئية من جزئياتها نظمت حتى لم يبق للإنسان حرية في حركاته لشدة ما قيده الاستبداد الديني وغلله . وهذا الاستبداد أضيق خناقاً من الاستبداد غير الديني . قطعت المخاوف الناعسة الأوامر والنواهي التي لا عدد لها والمقدسة كلها في النفس المضطربة . ومن هذه الأوامر ما يرتب دقائق العقيدة وطقوسها ، ومنها ما ينظم الأدعية والصلوات والقرابين والغسل والوضوء والرغبات واليخور ، ومنها ما يعين ملابس وأخلاق كل طائفة . ومنها ما يرسم الزهاد والجيشة والنوم والملبس وخلعه والاستحمام والتطيب وسائر الوظائف الجسدية . فهذا كله يذكرنا بالأعمال الكثيرة التي كانت تشغل القسيس في ديريه كل نهار أيام القرون الوسطى حين كان من الخطيئة أن يسرع الإنسان السير أو أن يرفع بصره إلى الكنيسة . وقد كان الضغط لدى البراهمة

ولكنه كان مضاعفاً مئات المرات حتى لا يعد له شيء .
وما كان لذاكرة أن تسمى مختلف الأوامر التي لاحصر لها . ثم
كان كل ترك لأي من هذه الأوامر خطيئة . وما كان لأحد
مهما يبلغ من دقة انتباهه أن يجتنب موجبات الدنس . وكان كل دنس
خطيئة . فلم تكن ملامسة جملة المائت هي وحدها التي تدنس المؤمن ، بل
كان يدنسه كذلك بمجرد الاقتراب من أى مكان وضعت فيه أشلاء
إنسان أو بقايا حيوان أو عظام أو شعر أو أظافر أو قدر كما كان
يدنسه استعمال إناء غير طاهر وتنفس من شرب الخمر أو أكل الثوم .
ويقابل كل خطيئة تفكير وجوب الطهر بالماء وبروث البقر وتلاوة
الادعية وأنواع من تعذيب الجسد تبلغ أحياناً من الفظاعة أكثر مما
بلغه تمثيل قسسا أنفسهم . فمن قتل بقرة خطأ لزمه ارتداء جلدها
والبقاء ملتصقاً إياه والإقامة في آخر مرعى رعت فيه مدى ثلاثة أشهر
ليل نهار . ومن شرب العرق عمداً لزمه أن يشرب من سائل يغلي حتى
تتحرق أحشاؤه وحتى يموت . فلعلك تستطيع وقد رأيت ذلك أن تحكم
على مبلغ ما كان ثبت من الفظائع الدينية . فإذا ذكرت إلى جانب ذلك
أن عندهم ثمانية وعشرين جحماً مفزعة يهوى إليها كل من وقع في
خطيئة أو أهمل أمراً أو لم يتب توبة كاملة أو نسي أن يسكفر . ثم
هو لا يخرج منها إلا ليتنقل تنقلاً متعوساً طوال الدهر من جسم إلى
جسم ليكون يوماً دودة وآخر ثعباناً أو حشرة أو رجلاً زنياً .
وإذا ذكرت المخاوف الدائمة التجدد وآلام تلك الأوهام الهائلة المحتشدة
إذن لفهمت الرغبة العظيمة في الخلاص الأخير تدفعها ثورة

اليأس واندفاع الصيحة المضغوطة الثائرة .

وكيف السبيل إلى هذا الخلاص ؟ لقد بلغ من مسيس الحاجة إليه أن تعلق به رؤساء تلك الجمعية وأن أوضح القانون طريقه . قال ماتو : على البرهمنى متى لاحظ أن عضله ضعف ، وأن البياض قد انسل إلى شعره ، وكان قد رأى حفيداً له . أن يهرع إلى الوحدة هو وزوجته . ثم ليرض نفسه على الحرمان وتعذيب الجسم . ويلزم العبادة والصوم والسير ويعرض جسده عارياً إلى قوارص الطقس إبان فصل الأمطار ، وليقف بين أربع نيران تحت الشمس المحرقة أثناء الفصل الحار ، ثم ليعلم في نفسه كل شهوة وكل شهية . فإذا تم له ذلك ترك زوجته وعاف حبيبته ولم يأكل إلا مرة كل يوم وعاش من إحسان المحسنين وعاش من ذهنه كل إرادة وكل فكرة محسوسة . ومتى صار كذلك بسيطاً تقياً طاهراً أصبح خالصاً من الشر . وذلك لاشك دواء يعالج به المرء نفسه . فإن الإيمعان في الجود يقتل الحس ، والإيمعان في التلاشي يقطع على الإنسان سبيل الألم . بعد ذلك والآن تدعو إليه الوحدة من التأمل ينفثح طريق جديد تقوم عنده المبادئ التجريدية على أساس من النظائر الفلسفي ، فينقلب المتصوفون فلاسفة وتتصادم فرق المتكلمين فيذهب بعض بالاتفاق مع العقائد القائمة إلى أنه ليس إلا موجود واحد هو برهمة ، وأنه غير محدود وأنه طاهر وأنه لا صفة له ولا شكل وأن الخلائق المختلفة ليست إلا تقلباته وتدرجاته . ثم يتخطون العقائد إلى أن العالم وهم ولا شيء موجود أصلاً خارج برهمة . وإلى أن العلم إنما هو معرفة عدم (العدم) الأشياء ، وإنما ينتهى بالعقل تأمله إلى عدم الاعتقاد .

بوجود خاص له ثم لا يرى إلا الموجود الخالي لا شيء وراءه ولا شيء خارجاً عنه . ويقوم إلى جانب هؤلاء المفكرين السنين مفكرون أحرار يتفقون معهم في أن الخلاص هو الغاية ، وأن الوسيلة إليه هي معرفة الوهم . لكن الأولين يخرجون الإنسان من نير الطبيعة بتقريرهم أن الطبيعة لا وجود لها ، في حين يخرجها الآخرون بتقريرهم أن الروح جوهر بسيط نقي لا سبيل للطبيعة عليه . فالأولون يعدمون الشريانكار مسيئاته في حين يعدمه الآخرون يانكار المجرى الذي يصل هو إلينا عن طريقه . لذلك كان خلاص الروح عند (الفدتن) انقاسها في الوجود المتشابه وعند (السنخيا) برجوعها إلى نفسها — هذه هي التأملات التي تزع إليها المعتزلة قبل مجيء بوذا . وإن السائح الذي يرى هؤلاء الناس على ما يصفهم الشعراء وقوفاً تحت شجرة من أشجار الموز ناحلة أبدانهم منقطعة حركتهم ثابتة عيونهم محتبسة أنفاسهم ليرى مشهداً قذا لا مثال له . فالفلسفة لم تكن هنا مثلما كانت عند اليونان ترويحاً عن الذهن وتسريحاً للفكر المطلق المنظم . بل كانت على خصبها وسعتها في التفصيلات والتحليلات وفي دقة النظر ذات غاية ترمى إلى عمل من شأنه تحويل الإنسان نفسه بنفسه والجهد لذلك جهاداً عظيماً يصل بالذهن إلى حدود الخيال والهوس لتركزه وثباته عند نقطة واحدة معينة ودوام العودة إليها مدى الشهور والسنين . وإنك لتجد عند المتصوفة وسائل ميكانيكية لإثارة صور الهوس في النفس . ولا عجب فتلک نتيجة المواقف العنيفة الطويلة المدى . فإن الإنسان يفر من الألم كما يسيل الماء من فرق المنحدر ، فإذا زاد به الألم وبلغ

منتهاه استعاذ منه إلى كل ملجأ ولو كان قتل الحس بإتلاف الأعضاء
 إتلافاً منظماً ، أو كان الجنون بإتلاف عقله كذلك . ولقد كان من
 واجب كل من ارتفع بعض الشيء عن سواد الرهط الذي يعيش فيه أن
 يبحث عن ملجأ يحتوى به . وكان كل حكيم راجع العقل يخلق لنفسه
 ملجأ ويدعو الناس إليه . وبذلك تكونت طائفة كبيرة من الفلاسفة
 والديانات والأنظمة والنظريات حتى ظهر أخيراً من جمع السكل
 ووجههم وجهة الطريق الحق : إلى السلام .

(٢)

مميزات البوذية

لا يحرك الإنسانُ الناسَ بفكرة ولكن بعاطفة . وقد تدغمهم أعماق النظريات وأدقها نقالا ثم تخرجهم عن طوقهم نصيحة مبتدلة . وبعض العبارات المتداولة التي صرنا لا نهتم اليوم لها ظهرت في الماضي اكتشافاً معجزاً قدس صاحب الوحي به . والجماعة المتألمة الطامحة كالرجل الطامح المتألم ، تأتبه بما شئت من نظريات متناسكة وأنسجة بدیعة من المضاربات الفلسفية فتزلق هذه الشروح عن ذهنه دون أن تحترق حجب نفسه وتراه يستمع إليك لحظة ثم يحيمك تحية الرجل الكيس ليعود فينغمس في ألمه ، على حين ترى كلمة متداولة تقال بلمحة مؤثرة تستدر دمه وتدفع به إلى أحضانك مسلماً زمامه وإرادته . وكذلك الشأن في أزمت الجنس البشرى . ترى الناس جميعاً ينتظرون كلمة معينة هي وحدها التي يستطيعون فهمها . أما الكلمات الأخر فتسربهم وكأنها جلبة سخيصة تطن مضطربة حول آذانهم ، ثم لا يكاد يهمس بالكلمة المنتظرة هامس حتى ترى الناس جميعاً وقد أصاخوا لها وتلقوها وتناقلوها وأكبروها باجتماع أصواتهم جميعاً ، ذلك بأنهم المقابل لحاجة عظيمة متغلغلة في نفوسهم ، والأثر لا طور عام خفي ، ومظهر مجموعة ضخمة من النصورات والجهود المتسالة خلال قرون عدة في مختلف طبقات الجمعية وضعيها ورفيعها ، والآخذة بالآفكار المختلفة . . . فهي في ظهورها كالنبيح يشور متى لاقت ضربة الجس

طبقات الماء المضغوط . ولقد زعم الزاعمون أن محمداً كان ملفقاً — حاشاه — ألف ما بين الإنجيل وآراء الفرق التي عاصرتة . وأن لوثر إنما كرر عبارات ضخمة ما سبقه إليه جان هس وفيكلف ، لكن الحقيقة أن هؤلاء إنما نطقوا في عصرهم وأمتهم بالكلمة الفذة ونطقوا بها لا بشفاهم ولكن بكل قلبهم وبكل كيانهم ووجودهم . وذلك ما جعل لكلامهم قوة وإصلاحهم ثمناً . وذلك هو ما يجب أن يبحث عنه في أحاديث ساكيا موتى وإصلاحه .

تنقل الأساطير أنه كان في السموات بين الآلهة ، وأنه اشتمل على منتهى الفضائل برحمته وإخلاصه وتقواه ، وأنه جمعها في متعاقب حيواته (١) ثم إنه اعتزم آخر الأمر الخلاص الموجودات الحية أن يهبط في أحشاء امرأة فأجال طرفه في العالم ثم اختار مياديني وهبط إليها — ولم يمسه رجل — في شعاع مضيء ذي خمسة ألوان . ولما حان الحين ولد وتربى وزوج في حجر الملاك الذي كانت مياديني زوجته . لكنه لما بلغ التاسعة والعشرين — وكان قد ذاق كل لذائد الحياة — اختمرت أفكاره العظيمة فشهر بعطف على الخلائق وفكر في نجاتها . وسبب ذلك أنه رأى يوماً في طريقه وقد خرج من القصر إلى إحدى الحدائق هرماً مقوس الجسم أصلع الرأس يجعد الوجه مرتعش الأطراف . ورأى في مرة أخرى مريضاً لا يرجى برؤه مهملاً أمره مغطى جسمه . ثم رأى في مرة ثالثة جثة بالية فدأكلها الدود ، فأنعم النظر في هذه الآراء وخرج من تفكيره إلى أن الشباب والصحة

في الحياة ليست شيئاً مادام يأتي عليها الهرم والمرض والموت .
فأخذته الرأفة بحال الإنسان وجعل يبحث عن دواء لهذه الأمراض .
العضال . فلما خرج مرة رابعة رأى متسولاً متديناً دله جده مظهره .
وبادى كرامته على طمأنينة نفسه . فاعتزم للحال أمام هذا المنظر أن
يعتزل العالم . ولقد وضع أبوه حراساً حول القصر ليحولوا دون تركه
إياه لكنه أفلت منهم واحتمى بالوحدة وظل سبع سنوات يعالج أفسى
أنواع التوبة ويعانى الجوع والعطش والحر والقر والمطر ولا يطعم
كل يوم إلا حبة من سمسم . ثم رأى آخر هذا الزمن أن الاستماتة
تغشى على الذهن بدل أن تربيته ، فطعم حتى عاد قوياً جميلاً وذهب
إلى مكان نذر أن لا يخرج منه حتى يصير (بوذا) . هنالك جاء إليه
« مارا » أمير هذا العالم وإله الحب والخليفة والموت فهاجمه بكل أنواع
الغواية مزججاً إياه بدعوة سلاحه ، ومغفوا إياه بحسن قتياته ، لكن
القدس ظل مطمئناً فلم تزجه الخواف ولأنه يرى كل الأمور حلماً وهماً ،
ولم يستغوه الجمال ، لأن أجمل الأجسام لم تكن في نظره إلا بعض فقاقيع
الماء والخيالات الزائلة . عند ذلك انهزمت الشياطين وبدأ النور الداخلى ،
فذكر تعدد ميلاده السابق وميلاده كل الخلائق فأحاط في نظرة
بالعوالم الهائلة التي لا عدد لها ووقف على السر الأبدى لكل الأسباب
وكل النتائج ، واخترق حجب مظاهر التطور والتغير وعرف
العدم الذى هو حقيقة مادة الأشياء ، ووصل إلى المبدأ الاسمى
المؤدى إلى السلام .

ويتكون هذا المذهب من حقائق أربع : فالوجود ألم لا يستدعى .
الهرم والمرض والحرمان والموت . وإنما يجعل الوجود ألماً تلك الرغبة

الدائمة المتجددة والتي تجد أبدأ ما يحول دون ما ترى إليه من الاتصال بالأشياء والتعلق بالشباب وبالصحة وبالحياة . إذن فيجب إعدام الرغبة لإعدام الألم ، وإعدام الرغبة يجب أن تتخلّى عن أنفسنا وأن تتخلص من ظمئنا الموجود وأن لا نشعر بانجذاب نحو أى شيء ولا لآى موجود ، تلك هى النظرية الأولى التى لم يتعدها ساكيا موثى على الأغلب . لكن التعمق فى البحث يكشف لنا عن فكرة تجريدية عميقة كانت أساس ما تلاها ، ولم يفهم المفكرين الجادين الذين جاءوا فيما بعد استخلاصها . تلك الفكرة هى أن الحكيم يصل إلى التخلّى والجنود حين يرى أن كل موجود يهلك لأنه مركب وأن هلاكه دليل على أنه ليس إلا مظهراً لا قوام له ولا قوة ، وظاهرة سائرة إلى العدم كالزبد يكون على سطح الماء ثم يفنى ، أو كالصورة التى تبدر فى المرآة . ومن ثم يصل إلى الاقتناع بأن الأشياء لا وجود لها وما دام الموجود لا وجود له فالميلاد لا وجود له . وياعدم الميلاد ينعدم الهرم والموت والبؤس والآلام والأحزان والقلق والمشقة ، وبهذه الوسيلة ننعدم كومة الأحزان المسكدة . فإذا وصل الإنسان إلى هذا الشعور بعدمه تعداه الألم ، لأن الألم ليس إلا دخاناً كالوجود فى التلاشى العام . وعندئذ يتحوّل الإنسان ويصبح ولا حكم للحوادث عليه ، ويطمئن الطمأنينة الخالدة إلى فكرة الفراغ الذى هو أساس كل شيء وكنهه . وبذلك يصل إلى الترقانا ويصبح بوذا .

ذلك هو الطريق الفلسفى . لكن ثمة طريقاً آخر عاماً وجد التعساء فى بابهِ الواسع مدخلاً للاحتواء بالديانة الجديدة التى كانت أكرم

الاشياء بملاءمة للأرواح يومئذ ، فإن تخلى الإنسان عن نفسه خلق
 لضيق بالنفس إذا جدد ، وعندئذ تفتى الأنفة والأطماع والشهوات
 الشديدة المتحاربة أو الآخذة المرء عن نفسه حتى لتدوس الرجل بقدمك
 فلا يغضب ولا يفكر في القيام ، ويحسب طبيعياً بعد ما سقط أن يبقى في الأرض .
 فإذا حدثه يحدث عن نفسه خيل إليه أنه إنما يحدثه عن سواء لأنه لا يعياً
 بذاته . ثم هو لا يهتم بالاشياء الجميلة أو البراقة ، بل يبقى أمامها في
 جوده وهموده بسبب ما أصاب إحساسه من البلى وكذلك تراه على
 أتم استعداد لقبول مبدأ نكران الذات العام . فإذا قال بوذا :
 « اقتل الشهوة في نفسك ، كانت الشهوة وقد انعدم من قبل جلها
 وإن قال : « اقطع تلك الصلة الأتانية الملتزمة التي تدفعك للتمسك
 بالاشياء » ، فإذا البؤس وقد جاء على آخر خيوط تلك الصلة . ولا
 عجب — والإنسان في تلك الحال يوحى بأمره بالجهود والاستكاثرة
 وأن يستمع لمثل هذه النصائح . أمح من نفسك الكبرياء والحسد
 والغضب وابتعد عن ملاذ الحس واقع فكرك — وخير أن يجمع
 الإنسان نفسه من أن يجمع نفسه ألف مرة رجل آخر — وكما ثبت
 الصخرة أمام العاصفة ، يجب أن لا يتأثر الحكيم بالمدح أو بالنم —
 واحكم نفسك ولا تقاوم ولا تدافع عن نفسك ودع نفسك لتصاريف
 القدر وتخل عن نفسك ولا تهتم أبداً لما يثيرها . وقد التفت ثعبان حول
 أحد العمال فأمسك العامل مسئته ليدفع عن نفسه ثم ذكر أن القتل
 محرم عليه وألقى سلاحه . ووهب ابن المليك فتانتارا كل ما يملك
 لأول سائل غير مستحق ذهباً ولا عبيداً ، بل ولا أولاده الذين

غذاهم من دمه ، فلما فر الأولاد وعادوا إليه وهبهم ثانية ثم رآهم بعينى رأسه على أثر ذلك يجلدون بالسياط . وتلك هى الأمثال التى يخطب بها من أعلى المنابر الى اليوم من يدعون لتقليد البوذيين . وجمدير بالإنسان إذا وصل لمثل هذه الحال ألا يكون إنساناً وأن يكون حجراً يستطيع احتمال كل شيء ولكنه يعجز أن يحب شيئاً .

وفى هذا الاعتزال التام يحمى الإحسان منبته . لذلك لم يكن الخلاص الذى سعى إليه ساكيا موني هو خلاص نفسه وحدها بل خلاص الموجودات طراً . وقد كان يفكر فى أمرها مثلبا كان يفكر فى أمر نفسه . وإنما هو خلاصها الذى أدى به ليعود بعد اتجاهه بكل نفسه غلصاً للسماء فينغمس فى قراره آماساتنا وشقوتنا . بلى ، أنت يامن أحطت الناس بالنعيم وشمائمهم بالعناية ثم أصبحوا لك جلادين وقتلة فغفرت لهم . لميه سيدنا . لقد عطفك حينما كنت دباباً على رجل ملاء اندفاع ماء الثلوج فزعاً فأخذته وأغدقت عليه من جذور الشجرة وفاكهتها وأحطته بكل صنوف العناية ثم ما لبث أن عاد ومعه رجال يريدون قتلك فغفرت له . فإذا كان ساكيا موني يسعى فى هذه الساعة كذلك لسلامه فما ذلك إلا ليرينا طريق السلام . ففكرته فى الألم تشمل آلام سائر الناصر وفى قرارة حزنه يستكن العطف على من سواه . والعطف على الغير هو الكلمة المرجوة . هو آية الوقت والنبا العظيم الذى سيرفع أولئك البؤساء من كبوتهم ويعزيهم عن مصائبهم . وهو الذى كانت تنتظره كل تلك القلوب الكبيزة أو البائسة .

فإن الإنسان إذا وصل من الألم المبرح إلى أقصى غاياته وسقط إلى الدرك الذي لا صعدة منه نحمد نشاطه وتلاشت فيه شهوات الرجولة ، وهبطت روحه الرقيقة ونظامه العصبي إلى مواضع الاستسلام وعدم المقاومة بسبب ما أصابها من المهانة ونضب دمه لكثرة ما أريق منه وهامت على شفاهه المصفرة ابتسامة ضعيفة مكتئبة ثم أصبح لكثرة ما تألم فلا يفكر في الألم فتسى نفسه وأهملها ، هنالك تراه وكثيراً ما يصعد إلى قلبه صوت رقيق عذب مؤثر ونرى ذراعيه وقد هجرتهما قوة النضال يجدان بقية من القوة يمتدان بها نحو البؤساء الذين يكون إلى جانبه . وهذه الحركة هي التي تهز القلوب وتحتسك في الأفئدة وتبلغ بالنفس مكان النجاة : ولعمرك ماذا تهمني الحقيقة المجردة أو الحبيج الدامغة بعد ما انقطعت عن الرغبة وعن الأمل ، ثم ماذا تهمني المضاربات النظرية العالية ، أو كيف في أن أجاهد مع الجماعات الشيطنة بعد ما أصبحت عاجزاً عن الوصول إلى فكرة وعن القيام بعمل ؟ كل هذا إنما للأقوياء لا للأمثالي العجزة الضعفاء . وكل هذا شديد وشخصي ضعيف فلا أطيعه بعد أن برحت في الآلام حتى تركت العناية بنفسى . وإن أجد ضماداً للجراحى في تطبيق مذهب معقد رواقى تطبيقاً دقيقاً ، وإنما ضمادى أن تمر بي يد إنسانية مرّاً رقيقاً يجعلنى أعتقد أن نمت من بين سائر إخوانى من يهتم بى ويرجو دوائى ، وأن أرى معونة إخوانى وتعزيتهم من واجباتى . فالشعور بهذا الإشفاق وتلك المودة وبهذه المراهم المشتركة للمجتمعة هو الذى يسير بالناس وبالخلايق طرأ نحو الطمأنينة والسلام ، وذلك هو الضماد الشافى . ولقد

نشرت أنانية البرهمي والرواق حول الحياة الإنسانية جوا بارداً
 محملاً بشلوج الشتاء فجاءت هذه الريح الدافئة فأذابت الثلج في ألف
 موضع منه وأعادت إلى أعضائي المتجمدة المألومة حركتها . ففي لحظة
 ولد « بوذا » قامت بنفس كل الموجودات أفكار المحبة والتعاون وشعر
 بعضها نحو بعضها الآخر بعواطف الأبوة والأمومة . ثم انقلبت
 الحوائث القائمة ما بين الفرق والطوائف والأمم وأسا على عقب ،
 ونادى بوذا إلى سلام الناس جميعاً من ملوك وعبيد وبراهمة وبغايا
 وطهر وأرجاس ومواطنين وأجانب رجالاً ونساء . ولانبثت رسله في
 التبت ومنغوليا وفي آسيا كلها لهداية عباد الوثن ، وكان الفقراء
 والوضعاء أفضل عند برهمية بدليل ما جاء في نصوص قديمة : « ليس
 هيناً أن يصل الكبراء والأصاغر إلى حظيرة السلام . ولكن هذا
 الوصول أكثر مشقة على الكبراء منه على كل من سواهم . ولقد نادى
 صاحبه المفضل بغياً وأراد أن يشرب من يدها غير معتبر في لمسها
 ما ينجسه . وكان من بين المستمعين إلى بوذا كناسو الشوارع والمفلسون
 والشحاذون والشيوخ الذين هجرهم أقرباؤهم وضعاف العقول والمقطعة
 أيديهم وأرجلهم والبغايا والغانيات والبنات اللاتي يئمن في القدر ، بله
 اللصوص والقتلة . وكذلك كانت كل الرسوم الشقية أو المستبد بها
 تنحى بين يديه رجاء نفحة روحية تنالها . وكانت تعاليمه توافق مزاج
 هؤلاء السامعين . فكان يعلم في الطريق ويكلم أتباعه في الأمكنة العامة
 ويقص قصص الحياة السابقة بلغة سهلة بسيطة ، ويحدث عن الخطايا
 وعن جزائنها وعن أعمال الخير وعن ثوابها . كل ذلك بلا نظريات

ولا فلسفة ولا مذهب ، ومن غير مطالبة بأى بحث أو تقرير أى عمل . بل كان كل ما يطلبه طمأنينة القلب وسكينة وأُن يفكر الإنسان في نقائص نفسه لا في نقائص سواء ، وأن يقابل المساءة بالدين ، وأن لا يقتل أحداً بل حيواناً ولا عدواً ولا مجرمًا وأن يحتمل الشر ولا يردّه ، وأن يتساعج مع كل مغايرته في العقيدة حتى الهراطقة ، وأن يكون برأ محسناً حتى إلى الأنعام — وبديهي أن في هذه التعاليم ثورة تامة على العوائد والأخلاق أقامت على أنقاض شهوات الناس القديمة التي لم تترك أمامهم إلا الهمود والفراغ ، أملاً أحياء في أعماق نفوسهم قوة دافعة نحو العمل .

بعد خمسة قرون من ذلك العهد قام في الغرب إخوان غزاة الهند بمجهود يشبه مجهود هؤلاء الغزاة ، جددوا على أثره مذهباً يشابه مذهبهم . مشابهة لا تجد في حوادث التاريخ أتم منها . وقد كان ما بين الفرعين القائمين على الجذع القديم من فروق ضئيلة راجعاً إلى ما كان عليه آريو الغرب من خيال أكثر توازناً وأقل عظمة ، ولما لقوه من طمس أكثر اعتدالاً وأشد ملاءمة لمراة العقل . أما فيما سوى هذا فكانت المظاهر العامة للمنتجات الفرعين متشابهة كل التشابه . وظلت أخلاق الرجولة وعوائدها حاکمة مدى ألف سنة وخمسةائة على شواطئ البحر الأبيض حکماً في شبه جزيرة الهند . فلك الإنسان القوى المسلخ الأرض وحرثها وأقام المدائن واستأصل الأجناس الوضيعة أو استعبدتها ، وأنشأ القصائد والأساطير والعلوم والأخلاق والفلسفات ثم تربع معجباً بنفسه يشاهد مثالها في قصص أبطاله وآلهته متصوراً

كال نعمته في تكميل ملكاته وزيادة سلطانه . وكما طمّح البرهمي ليسكون
 لها في السماء فقد أراد اليوناني والروماني أن يكونا المهيمن على الأرض .
 ثم انهار عملهم جميعاً بالتغالي في العواطف التي كانت سبب قيامه .
 فأصبح الإغريق الشهم الكريم متكلماً سفسطائياً وتطاحت المدائن
 الجميلة فيما بينها حتى ضعفت وسقطت في قبضة البرابرة الهمج المحيطين بها .
 وأصبح الروماني النشط جندياً ثم عبداً لرومائه فأنقبت الأمباطورية
 العظيمة التي امتد سلطانها بقوة ذراعه على عدد عظيم من الشعوب ،
 وصارت آلة استبداد منظم وقع هو كما وقع غيره بين عجلاتها ، وقد
 أهلك الاستبداد الأشراف بعد ما أهلك العامة وقامت القوة التي
 أعدتها الملكية العسكرية بين هذه النفوس الأسيرة حائلاً حديدياً صلباً
 لا يفاح مجهود في تحريكه . فلم يعد ممكناً أن يطالب الرجل بعقل ما كان
 يقوم به من قبل أو أن يكون قوياً جريئاً أو أن يدفع عن نفسه أو
 أن يد بالعدوان عدواناً . ذلك بأنه وقع في الفخ فتعطلت فيه تلك
 الجرأة القديمة المعروفة في هذه الأجناس المحاربة الأنوفة — وقد بحث
 الباحثون يرجون علاجاً لهذه الحال في البهر وفي الإندلاق في الشهوات
 وفي الاستسلام المطمئن وفي الباطنية المشوشة وفي أحلام خلق الوجود
 وفي التأملات الفلسفية وفي سحر المشعوذين وفي نبوءة المرضى ، فلم
 يحرك ذلك كله إلا الذهن والعصب بينما كان هو القلب الذي يجب هذه
 بمس محرك جديد دافع للعمل . ولقد تم ذلك فيما بعد على نحو ما تم
 في الهند فأخذت الأخلاق وبهجة جديدة كالوجهة التي أخذتها في الهند
 « إذا ضربك أحد فلا تجزه جرحاً بجرح كما أمر القانون القديم الذي

يحتكم في الناس من ألف وخمسة سنة والذي لم يخلق منهم إلا
 محاربين وغالباً ومغلوباً . فكذلك ليس يكفي أن تطرح الغضب وأن
 تنزل عن التأثر وأن تحقر المهانة وأن تحتمل الظلم صابراً على نحو ما يدعو
 إليه حكام العصر . بل تلق برفق بين ذراعيك من ضربك وأدر له
 خدك الآخر ودعه يأخذ مالك وأعطه ما لم يأخذه وأحبيه لأنه أخوك .
 فإن ثمة فوق هذه الممالك المنظورة ملكوت الله ، ملكوت الأمل
 الأسمى حيث لا ترى إلا رقة وتغانياً في الغير مخلصاً ، وإلا قلباً واحداً
 هو قلب الآب الذي يحبكم ويحميكم . ، وهذه هي العاطفة الكبرى
 التي أحيت الإرادة الإنسانية في أوربا . وهي أكثر تحديداً وأقل
 تجريداً من العاطفة الهندية . فهي لا تمتد إلى الحيوانات ولا تعتمد
 على فكرة العدم العام . ولكنها أضبط وأصح من العاطفة الهندية
 لأنها تدع للعمل والأمل مجالا أوسع ، كما لا تصل بالإنسان إلى
 السكينة الجامدة ولا للاستسلام الحسير والعدم الأخير ، لذلك كانت
 أشد ملازمة لأذهان أكثر عملية من تلك الأذهان ، ولأرواح أقل
 من تلك الأرواح مرضاً ، ولخيالات أكثر اعتدالا ، فهي أوربية
 وليست آسيوية . على أنها في أوربا وفي الهند هي على كل حال مركز
 التقدم الإنساني ، وعلامة الساعة التي يصبح فيها الإنسان وكأنه
 حيوان هذبه الألم وقهرته القوة بعد ما أسرف من قوته فيترك عبادة
 القوى الطبيعية ويستبدل بها لإجلال القوى الأخلاقية ، ويتخطى فكرة
 الطوائف والفرق والامتيازات ليصور أمامه صورة أخاء بني الإنسان .

(٣)

النظر

إذا بذرت حبة نمت متأثرة في نموها بعاملين مستقل كل منهما عن الآخر ، عامل القوى الداخلية التي تتكون منها البذرة ، وعامل القوى الخارجية المحيطة بها . ففي دخيلة البذرة شجرة وجهتها النماء . لكن شأن الأرض والجو الخارجين عنها أن يعينا طريق نموها أو يفسدها . كذلك ترى في كل دين فكرة جديدة لتصور الطبيعة ولتصور خطة سير الإنسان في الحياة . وهذه الفكرة الجديدة تنمى نفسها بمجهودها الخاص . لكنها في نمائها تتجه وجهة خاصة بتأثير الظروف المحيطة بها . فالإصلاح الأخلاقي يصبح رويداً رويداً لا هوأً منظماً يسهل على الإنسان أن يميز خلال فروع شجرته الضخمة التي خرجت من البذرة الصغيرة بين ما نشأ عن البذرة وما جاء عن طريق الوسط .

فأما ما يرجع إلى البذرة في النظر البوذي فاعتبار فكرة العدم مادة الأشياء وفكرة الخلاء (الفراغ) منشأ الأشياء وغايتها . وأما ما يرجع في الوسط فضخامة وتهتك الخيال الوفير الخصب الذي يكدر الأعداد والعوالم حتى يعتريه الدهول بين مضطرب خلأته .

وقد خلف ساكيا موني مبادئ أخلاقية وقصصاً مطمئنة كما خلف مبدأ التخلي قائماً على فكرة الخلاء . أما أتباعه الدينيون الذين أقاموا بعد

الوحدة في صوامعهم مسلحين بالفلسفة المحيطة بهم ومندفعين وراء ما يبدعه الخيال الباطني في تضخمه وانتفاخه فقد أقاموا مذهباً كالذي أقامه دوريجين ودنيس الأوريوباجي ومجموعة من الأساطير أشبه بأساطير دانت ودفوارجين .

ويرى أتباع بوذا أن ليس ثمة مادة أولى ولا مبدأ يتكون ولا إله خالق سبق الخلق . بل « إن القطع بوجود موجود أعلى خلق العالم وما يحتويه إنما هي من هرة المناقضين الست » ففكرة الموجود الثابت القائم بذاته تتنافى ومذهبهم تنافياً تاماً . وليس ثمة سبب أولى وإنما الطبيعة سلسلة لا تتناهى من الميلاد والهلاك واتصال لا نهائي بين أسباب هي النتائج ونتائج هي الأسباب وانحلال وتكون أزلي أبدى . خالد . تلك هي وجهة نظرهم العامة التي وصلوا إليها مسوقين إليها من جهة بفكرتهم الرئيسية : فكرة العدم العام ومن الأخرى بمشاهدة الأشياء الدائمة التغير . ذلك بأنهم قد أطرحوا الأسباب الثابتة فلم يبق لهم إلا سلسلة النتائج المتغيرة وقد سار خيالهم في هذا الميدان شوطاً سيرى القارىء الآن مداه .

ففي الحيز اللامتناهي عدد غير متناه من العوالم . ولو أن الإنسان أقام جداراً حول حيز يمكن أن يسع مائة ألف مرة عشرة ملايين من هذه العوالم ثم رفع هذا الجدار إلى أعلى قمة السموات وملا هذا المخزن العظيم بحب الغافل لما ساوى عدده هذه الحيات نصف عدد العوالم التي توجد في إحدى ممالك السماء . ويقوم في وسط كل عالم جبل ضخم .

ذو سفوح أربع : سفح من ذهب ، وسفح من بللور ، وسفح من فضة
وسفح من زمرد . وهذا الجبل هو جبل (ميرو) الذي يرتفع أربعاً
وثمانين ألف (يودشانا) فوق سطح ماء البحر وينزل مثلها في جوفه
ويحيط بهذا البحر إطار من صخور مرتفعة يمتد وراءها بحر ثان تحيطه
الصخور كذلك وتمتد بعدها بحار تحيطها صخور . ولكن البحار يقل
عمقها والصخور يقل ارتفاعها حتى إذا كان البحر السابع والأرض
السابعة التي هي أرضنا لم ترتفع الجبال أكثر من ست وسبعائة
(يودشانا) فوق سطح البحر . وهذه الأرض تشمل أربع قارات القارة
الشرقية وفيها يعيش الناس مائتي عام وطول كل منهم ثمان أذرع .
والقارة الغربية وفيها يعيش الناس خمسمائة سنة وطول كل منهم
ست عشرة ذراعاً . والقارة الشمالية وفيها يعيش الناس ألف سنة
وطول كل منهم إثنان وثلاثون ذراعاً . والقارة القبلية وفيها يعيش
الناس مائة سنة وطول كل منهم ثلاث أذرع ويحيط بهذه المنطقة جدار
شيد من الحديد تسطع من ورائه شمس أخرى ويمتد بعده عالم آخر .
وتقوم في وسط جبل ميرو من أسفل منخرة ضخمة نحتت فيها ثمان
جهنمات . وفي وسطه من الأعلى تبدأ السماء بعالم الرغبة مقام الآلهة
والشامل لست سموات ما خلا الأرض ، ويحيط من فوقه عالم فيه
أربع مناطق حسب مناطق الإلهام الأربع . ثم يحيط من فوق ذلك
العالم الذي لا شكل له شاملاً أربع سموات كذلك ويصل الخيال البوذي
في هذه العوالم الأخيرة حداً يكسده معه الملايين منها فوق ألوف الملايين
حتى يبلغ جموعاً مدهشة يجعلها بعد ذلك أساساً يصدر عنه التكديس

ما هو أعظم وأضخم . ثم تراء يستمر على هذه الحال بلا انقطاع ولا روية حتى يضطرب الذهن ثم لا يدرك شيئاً .

كل هذه العوالم من أسفلها إلى أعلاها مأهولة بالخلائق . وفي أعرق دركاتها أهل الجهنمات الثماني في طبقات بعضها فوق بعض ويحد السكاكين والحرايب أحسنهم حالا مدى خمسمائة سنة . أما ما ينال الآخرين من فظاعة العذاب وطول مدته فزعج مخيف . على أن الخلود في العذاب للتكفير عن الذنوب ليس مقررأ إلا عند سكان الجنوب من البوذيين الذين يحكون على المتشككة والكفار بالبقاء خالدين حول حائط يمتد في بحر يحتل خلايا العالم ويلتهم هذا البحر أعضاءهم ويبلعها .

في مقابل ذلك ترى البوذيين من أهل الشمال يضيفون إلى الجهنمات الثماني المتهبة ثماني جهنمات أخرى من الصقيع يصعد أو يهبط من حل به الجزء أثناء هذه الآتونات بحسب ما يستحق . ثم يجيء البروناس في درجة من العذاب فوق درجة من العذاب فوق درجات أولئك ، جميعاً . والبروناس قوم من المالبق ناشفة أبدانهم ، قبيحة مناظرهم ، واقفة شعورهم ، ذوو بطون عظيمة لا تشبع . وحلق أضيق من سم الحياط يتعذبون بأفطع الجوع وأقسى العطش ولا يكادون يسمعون اسم الماء مرة في كل مائة سنة ، ويأكلون جثث الموتى أو ينهشون لحم أنفسهم . والبخلاء الذين لا يتقدمون أرجال الدين بإحسان هم يصلون إلى هذه الحال التعسة . وتجيء الحيوانات في درجة ما فوق البروناس ثم تجيء من فوقها الآزوراس وهي الأرواح الخبيثة عدوة الآلهة . وإلى جانب هؤلاء يجيء مختلف أنواع الشياطين من عمالقة غلاظ وقصار ونعابين ضخمة وزواحف لها رأس إنسان وغيلان

لها رأس فرس وحيات وطيور وهي تفوص في الماء أو تطير في الهواء أو تسعى على الأرض أو تجاور الآلهة أو تقوم على سفوح ميرا ، ولكل جنس منها مملكة ولكل مملكة ملك . ثم يجيء الناس في درجة مافوق الشياطين وتجيء الآلهة من فوق الناس ، والآلهة على طوائف وأدنا هذه الطوائف أندرا وإخوانه من الآلهة العاديين للبرهمة . وآلهة هذه الطوائف يقيمون مسلحين فوق قمة الميرو ويدفعون الشياطين السفلى من غير انقطاع . أما السموات الأربع التي فوق ذلك فلا تسمى عالما ولا تستضيء بشمس أو قمر بل بنورها هي . وفي هذه السموات توجد البوذات المقبلة التي تنتظر الساعة التي تتقمص فيها للبرهة الأخيرة جسماً لتقوم بنبجاة الجوالم . وهذه المنطقة هي الأخرى واقعة تحت حكم مارا أمير النهوات ومستوى البوذات . ولا سبيل للخلاص منه إلا بالارتفاع إلى المنطقة التي فوقها والدخول في عالم الأشكال النقية . وفي هذا العالم وجد البرهعات ثم آلهة النور الصراح وهم غائضون في بحر الإلهام الأسنى معفون من نير التفكير ويتخيلون من غير أن تتعاقب عندهم التصورات ، وفوق هذا العالم توجد الكائنات الطاهرة الفاضلة . ومن فوقهم المخلصون الذين خلوا عن التحول وصاروا بمنجاة من الإحساس والألم . وفي الدرجة العليا تنفتح المناطق الأربع للعالم غير ذي اللون أو الشكل حيث تخفى الأجسام الأثيرية تمسها وتلك هي سماء البوذات . وكل مادون هذه السماء الخالدة في سكينتها واقع تحت حكم قانون التحول والتغير .

هذا ولم تطبق ديانة من هذه الديانات أثناء هذياناتها الشعرية.
مبدأها الأساسي من عدم ثبات الكائن بمثل ما طبقته الديانة البوذية
من القوة ، ولا شرحت فكرتها المبدئية من أن كل كائن حي يحمل في
وجوده بذور موته بمثل دقتها . فهذا العالم ينشأ ويفنى ليحل محله
سواه ليفنى هو الآخر ويحىء من بعده غيره ثم يفنى كذلك وهكذا
بلا انقطاع ولا غاية . وكل نشوء وكل فناء يمتد إلى أجل من الزمان
ما أعظمه . والدهر (الكالبا) هو الزمن الذى ينقضى بين إحدى
تلك البدايات وإحدى تلك اللانهايات . وهذا الدهر بالغ من الطول
حتى لو أنك أمررت قطعة من أرق حرار برانس مرة كل مائة سنة
على صخرة طولها وعرضها وارتفاعها ستة عشر ميلا وظللت تكرر
ذلك حتى تصبح الصخرة وحجمها حجم بذر الأمانة المنجوة ، لما انقضى
ربع مدى الدهر . وهذا الزمن الكبير يشمل أربعة أزمنة دنيا يتم الهلاك
في أثنائها ستا وخمسين مرة بالناز وسبع مرات بالماء ومرة بالرياح .
وقبل وقوع كل هلاك بمائة ألف سنة ينذر الناس به ولى يدعوهم للتوبة
والاستغفار ، وأعظم مرات الهلاك هى المرة الأخيرة التى تسببها
الرياح ، فهى تصل من الفضاء إلى حد أن لا تبقى من العالم كله ذرة
واحدة متماسكة . ويبقى الفضاء أضر كل هلاك خالياً عبوساً ، حتى إذا
حانت الساعة قامت ريح فشقت سحاباً فسقط منه المطر فأصبحت المياه
شلالات فامتلا بها الفضاء حتى يصبح أقيانوساً تحمى الرياح شواطئه
ثم تستقر الاجزاء الصلبة من بعد ذلك وتجمد بفعل الرياح ، وتحسر
المياه عنها فتظهر المناطق العليا : مناطق الخالصين والبراهمة والآلهة

واحدة بعد الأخرى . أما سائر العالم فيصبح أهلاً بعد ذلك بالخلائق العليا التي بقيت بعيدة عن تلك الصدمات ولا يتم بعد نقاؤها . وتدرج هذه الخلائق يكون في مراتب شتى ؛ فهي تنقص باديء الأمر صورة موجودات بريئة سعيدة غير ذات شكل ولا جنس وغير محتاجة إلى شيء ، بل هي ثورية هوائية . ثم تثقل الأجسام من بعد ذلك وتفسد من غير شعور منها وترتكس في حكم الرغائب والشهوات فتستأصر حياتها إلى أربع وثمانين ألف سنة بعد أن كانت غير ذات نهاية أو تكاد . وهنا يتزايد الفساد فتقوم دعامات الملكية والحكومات والطوائف ويتدهور آلاف من الأحياء تثقلهم خطيئاتهم فيصبحون . ومنهم الحيوانات وشياطين الجوع ومن صبت عليهم اللعنة . وعند ذلك يصبح العالم كما تراه اليوم ويبقى كذلك ربع دهر يتراوح بين درجات مختلفة من الهبوط والنهوض متروكا لنفسه طورا وتعيينه البوذاط طورا آخر . وفي خلال هذا الزمن تتراوح الحياة الإنسانية ما بين عشر سنوات وثمانين ألف سنة بحسب درجات شرور الناس أو فضائلهم — ونحن في هذا الزمن في عصر من أقصى العصور — وكذلك تدور عجلة الوجود الكبرى ، ولو نظرنا — ونحن في ذلك الركن الصغير الضيق الذي تشبث به قوم على برزخ — إلى هوى الزمن عن جانبينا وإلى وهداة الفضاء الهائلة حولنا ، إذن لما رأينا في كل التواحي إلا إمعانا في تجدد التطور الخالد تجديداً يحل عن كل جد .

أى قوة تحفظ ذلك التجدد ؟ هنا تظهر الفكرة الخلقية التي يقوم عليها المذهب من جديد . فهذه القوة هي الفضل والنقص وهي الموجودة

وحدها ، والموجودة حيث يكون الوجود . وليس في هذه الفكرة .
 شيء يشابه الأفكار اليونانية أو المحمدية أو المسيحية أو الحديثة .
 فليس تمت قدر مستقل يحكم حياة الكائنات وإنما يصنع كل كائن قدر
 نفسه بفضيلته أو برذيلته . وليس تمت قوانين طبيعية تربط الحوادث .
 وإنما يربطها القانون الخلقى . وليس تمت إله مستبد يوزع الخير
 والشر بقوانين تحميهِ ، ولا إله عادل يوزع الخير والشر مشوبة .
 أو جزاء ، ولا إله يدخل بين الفضيلة والسعادة أو بين الشقاء والشر .
 ليفرق بينهما أو ليجمعهما . وإنما تتصل السعادة بالفضيلة طبعاً ، والشقاء
 بالرذيلة طبعاً ، كما يتصل الظل بالجسم . وكل عمل فاضل ، وكل عمل قوة
 من قوى الطبيعة . وبمجموع الأعمال من فاضلة ومرذولة هو وحده
 مجموع قوى الطبيعة . « والنقص العام الذى يثقل بمجموع الأحياء هو
 السبب الحقيقى لهلاك العالم . والفضل العام الذى تمتاز به كل الأحياء
 هو السبب الحقيقى لتجدد كيانهِ » . ويتصل كل عمل بصاحبه اتصال
 الثقيل أو ما يضاده . فالعمل السيئ يجر صاحبه لاحتالة إلى الدرك الأسفل ،
 كما أن العمل الصالح يرتفع لاحتالة بصاحبه إلى عليا درجات العوالم .
 وعلى نسبة هاتين القوتين يتحدد مكان صاحبهما على أثر كل ميلاد
 ويتكيف حظه عند كل تقمص كما يكون رجحان إحدى كفتي الميزان بنسبة
 ما يكون في كل منهما من الأثقال . فما دامت الروح تحت سلطان الشهوة
 فهى تولد من جديد . وكلما ازداد سلطان الشهوة عليها كانت عودتها
 للحياة أتعس حالاً وأشق ، والتعلق بالأشياء وما يترتب عليه من سيئ .
 الأعمال هو وحده سبب تجديد الميلاد ، ويمكن فيه ذلك الثقيل الذى

يدفعنا إلى دركات هوة الحياة السحيقة الآلية بقوة . ولهذا كان في مقدورنا أن نتخطى القدر العام بإعدام هذا التعاق فننجو من تجدد الميلاد ونصل إلى الخلاص الأخير . وهذا مقام من الرفعة في العالم بمكان ولم يوضع الإنسان فيه أبداً . والإرادة عند البوذيين قوة لا حدة لها . تسمح للإنسان أن يصل إلى النروة من الأشياء . وأن يدخل النرفانا وأن يسمو إلى ما فوق الآلهة .

أما تلك السماء البديعة وهذا العالم (غير ذى اللون ولا الشكل) حيث تقوم البوذاة الكاملة وحيث تنهزم الطبيعة ويتم الخلاص ، ففيها مناطق أربع : منطقة فضاء لا حدود له حيث تمتد الحياة عشرة آلاف دهر كبير . ومنطقة الحكمة لا حدود لها حيث تمتد الحياة أربعين ألف دهر كبير . والمنطقة التي لم يبق فيها شيء مطلقاً وتمتد الحياة فيها ستين ألف دهر كبير . والمنطقة التي لم يبق فيها فكرة ولا لا فكرة وتمتد الحياة فيها ثمانين ألف دهر كبير . ومن بعد ذلك تمتد النرفانا . واللاشيء الصراح والفناء الكامل وتندرج المناطق على هذه الصورة يبين لنا خطوات تقدم الصفاء الباطنى . فترى التأمل يتضاءل ويبقى شيئاً فشيئاً حتى يصل رجل الدين . بعد تركيز فكره عند نقطة ثابتة وبعد وقفات عدة إلى أن يطرد من ذهنه أفكار ، المقاومة والشكل والاختلاف ، وإلى أن يقصر تصويره على الفضاء الفرد الذى لا حده له ثم لا يلبث هذا الفضاء على عظيم بساطته أن يفنى هو الآخر ولا يبقى منه أمام نظر المتدين إلا الفكرة غير المنتهية ، أو بالأحرى التصور غير المنتهى ، ثم يختفى ذلك كذلك ولا يبقى أمام نظر المتدين شيء .

مطلقاً ، وعند ذلك يقف تصويره ولكنه لا يزال قصيراً على الجرم بأن ليس ثمت شيء ، وهذا الجرم شيء في ذاته ، فيعدم الجرم أيضاً . وعند هذا المرتقى لا تبقى فكرة ولا نفي لفكرة ، بل يقف الفكر والتصور ، ويكون الذهن قد أحل الفضاء في نفسه ملامشياً واحداً بعد الآخر ، الأشياء المختلفة والأفكار المختلفة وكل شيء وكل فكرة حتى تبخر مادته وحتى يصل تحت هذا الامتصاص الشديد إلى درجة العدم الصفر . وتلك هي الغاية والتمام والكمال الأعلى . فالخير الأعظم ليس في الخروج من الحياة لحسب ولكن من الوجود كله . وإلى هذا الخروج تصبو البوذاة خلال ملايين تطورات وجودها فتبلغه بعد تضحيات وأنواع من الزهد لاحتها ، من ترك المال والحياة والجسد ، بل ومن ترك جسد وحياة أقرب من يحبون من زوج وولد .

ويجب لكي نفهم مثل هذا المذهب أن نقرب كل عاداتنا الغريبة رأساً على عقب ، وأن نمحو كل الألوان المظلمة التي تعيطها فكرة للفناء ، وأن لا نعبر بما عبر به بأسكال من أنا نوضع أمام بؤسين متعادلين حينما ندعى إلى الاختيار القاسي بين البؤس الخالد والفناء الخالد ، فإنما تلك قواعد تصلح للأجناس القوية النشيطة المتحمسة في التمسك بمطالبها والتي تحفز جودة طقسها أو قسوته نفوس أهلها . وتدفعهم ربح القوة وروح الأمل إلى الأمام . أما أساس المذهب في الهند فقام على مبدأ أن التغيير يدعو للألم وأن الرغبة أس الشقاء وأن الحياة شر وأن فكرة السعادة تقابل الخلاص والطمانينة . لذلك كانت الصورة المرضية التي تدور في نفس الإنسان أثناء أحلامه أن

لا يرجعه مزيج، وأن لا يحس شيئاً، وأن يبقى أبداً في طمأنينة متشابهة .
 صحيح أن الأذهان الغفل وعامة الشعب ، وبنوع خاص من سكان آسيا
 الشمالية الحشنين أولئك كلهم لا يتصورون هذه العقيدة في صفتها
 التجريدية ويأبون إلا أن يزوا في الترف طمأنينة مادية ونوعاً من
 السرور المحسوس ، ولم يعارضهم أحد في هذا التصور قصداً وذلك
 لأن كل مبدأ يراد به أن يكون عاماً مضطراً للتوافق والتلاصق مع
 سواد الشعب . على أن الفكرة الأصلية باقية على الرغم مما يغشاها في بعض
 المواضع من التغيرات ، وهي كما هي لا تزال ذات جمال يجذب قلب
 الإنسان ويجعله يحس لذة كبرى حين يصور لنفسه هذه المناطق الرفيعة
 المظلمة البعيدة كل البعد عن أن تصل إليها الاضطرابات الأرضية . وهذه
 الأجسام الأثيرية التي ترتفع من سماء إلى سماء فتزداد أثناء ارتفاعها
 طهراً ونوراً وهؤلاء السعداء تظل فكرتهم ثابتة مطمئنة خلال آلاف
 آلاف القرون ويشعرون أثناء ارتفاعهم بتساقط حواجز وجودهم
 لتغنى في الفراغ الهائل . وهم في ذلك كنقط الماء تبقى آلاف
 الملايين من السنين تتلج وتسيل وتملح واضطرابات أرضنا
 العظيمة ثم تنتهي بأن ترتفع بخاراً يتهاذى بديعاً تحت الشمس التي
 تحيله ذهباً ثم تزداد ارتفاعاً وندرة حتى لا يظهر إلا كالحيجاب الشفاف
 الناحل ويستمر في ارتفاعه بعد ذلك حتى إذا وصل إلى المناطق التي
 لا تصلها الضجة والتي ينتهي فيها التغير وتنتهي فيها المادة تلاشي في فضاء
 الجو العظيم من غير أن يحس بتلاشيهِ .

ولقد وصلوا إلى أبعد من هذا مدفوعين بما يمتاز به النظر الهندي. من التعمق الذى يصل من كل مذهب إلى أقصى غاية يمكن الوصول إليها. ولأنهم والحق يقال هم والألمان نوابغ فى العبقرية التجريدية حتى ترى اليونان إلى جانبهم، على ما بلغوا من دقة، على جانب من الاستحياء والحيلة. والإنسان لاشك فى حل من أن يقول غير مبالغ إن الذهن الإنسانى لم يخترق أعماق الأشياء وجوهرها إلا على شاطئ الجنج والأسيرى، فقد طرحت المسائل العليا هناك من غير مبالاة بما يترتب عليها من النتائج الطائشة. أما فيما سوى ما هناك فلم يفكر أحد فى إمكان عرض هذه المسائل. وقد أقدم الفلاسفة البوذيون على المساس بالغاية التى يرمى إليها مذهبهم، ولو أنك عاجلت طبيعياتهم المبتدلة ومناقشاتهم العوجاء ووصلت من ذلك إلى تبين آرائهم العامة إذن لرأيت أنهم، على الرغم من أسلوبهم، ومن ثروتهم التافهة، لم يخشوا شيئاً وأنهم فهموا كل شئ: فهموا إمكان حدوث التغير وإمكان كون الموجود مع تحتم انقطاعه عن الوجود أو إمكان ابتدائه إذا لم يكن. وكيفية انقلاب كل من الوجود والعدم فى لحظة معينة إلى ضده بدل بقاء كل منهما على طبيعته. وكيف نفهم أن جوهر الشئ ينحصر فى مناقضته لنفسه وفى إعدامه لإياها؟ وهذه المسألة الأخيرة تتخطاها نحن اليوم، بل ولا نرد ببال الأكثرين من مفكرينا الذين يدعونها جانباً فى عالم الإطلاقات العقيمة المجردة مع أنها هى أم كل المسائل. وفيها فصل البوذيون بقوة منطقية تدل على مبلغ إحساسهم بصعوبتها — قصدهم أن الوجود وكل الشرور تنتج عن اتقى عشر

مبدأ ، وأنه إذا أمكن إعدام أحدها انعدم ما يتبعه مثلبا يقطع الرجل الشجرة عند ارتفاع معين منها فيأتى بذلك على كل الفروع الناشئة فوق هذا الارتفاع . والجهالة هي السبب الأساسى للشروع . ولا يقصد بالجهالة ما تعارف الناس عليه منها ولكننا يقصد بها ذلك الخطأ الأصيل الذى يجعلنا نعتبر أن ثمت شيئا حقيقياً . فذلك هو الوهم القديم وهو أصل الوجود وكل بلاياه . إذ ليس ثمت شيء حقيقى ، وليس ثمت وجود ، وإنما الكل فراغ وقضاء .

وعلى هذه النظرية بنى مختلف فلاسفة البوذيين وشادوا طبقة بعد طبقة . فقرر بعضهم أن الأشياء لا وجود لها إلا فى البرهة التى تراها فيها . وقرر آخرون أن الأشياء لا وجود لها البتة وأن ليس من شيء خارج عن الإحساسات الداخلية . وقرر غير هؤلاء أن هذه التصورات نفسها لا وجود لها وأن ليس فى داخلنا ولا خارجاً عنا إلا الأشياء والعدم المطلق — وفوق هذا الفضاء تموج مظاهر غاية فى الغرابة يمتد فى أقصاها سواد عظيم ساكن تنشر فوقه خزعات بأشكال وألوان مضطربة . فن اخترق أعماق هذه الحقيقة وجد أن لا معنى للكلمات الشباب والموت والنور والظلام والشكل والحجم والزمان والمكان . ورأى أن كل الصور وكل الأفكار العامة ليست إلا أحلاماً مضحكة .

وإذ ذاك يصير شأنه شأن البرهمن الذى يرى العالم سرا با خداعاً يروج على سطح الموجود الثابت ، وآلا كاذباً يلسع فوق العدم الخالد فى سكينته فيحتقره وينأى عنه بجانه . وبذلك يتم خلاصه وتحقق نجاته ويرفع

غوق كل الأعمال ويمسك بيده الحقيقة العليا . وتلك هي غاية ارتفاع
الحكمة ، وشرع الشرائع ، والمذهب السكين في النفس بحيث لا تعتبر
القواعد المتعارفة إلا تحضيراً مبدئياً . وانت ترى أن ليس هنا من
شيء ناقص . فلا البحث الصوفي الذي يحسب الوقت ويقيسة إلى حد
يذهل البحث دون ما كرس من إعداده . ولا البحث الفاسفي الذي
يستخلص المبدأ ويتبعه حتى يصل عند منتهى قواعده إلى الزهول
وسط كل ما أنتج بسبب عظم المجهود الذي قام به .

(٤)

العمل

توجد في الأنظمة كما توجد في المبادئ قوة كينة هي السبب في نموها ، فالرسول يتحول ويتكامل كما تتحول كلمته وتتكامل حتى ينتهي الأمر بأن تقوم الكنيسة إلى جانب اللاهوت (السلام) . لذلك ؛ فيينا يقوم القائمون بجمع المذهب وترتيب أجزائه وبالتعليق عليه بمعونة المنطق والخيال والعلم العصري وبتفخيمه بالشعر وبشيثته بالقواعد وتعظيمه بالفلسفة ، وبيينا تصبح الأقاصيص والنصائح والخطب التي يلقيها المعتزلة تحت الشجر مجموعاً ضخماً من مضاريات نظرية تشمل كل ما في العالم من منظور وغير منظور ، إذ يقوم من الجانب الآخر من يعني بوضع النظام وبتحديد واجبات أعضائه ووظائفهم وبترتيب ذلك وتوسيعه حتى يرى العالم حكومة عظيمة تقوم رويداً رويداً مشتملة الجمعية بأسرها في دوائرها المتباينة . وكذلك تنتهي الحال بأن يقوم البناء الكنائسي . وقد قام العمل المستمر على مر القرون إلى جانب البناء الروحي ، يتقدمان جميعاً إلى الإرادة وإلى الفكرة الإنسانية ويتحكان فيهما ويصبحان للإنسان ملجأ وسجناً .

والطريف والجوهري في نظام ساكياموني أنه أنشأ نظاماً جامعاً للتدينين . فقد كان المتصوفة والمعتزلة موجودين من قبله ، لكنه كان

أول من جمع هؤلاء المشتتين في وحدتهم بأن نادى إليه كل ذوى العزم من الرجال بلا تمييز بين جنس أو طائفة . ثم أنشأ منهم نظام متسولة اعتزل أهله الملك والأسرة ونذروا الفقر والطهر ، فكانوا النواة التي أظهرت اتفاق النظام الأساسى مع المبدأ الأساسى اتفاقاً يجعل الأول يقتضى الثانى اقتضاء . ويظهره محسوساً وينبئ عليه بدقة لا تجعل محلاً للاختلاف بينهما إلا بمثل ما يختلف الظاهر عن الباطن . إنما تكون مثل هذه الجماعة لتزرع الإنسان من أثرته وأنايته فقليله إلى التقشف والزهد . لذلك كان من زهد من الجماعة متسولاً دينياً .

وفى تلك العصور القديمة سمح للناس من كل الطوائف والمراكز والأعمار كما سمح للأرجاس والمجرمين والشيوخ والمرضى أن ينضموا للجمعية الجديدة ماداموا يؤمنون بيوذا أو يهجرون العالم ، أما المتدينون فلم يسمح لهم أن يلبسوا إلا ملابس قدرة مكوّنة من رقع تجمع من المناير ومن فوق أكوام القذر ويخاط بعضها إلى بعض . وقد أقام بعض هؤلاء المتدينين فى الغابات ، والتجأ بعضهم إلى جذوع الشجر ، وظل آخرون فى الفضاء ، ونزل البعض فى المقابر . ذلك أنه كان من واجب المؤمن الصحيح الإيمان أن يشابه حيوان الغاب فلا يستقر إلى مأوى ويطعم غذاء فى غير المسكان الذى أطعم فيه اليوم وينام أى وجد . ولكن المتدين كان يحيط نفسه دائماً بجماعة من الصحاب ليؤدى ما كان مكلفاً به من تعليم الناس الحقيقة ودعوتهم إلى الدين الجديد . ثم تطورت هذه الجماعات الصغيرة المتجولة من غير شعور منها وأصبحت جمعيات كبيرة ذات مقام ثابت . ونزل المعتزاون المتجشون إلى الغابات من

عزلتهم وتضاموا احتفاء من شرور البراهمة . ولما كان النساء كالرجال مدعوات لا اعتناق الحياة الروحية فقد كن مدفوعات بطبيعة جنسهن للاحتفاء في الجدران ، واضطر المتكشفة أيضاً للدخول إلى المدن إبان فصل الأمطار . وبذلك انتهى أمر الجماعات الدينية التي كانت تعمل لإقامة الدين فأصبحت لها مراكز ثابتة . وعلى هذا النحو تكونت الطوائف وقامت الكنيسة . ثم انتظمت الكنيسة رويداً رويداً فبرسمت قوانينها ووضعت قواعدها وقررت شرائط الاتساق لها .

وغالب الأمر اليوم في من يتقدم لهذه الكنيسة أن يكون طفلاً قد حلق رأسه واغتسل ليحضر أمام القسيس الذي اختاره أبا روحياً له فيبدي إرادته في التنصل من الأشياء فيلبسه القسيس الثوب الأصفر ويقص له مؤخرة شعره ويلقى عليه القواعد العشر لدراستها . ويبقى هذا الفتى إبان تمرينه تلميذ أبيه الروحي وخادمه . فإذا بلغ العشرين من العمر وتعلم عدداً معيناً من الطقوس والصلوات رقى متديناً ودفعت إليه المظلة وتسلم الوعاء المعد لتلقى الإحسان وارتدى صدرية وقيصاً ينزل إلى ركبتيه ومعطفاً يعلق على كتفه الأيسر ثم ذهب متسولاً يأخذ في وعائه الطعام الذي يدفع إليه ويأكله في الوعاء نفسه ، وذلك كل ماله وما عليه ، لأن القاعدة المقرر عليه اتباعها تدفع به إلى التنخل عن كل شيء .

وهو — جرياً على هذه القاعدة — يترك أهله ويصبح ولاوطن له . ويحتم عليه أن لا يبكي موت أبيه ولا وفاة أمه . ويظل ولا زوجة له

ولا ولد . فإن كان له زوجة أو ولد تحتم عليه تركه لأن الخطر على
 المتعلق بزوجة أو ولد أو مال أو بيت أكبر من الخطر المتعلق على
 رأس المسجون المغفل في الأصفاد . فقد تصادف هذا الأخير فرصة
 سعيدة تخلصه من سجنه على حين يبقى الآخر كمن يكون بين فكي نمر . ثم
 إن أعمق أصول الشر اشتهاه المرأة ، ولو أن في الإنسان شدة وقوة
 مثل ما فيه من شهوة ما كان لأحد إلى الخلاص من سبيل . فلا تنتظر أيها
 المتدين إلى النساء ، وإن لا قيت امرأة فاغضض من طرفك ولا تخاطبها ،
 وإن أنت خاطبتها فاذكر دائماً في دخيلة نفسك أنك متدين وأن من
 واجبك أن تكون في هذا العالم الفاسد كالزهرة النقية البيضاء .
 ويجب أن تنظر إلى المرأة العجوز وكأنها أمك ، وإلى من هي أسن منك
 وكأنها أختك الكبرى ، وإلى من هي أصغر منك سنّاً وكأنها أختك
 الصغرى . والأوامر البوذية في هذا الشأن عدة : فلا يصح لمس يد
 امرأة ، بل ولا يد فتاة ولا الدخول في زورق تمسك امرأة بمجاديفه
 ولا أخذ الإحسان من يد امرأة .

هذا والأمر في شأن التملك يوازي الأمر في شأن الملذات صرامة
 وشدة . فليس للمتدين أن يمتلك سوى أشياء ثمانية : فالقطع الثلاث
 التي يتكون منها لباسه ، ثم مشد وسطه ، ووعاء الإحسان ، وقدر الماء ،
 وموسى وإبرة . وعليه أن يعيش من الصدقة من غير أن يطلبها
 وإنما يتقدم بوعائه من غير أن يحدث أي حدث أو حركة تدل على
 وجوده ، ومن غير أن يبدي أنه جائع ، ومن غير أن يطلب شيئاً بإشارة
 أو بحركة أو بكلمة . ثم إنه يرتكب خطيئة إذا هو أخذ أكثر مما يلزم

لأكلته . وليس من حقه أن يطعم شيئاً بعد الظهر أو أن يتناول الطعام لذته . وإذا مرض لم يكن له أن يطلب دواء . وليس له أن يأخذ ذهباً أو فضة أو أى متاع آخر ، وإنما للدير وحده حق التملك .

أما الأمر الثالث الخاص بالطاعة فالتشدد فى شأنه أقل منه فى شأن الأوامر الأخرى . ولئن وضعت القواعد المتدين تحت أوامر رئيسه وأزمته فى غير موضع الطاعة والاحترام فإنها كانت من ناحية أخرى تأمر بوجوب التوفيق وتعتبر كل قائل بالفرقة بين المتدينين مرتكباً لإحدى الخطيئات الخمس القتالة .

ذلك هو الإنسان فى نظر البوذية العميقة ؛ غير أن التهاون والفساد فى الحياة العملية ولا شك نصيباً . وقد عمل الجدل ليطوى القواعد طلياً تتفق به مع الطبيعة كما انتشرت المفسدات التى نضرت أديرتنا أيام لعصور الوسطى فى معابد سيلان والتبت والصين أيما انتشار . لكن ذلك كله لم يمنع فكرة بوذا أن تتم ولم يحل دون نظامه أن يجر الإنسان كما تخمر «المونة» البناء ففسد فيه كل منفذ يمكن أن تنفجر منه ينابيع الشهوة أو قوة الرغبة .

والآن فما هو مصير هذا الإنسان المنظم المخفف الشهوات . وماذا رأى عساه يصنع ؟ إن كل تغيير فى الطبيعة الإنسانية يجر إلى تغيير مقابله فى الجمعية الإنسانية ؛ ومصلح الفرد يصالح الجماعة بالتفاعل . لذلك جر تلطيف الفرد إلى إدخال السلام على الحياة الاجتماعية فخطرت لتضحيات الإنسانية التى كان البراهمة يقومون بها وألقى حكم الإعدام

بشهادة السائحين الصينيين الذين زاروا الهند في العصور الوسطى
واقطع الناس عن تضحية الحيوانات وهجر الملوك والأمراء الذين
اعتنقوا المذهب الجديد مسارح الصيد القتاك . ثم غلا المذهب بعد
ذلك حتى لم يكفه منع حروب الاستيلاء فمنع كذلك حروب الدفاع .
أما الصدقة فقد صارت واجبة حتى إن ملوك البوذيين في اجتماعهم
العام كل خمس سنوات كانوا يعطون كل ما توافر لديهم ، بل وجواهرهم ،
للساكين واليتامى ومن لا عائل لهم ، وذلك عدا ما كانوا يعطونه للمتدينين .
ثم إنهم كانوا ينشئون المستشفيات وملاجئ الفقراء والتسكيا ويفرسون
أشجار الفاكهة ويحفرون مجارى الماء للسائحين وعابرى السبيل .
وكانوا يقيمون ملاجئ للحيوانات كما كان بعض الأتقياء في سيام
ومنغوليا يقتدون العصافير والأسماك ويعيدونها إلى حريتها . وكان
غير هؤلاء يبنون ملاجئ يضعون فيها الطعام لحيوانات الغاب خصوصاً
إبان فصل نتاجها .

على أن ما كانت تنطوى عليه هذه الجدة الأخلاقية من التسامح
كان يزيد أمرها غرابة ؛ فقد كان البوذيون حسنى الظن والرأى في الديانات
الأخرى ، وكانوا يعتبرونها جميعاً أشكالا دنيا من الحقيقة الحققة حتى لقد
أمر درما سوكا أول عظماء ملوك البوذيين وقسطنطين الديانة الجديدة
بتبادل الإحترام والوفاء بين جميع الطوائف وبأن يكون أتباع
كل مذهب أغنياء في الحكمة سعداء بالفضيلة ، ثم ذهب البوذيون
لأبعد من هذا فامتدت عاطفة المحبة عندهم إلى كل الأجناس كما امتدت
إلى كل الطوائف وصار الأجنبي يعامل بينهم كما يعامل ابن الوطن

ولا يبعد ولو كان مبشراً مسيحياً . ولقد شرب السم الخبيث وتربى الشاى
فى وعاء كان يشرب فيه السلاما الأكبر . ولم يبق عندهم أطهار
ولا غير أطهار .

وقد كان من أثر ذلك كله أن استفادت الحياة العائلية من
احتسائها بالقانون الجديد على الرغم من اعتباره إياها فى المحل
الثانى ، فقد جاء فى هذا القانون : « خير أن يكرم الإنسان أباه وأمه
من أن يخدم آلهة السموات والأرض . ولو أنه حمل أباه على كتف
وأمه على الآخر مدى مائة عام لما جزاهما بذلك عما قدما إليه ،
فكذلك قد تحسنت حالة النساء وزال اعتبارهن رقيقات كما كان الشأن
فى البلاد الإسلامية ، أو دأوعية رجس ، كما كن يعترن فى البلاد
البراهيمية ، وسمح لهن بالخروج والتزاور وطرح الحجاب ، وأصبح
الزواج من واحدة قاعدة وأمرأ .

وليحيط الإنسان بكل التطور الذى حصل يتختم عليه أن يلاحظ
ما تم فى منغوليا والتبت وسيلان والممالك الأخرى التى امتد سلطان
الدين الجديد فيها ، فكلنا نعرف جنسكين خان وتيمورلنك وقسوتها
وتخريبها ، ونعرف ما شادا من أهرامات حجارتها رؤوس الرجال ،
ومن أبراج جدرانها الأجساد وموتها الدماء . أما اليوم فخرائم
القتل والنهب نادرة فى منغوليا ندرتها فى أوروبا المتمدينة ، وكذلك
أصبح اليوم أهالى التبت الذين ظلوا تحت تأثير طقسهم العيوس القديم
فى درك الوحشية المخجلة والذين كانوا يأكلون موتاهم كأنهم ذئاب

الثلوج الجلياع ، شعباً رقيقاً متعلماً ، بل يكاد يكون بمتدينياً . أما أهالي سيام فقد رقت فظائع ضعفهم وخفت اعتداءاتهم الدموية وعنتهم وقسوتهم إلى حد أن لم يبق في بانكوك — وهي مدينتهم الأولى يقطنها أربعمئة ألف من السكان — نزاع ولا شجار ، وأصبحت جريمة القتل فيها حادثاً غريباً لا يرى أغلب الأمر مرة في كل مائة سنة . والخلاصة أنك في حل من أن تقول إننا لو جمعنا كل ما في حياة آسيا المدنية والمزاية اليوم من دعة ورقة لكان لنهر البوذية الحظ الأكبر من ماء بحر السلام .

على أن البوذية لطفت الإنسان باستهلاكها نفسه . وقد كان شأنها في ذلك شأن الإنسان يصل بالحيوانات المتوحشة من أثوار وأعز لتكون نعاجاً ويجولا تحبس في حظيرة لتعيش عيش الإخاء وتعاد إلى مرعاهها ساكنة مطمئنة الخطى . فإذا صح أن هذه الحيوانات تصبح في حالها الجديدة أقل من قبل لإضراراً بعضها ببعض ؛ إلا أنها تصبح مع ذلك خلائق محتقرة وضيفة . ولو أنك قارنت الكتابات البوذية بالكتابات البرهمية لهلك الفرق من أول نظرة . فقد اندثرت نخامة شعر اليورانات ، وخبا الاندفاع ، وخذت تلك القفورات الذهنية التي كانت تهيئ في لحظة بالسماء والأرض والعالم كله وتشترك في عظمة الطبيعة وخصبها ، واضمحلت عظمة الشعر وروائه ، وخفت روح مانو العظيمة وذهبت رقة الرباعيات البشمية ورات تلك القوة النادرة التي كانت للعاطفة والإبداع القديم . وأصبحت الكتب البوذية — ومعظمها من كتب القساوسة — مسهية مضطربة تذكر ناسقو القرن

الحامس عشر المدرسى وبهوس الثروة البيزنطية . ودل عدم تماسك الأسلوب على أن الإنسان أصبح لا يستطيع التفكير فجعل يعيد أدلته ويكررها بتطويل وإملال . وصار الحوار والجدل عنده أشبه بما يكتب في كراسات التلاميذ . ولم يبق له شيء من الآراء المحيطة العامة المهمة للحظتها ، وانقطع كل جميل وكل عظيم عن أن يدخل إلى نفسه دخول البرق في النظر . ووقف عند تكديس المكررات تكديساً يخيل إليك معه أنه جالس يعد ويعيد ملايين الملايين حتى يذهل تحت أكديس الأعداد ، ولم يبق لبوذا على نحو ما يصدره البوذي فوق محرابه شيء من الرجولة وإنما هو جسد رخو سمين يشبه صدره وبطنه صدر المرأة وبطنها ، وينم مظهره عن سكون بليد وطمأنينة راضية يصلان إلى حد الابتسامة البلهاء .

من السهل أن يفهم الإنسان أن أمثال هؤلاء الرجال لا يمكن أن يكونوا قد وقفوا في وجه السلطة ، بل ومدوا بأعناقهم للاستعباد . مثلما فعل أهل القرنين الرابع والعاشر في أوروبا . وكما انشطرت الجمعية المسيحية في القرنين الرابع والعاشر كذلك انشطرت الجمعية البوذية إلى شطرين : سواد الشعب وتلك هي الطائفة المنحلة التي ظلت مرتبطة بالعالم وبالأسرة وبالعامل وبقيت عاجزة عن الوصول إلى الدرجة الرابعة من درجات القداسة . والمتدينين وتلك هي الطائفة الرفيعة العاطلة غير ذات الأسرة والتي هجرت خيرات الأرض وشغلت بتحصيل الفضائل الروحية .

ورجل سواد الشعب مكلف أن يطعم المتدين . وقبول المتدين الإحسان

من رجل السواد إحسان إليه . ذلك بأنه لو أتيح لأحد رجال الشعب أن يملأ بالجواهر السبع ألفاً من ثلاثة آلاف العوالم ثم قدمها لمتدين لما عدلت شيئاً إلى جانب الخزائن الروحية التي يشركه المتدين فيها بقبوله عطاءه . وكلما ازداد المتدين قداسة كان العطاء أكثر مشوبة . لذلك كان إطعام متدين أكثر مشوبة من إطعام ألف من سواد الشعب المؤمنين . وطعام قديس من الدرجة الرابعة (١) أكثر مشوبة من إطعام ألف من سواد المتدينين . وإطعام بوذا في يد بوذيته أكثر مشوبة من إطعام مئات الألوف من متدبني الدرجة الرابعة . وإطعام بوذا كامل أكثر مشوبة من إطعام مائة ألف من البوذات المبتدئين . ويكفي أن يمر الإنسان النظر على هذا التدرج العددي وحده ليرى مبلغ ما كان لإكليروس البلاد البوذية من المسكنة وما حصلوا عليه من ثقة . ثم إن السواد من أهل منغوليا والتبت المتحمسين كانوا يركعون أمام المتدينين المشهود لهم بالقداسة رجاء قبول ما يقدمونه لهم من النذور . وكان المتدينون والمتدينات يقدرون بخمس عدد سكان التبت وبثلث سكان منغوليا . كذلك نص في الشرع على أنك تصل إلى أرفع درجات الحكمة إن أنت أكرمت اللامات كما أنك تضيع ، إذا أنت واجهت المتدينين . ياهاة ، كل ما كسبته من فضائل مدى آلاف عدة من وجوداتك ، وهذا النص يزيدك بياناً كيف كانت حال الجمعية الإكليركية في سدها هنا ولحقها . فإذا أنت لاحظت أخيراً أن اللاما الأكبر يعتبر في تلك

البلاد صورة لبوذا وإلهاً على الأرض ، إذن لرأيت بجلاء . مبلغ التحكم الإكليريكي تحسكاً يشابه ما كان في أوروبا في القرن الثاني عشر حين وضع الإكليروس يده على تلك الأراضي في إنسكلترا وعلى نصفها في ألمانيا ، وحين أقام البابا نفسه سلطاناً على الملوك والقيصرة .

للطاعة وللوهم مصدر واحد . ذلك بأن الذهن المضطرب الأعصاب العاجز أن يحكم بنفسه سريع إلى أن تحتله العقائد الجنونية ، وهو يهوى إلى لجة الوهم والحلم بسبب حرمانه التمييز ، ويؤدى به ضعفه ليرتسكس وسط التخيلات الصيبانية . وليس شيء يعدل أو هام البوذيين في سرفها وتطرفها حتى لتجل معجزات الخزانة المذهبية (La legende Dorée) عن الاقتراب في السرف منها . فإنك تراهم يدكون الأرض دكا ويتعذبون بسير آلاف ملايين الآلهة يتحكمون في السماء والأرض ، كل ذلك مع الإسراف في المبالغات الصيبانية والثرثرة القديمة العقيمة التي تسرع بك إلى التقزز .

والولى والقديس البوذى قدير على الإتيان بالمعجزات ، قدير على أن يحيط بكل الخلاق وبكل العوالم نظره ، قدير على أن يسمع كلام العوالم جميعها وكل ما فيها من ضجة . ثم هو عليم بأفكار كل الموجودات ، ذاكر لكل حيواناته السابقة وحيوان كل من سواء . واللبوذات المبتدئين والبوذات الكاملين بمن تسمو مرتبتهم على مرتبة الأولياء . قوى أغرب وملكات أعجب . ولو شاء كاتب تسطير ما يمتاز به البوذا الكامل لامتدت صحائف كتابه من الأرض حتى تحمل إلى سماء برهمة فيحسبه من علامات الجمال ، اثنتان وثلاثون علامة

ممتازة وثمانون علامة ثانوية . واذنه ثمان عشرة مستقلات
 Dependances وسبع وثلاثون مجموعة Accompanements
 وأربع أسس ثقة وعشر قوى . فإذا انتهى البوذيون من تضخيم إلههم
 على هذا النحو عادوا إلى تحليله . وعادوا إلى ذلك بادعاء ثقل يعيرون
 به على اندفاعهم الآخرق .

طبيعي أن يؤدي ذلك كله بهم إلى الجود وإلى العبادة الآلية .
 فإن الذهن المكسود ميال للاندفاع الأعلى في هذه السبيل . وميال
 إلى ذلك رغم ما وضع به صاحب المذهب السلام في دائرة الإحسان
 والهدو وحكم النفس ، ورغم تنزيهه الدين عن المظاهر الخارجية . وذلك
 لأنه مادامت النظرة الثاقبة الحرة التي تميز بين الشكل والموضوع
 مفقودة فإنما بالشكل يستمسك الرجل إذ يجد الإمساك بالشكل
 اللبوس أهون من الإحاطة بالحقيقة غير المنظورة . ومن هنا تنقلب
 العبادة عنده تقديساً للأصنام فيركع أمام بوذا وسواه من الأولياء
 ويقيم لهم صوراً وتمائيل عدة ، ويؤدي إليهم فرائض العبادة ويقيم لهم
 الأعياد تيمناً ، ويبني الأهرامات والمقامات للاحتفاظ بعظامهم
 وأسنانهم وأرديتهم وبالأوعية التي يجمعون الإحسان فيها . ويشترى
 الملوك رفاتهم وبقاياهم بأثمان باهظة . ويحج المتدينون من مختلف
 الأنظار الآسيوية ليسجدوا أمام آثار أقدام بوذا وليلاموا الكنائس
 المقدسة بالندزر . وإنك لتقرأ في أسفار الحاجين من أهل الصين
 مبلغ ما يقاسونه من المتاعب والأخطار أثناء رحلات يقدمون عليها
 بكل تفان وإخلاص . وطبيعي أن ينتظر الإنسان من عقل وصل إلى

مثل هذا الدرك أغرب الأمور وأعجبها . فالتناس من كل الطبقات في بلاد المغول والتتر رجالا ونساء يمتضون يومهم في تلاوة الأدعية لا يمنعونهم عن التلاوة سير ، أو طعام ، أو لعب ، وأخص أدعيتهم الدعاء ذو المقطوعات الست .

وهم في سيلان وفي المغول يتلونونه أغاب الوقت بلغة لا يفقهونها ، وكلما ازداد الشخص تلفظاً بهذه الأدعية أو كتابة لها أو طبعاً لإياها ازداد ثوابه . وقد جمر الطمع في هذا المزيد إلى استبدال الماكينة بالإنسان ، وذلك بأن ملئت اسطوانات مخروطة الشكل بأوراق صغيرة نقشت عليها الصلوات والأدعية وعرضت في الطرق العامة وفي المعابد وفي المنازل ليديرها من أراد فيكسب من الثواب كما أنه تلا كل الأدعية الموجودة على تلك الاسطوانات ، ومنها ما بلغت ضخامته حتى صارت صورة الصلاة المقدسة منقوشة مائة مليون من المرات وقد ناط بعض ذوي التقوى بإدارة اسطوانة الأسرة بخادم خاص كما أقيمت طواحين الماء والهواء لأداء هذه الوظيفة . ولقد دهش السائحون لما رأوا تدهور الحال العقلية حتى عند أهل الجنوب بسبب توجيهها في هذه السبيل . فقد بدت سيما البله على الأكثرين من القسيسين حتى لتري أغلب هؤلاء التعساء يهذون أثناء سيرهم وتطوق ثغورهم ابتساماً الغباوة ونظرتهم خلاء ، أما حالهم العقلية فهي بمنزلة حال الحيوان أو تكاد . وبمثل هذا الوضع الدينى وتحت حكم هذا النظام يصبح الرجل صنماً .

هذه هي الديانة التي تعتبر الحادث الأكبر في التاريخ الآسيوى —

ورغم أنها في أصلها خلقية إنسانية، صرقة فقد تطورت واختلطت على مرّ القرون ، وما أطولها قصة دينية ؛ قصة تطورها التجريدى والقصصى وقلباتها الكفرية (Payenne) والبرهمية . ومع أنها كانت هندية بحثة في نشأتها فقد امتدت في الشمال وفي الجنوب حتى شملت الهند الصينية ، والمسكة برما والصين واليابان والمغول وسيبيريا . والتبت وإيران وطوران . وقصة تقدمها الهائل وهزائمها الجزئية ونضالها ضد عباد النار وضد المسلمين والبراهمة والأشكال المختلفة التي تشكلت بها عند الأجناس المختلفة وفي المدينيات التي دخلتها أطول من قصة تطورها وتقلبها . ولو أراد الإنسان في هذا الاضطراب المتعرج الضخم الذي احتل أكبر القارات مدى خمسة وعشرين قرناً أن يستجلى وأن يحدد المظهر الأساسى لهذه الظاهرة لصح له أن يقارنها بعملية جراحية مفيدة ومضعفة أسيل فيها دم الحيوان الإنسانى ، وقد كان على نفسه قوياً قاسياً ، من أربع مفاصله لجعله ما ضاع منه ضعيفاً رقيقاً . وبذلك أصبح أقل نشاطاً وأكثر للاجتماع قابلية ؛ ومن ثم صار أقل خلقاً وأقل إنلاقاً .

الفصل الرابع

غاندى

(١)

غاندى والسلام

لم يفكر غاندى فى السلام العالمى فى عشرات السنين الأولى من نشاطه السياسى . ولعله لم يفكر فى هذا السلام العالمى أبداً على النحو المألوف اليوم عند أنصار السلام فى الشرق أو فى الغرب . لكن نشاطه وتفكيره كانا يؤديان بطبيعتهما إلى السلام . سواء فى داخل الشعوب ، أو فيما بين الشعوب .

وكان طبيعياً ألا يفكر غاندى فى السلام العالمى فى الأطوار الأولى من نشاطه فى جنوب أفريقيا ، ثم فى الهند . ذلك أنه ابن أمة كان يحكمها الأجنبي بالقوة المسلحة ، بعد أن استولى عليها كذلك بالقوة المسلحة . وكان غاندى يحسب — إلى ما بعد الأربعين من سنه — أن هذا الحكم الأجنبي قضاء محتوم فرضه القدر على وطنه ، فلا سبيل للتخلص منه ، إنما الخير كل الخير فى مداراته لاستخلاص ما يستطيع استخلاصه . من برائته لفائدة الشعب الهندى . فلما رأى هذه السياسة غير المقدية

إلى الغاية المرجوة منها تطور تفكيره شيئاً فشيئاً حتى انتهى إلى ضرورة جلاء بريطانيا عن الهند ، وإلى استقلال هذا الوطن العزيز عليه . فلما بدأت نذر الحرب العالمية الثانية بدأ يفكر في السلام وصيانه تفكيراً يتفق مع دعوته « عدم التعاون في غير عنف » ، على أنها أمضى سلاح لتحقيق غرضه الأساسي ، استقلال الهند وحرية بنيتها جميعاً .

وقد كان التطور في التفكير بعض ما تميز به غاندى عن كثيرين من الدعاة وذوى المبادئ الثابتة . صحيح أن أفكاره الأساسية لم تتغير ، بل بقيت ثابتة منذ بدأ جهاده في جنوب أفريقيا إلى أن مات . لكن هذه الأفكار الأساسية كانت تصور نشاطه العملي أكثر مما كانت تصور اتجاهاته الذهنية في رسم المبادئ التي يراها واجبة لخير الإنسانية . أما هذه الاتجاهات الذهنية فكانت دائمة التطور . وأحسبها كانت ستبقى كذلك ، وأن العالم كان يفيد من تطورها الشيء الكثير ، لو أن حياته لم تنته بمقتله ، ولو أنه مد له في الحياة إلى الأجل الذي كان يرجوه لنفسه .

وغاندى يقر هذا التصوير ويقرره . طاب إليه بعضهم أن يكتب رسالة يسرد فيها مبادئه التي تقوم عليها رسالته . فكان جوابه : « لأننى رجل عمل ولست رجل فلسفة . وكلما عرضت لى مشكلة دويت فيها واستخرت الله وصليت له فهدانى إلى الخطة التي أنتهجها لمواجهة هذه المشكلة ثم وفقنى في هذه الخطة كل التوفيق . »

لست أقصد من هذا إلى أن آراء غاندى واتجاهاته تناقضت

أو اضطربت . وإنما أقصد أن هذه الآراء أو الاتجاهات كانت دائمة التوالد . فهو لم يقف قط عند فكرة يكررها ويردها ، بل كانت أفكاره حياة حياة الإنسان وحياة الوجود ، تتخلق كل فكرة منها ، فكرة جديدة وخلقةً جديدةً يتطوران إلى فكرة وخلق جديدين . تتصل كلها بالفكرة الأساسية التي وجهته منذ نشأته السياسية ، والتي لازمته طيلة حياته .

وهذه الفكرة الأساسية تتلخص في كلمة واحدة : الكرامة الإنسانية ؛ الكرامة الإنسانية لكل رجل ولكل امرأة في الحياة الفردية الخاصة وفي الحياة العامة ، والكرامة الإنسانية للجماعة في القرية وفي المدينة وفي الولاية وفي الشعب بأسره وفي الجماعة الإنسانية . أينما كان أفرادها وجماعتها . الكرامة الإنسانية يتساوى فيها الجميع بلا فارق بسبب الجنس أو اللغة أو الدين أو الطائفة أو اللون أو أى اعتبار آخر . الكرامة الإنسانية الأصلية في الإنسان بفطرته ومن يوم نشأته أيا كان العمل الذي يزاوله .

لم تكن هذه الفكرة الأساسية التي قامت عليها حياة غاندى ، والتي وجهت نشاطه ، نتيجة تفكير طارىء أو نظرة فلسفية خاصة ، بل كانت بعض نفسه وقوام حياته منذ مولده . تربى في ضوئها ونشأ في أحضانها . كان أبواه كرمي المعتقد ، وكان أبوه حاكماً محبوباً ، وكانت أمه نقيّة ورحمة صالحة . وكان أساس تنشئته الصدق . لما أتم دراسته الثانوية في الهند وفكر بعض أهله في إرساله للدراسة القانون في إنجلترا عارض آخرون ، ثم لم توافق أمه على سفره إلا أن يقطع على نفسه .

عهدا في ثلاثة أمور : ألا يأكل لحما ولا يشرب خمرا ولا يقرب امرأة . وقطع الفتى على نفسه هذا العهد ووفى به لأن الصدق كان بعض فطرته ، فكان يراه من موجبات الكرامة الإنسانية ، وكان لا يعدل به لذلك في الحياة شيئا .

فلما عاد إلى وطنه محاميا ثم ندب في قضية إلى جنوب أفريقيا لم يلبث أن واجهته التجربة القاسية الأولى التي وجهت حياته من بعد . كانت القوانين والتقاليد في تلك البلاد تفرق بين البيض والملونين من سكانها تفرقة تهدر كرامة الملونين ، فلا تبيح لهم أن يتساوا مع البيض في المتاع بما يشاءون من ألوان الحياة . وقضت التقاليد أن ينزع غاندى من مجلسه في عربة الدرجة الأولى بسكة الحديد رغم أنه يحمل تذكرتها فأبى فألقي به من القطار فبات على طوار المحطة . وعومل مثل هذه المعاملة حين ركب مع جماعة من البيض عربة تجرها الجياد إلى جوهانسبرج . عند ذلك ثارت نفسه وأخذ يقص على بني وطنه من الهنود ما أصابه فيبتسمون ثم يجيبونه بأنهم يعاملون بأقصى ما عومل ، وأنهم ألفوا هذه المعاملة ، وينصحون له أن يسكن إليها فلا سبيل إلى خير منها . وازدادت ثورته لما سمع . لأن كرامته الذاتية لم تكن وحدها إذ هي التي تهدر ، بل كرامة أبناء وطنه المقيمين في تلك البلاد ، ومن ثم كرامة وطنه . وكرامة هذه الجماعة الإنسانية الضخمة التي تضم مئات الملايين . كيف لا يدافع قوم عن هذه الكرامة . إن عليه أن يؤلهم للدفاع عنها وأن يلتمس الوسيلة للظفر في هذا الدفاع بما يريد .

ولكن كيف يؤلبهم . وأى سلاح ينتضيه معهم لمقاومة هذا العدوان على كرامتهم . إنه يعلم وأنهم يعلمون لأنهم إن يفعلوا فيخولوا بالنظام أخذهم القانون بقسوته ، ثم أهدرت مصالحهم ، ولم يجد أكثرهم لقمة العيش الذى اغترب عن وطنه فى سبيل الحصول عليها . أفيستطاع والحال هذه جمع كلتهم ، وبث الطمأنينة فى نفوسهم وحملهم على الدفاع عن كرامتهم الإنسانية ولو فقدوا لقمة العيش . فى هذا فكر غاندى . وهداه تفكيره إلى ضرورة إقناعهم جميعاً ، أغنياء وفقراء ، تجاراً وصناعاً وعمالاً ، بأن الكرامة الإنسانية أعلى من المال الذى نكسبه من التجارة ، ومن الجاه الذى نجنسه من الغنى ، ومن لقمة العيش التى يتصعب جبيننا عرقاً فى سبيلها . وإن القوانين والتقاليد إنما تفرض عليهم ما يدرغ كرامتهم الإنسانية فى التراب لأنهم يرضون تمريضها مقابل ما ينالهم من نفع مادى ، وأن الحكومة وجماعة البيض الذين يعاملونهم هذه المعاملة فى حاجة إلى عمل هؤلاء الهنود وإلى مهارتهم فى هذا العمل ، ولولا هذه الحاجة لما أبقوا عليهم ، بل لأخرجوهم من البلاد . وإن عدم تعاون هؤلاء الهنود عمالاً وتجاراً وصناعاً مع البيض ومع الحكومة يشل الحياة الاقتصادية من غير حاجة إلى أية مقاومة إيجابية أو مخالفة للقوانين ، وإن سلطان القانون لا يمكن لذلك أن ينال هؤلاء المعزين بكرامتهم ماداموا لا يرتكبون إثماً إيجابياً يجرمه هذا القانون ، وإن كرامة هؤلاء الأتلف المؤلفة من الهنود رهن إذن بإرادتهم ، فإذا أرادوا المحافظة على هذه الكرامة لم تستطع قوة أن تنزلهم عنها ، بله أن تمرغوا فى التراب .

ولكى يكفل النجاح فى تجنيد هذه الألوف المؤلفة من الهنود المقيمين فى جنوب إفريقيا أنشأ للعمال قرى على مقربة من أماكن عملهم ، وعاش هو وزوجته وأبناؤه معهم فيها ، وأنشأ لهذه المجموعة الهندية كلها جريدة تنطق باسمهم وآمان على الملأ لإنكارهم للظلم المنازل بهم . بذلك أعد عدته للنضال فى سبيل الكرامة الإنسانية ثم بدأ نضاله السلمى البعيد عن كل مظهر من مظاهر العنف ، وبدأ يعان فى جريدته أنه وأبناء وطنه لا يطلبون إلا الحق الطبيعى المعترف به لكل إنسان فى كل أمة متحضرة : أن يتساوى أمام القانون وفى الواقع مع غيره فى الحقوق والواجبات فلا يلزم بأداء ضريبة لا يؤديها غيره ، ولا يحرم من الإقامة فى محلة يقيم فيها غيره ، ولا يفرض عليه لون من الحرمان لا يفرض على غيره . بذلك يستطيع التعاون مع سائر المقيمين فى البلاد لخير الجميع . فإذا أبت القوانين أو التقاليد بعد أن تعترف له بهذا الحق فن واجبه لكرامته الإنسانية ألا يتعاون مع من يحرمونه من هذه الحقوق ، وأن يقف فى حدود عدم التعاون فى غير عنف ، فلا يخل بالنظام ولا يخرج على القانون . فإن أبت السلطات مع ذلك إلا أن تحرّم عليه عدم التعاون فن حقه ألا يطيعها ، ولها أن تفعل به ما تشاء . لها أن تزج به فى السجون ، ولها أن تنزل به ما تشاء من عقاب ، فلن يوهن ذلك من عزمه ، ولن ينزله عن إرادته ، ولن يحمله على الخروج على ما أخذ به نفسه من عدم العنف ، ولن يلجئه إلى مخالفة القانون .

وكانت هذه هي الستيا جراها : قوة الحق الدافعة من غير حاجة إلى أى عنف .

ونجحت الحركة واضطرت السلطات إلى مفاوضة غاندى ، وإلى النزول عن كثير مما كانت تفرضه على هؤلاء الهنود ، مما لا يرضاه الكرامة الإنسانية .

أترى هذا النضال الذى طال أمده سنوات سلاماً أم دعوة للسلام ؟ لا أظن أحداً من أنصار السلام فى عهدنا الحاضر أرى العهود السابقة يحجب عن هذا السؤال بالإيجاب ، بل لعلمهم يرون فى هذا النضال نوعاً من التمرد على النظام القائم فى جنوب أفريقيا لا يتصل بالسلام العالمى من قريب أو من بعيد .

ولم يدر بخاطر غاندى أن يطرح على نفسه مثل هذا السؤال . لذلك لم ينسكرك الحرب التى قامت بين إنجلترا والبوير ، بل أمان فيها الإنجليز بأن أنشأ فرقة إسعاف Ambulance corps لإسعاف جرحاهم فى الحرب .

وعاد غاندى بعد ذلك إلى الهند وفكرة الكرامة الإنسانية بتساوى فيها الناس جميعاً هى المتسلطة عليه ، بل لعلمها كانت أكثر سلطاناً على نفسه بعد أن قرأ وهو فى جنوب أفريقيا دعوة تلتوى الاشتراكية ، وبعد أن اقتنع بأراء رسكن بأن خير الفرد يحتويه خير الجماعة ، وبأن عمل المحامى وعمل الخلاق متساويان فى الاعتبار فغاية كليهما كسب العيش ، وبأن حياة العمل ، أى حياة الزارع وحياة الصانع ، هى الحياة الحقيقية بالعيش . هذه حقائق آمن بها إيمانه بعدم العنف وبعدم

التعاون في غير عنف ، وبأن الحق وحده منتصر آخر الأمر لاحالة ، على أن يكون صاحبه صادق الإيمان به ، متخذاً إياه إمامه في تفكيره وقوله وعمله فلا يمارى فيه نفسه ولا غيره ولا يتخذه أحيولة لغاية يبطنها ويظهر غيرها ، بل يسلك سبيله المستقيم إلى الغاية التي يريد بلوغها .

عاد إلى الهند ولم يلبث بها طويلاً حتى كانت نذر الحرب العالمية الأولى ، حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ تقترب . فلما نشبت الحرب لم يفكر غاندى في تجنبها ، أو في إنكارها ، بل اندفع يدعو أبناء وطنه إلى الجندية في صفوف الامبراطورية البريطانية ، يرجو بذلك أن تفيد الهند لحريتها يوم تضع الحرب أوزارها . فلما انتصرت بريطانيا في هذه الحرب ثم لم يتحقق لوطنه ما كان يرجوه عاد يفكر في نضال الامبراطورية الظافرة في الحرب ليستخلص من بين برائتها حرية هذا الوطن العظيم العزيز .

لم يفكر غاندى إذن في السلام العالمى يوم نشبت تلك الحرب التي خاضت الولايات المتحدة غمارها وشعارها أن تحارب للقضاء على الحرب وعلى فكرتها في العالم a war to end all wars . وأخذ غاندى يناضل الامبراطورية الظافرة في الحرب بسلاحه وهو عدم التعاون في غير عنف non - violent non-cooperation ليमानا منه بأن الهند على حق ، وبأن سلاح الحق أمضى سلاح ، وبأنه سلاح القوى المؤمن بقوة الإنسانية ، قوة الإرادة التي لا تقهر وأنه

لذلك أعز من القوة المادية ، قوة السلاح المخرب والقتال . فادعنا نأبى أن تهدر كرامتنا ، وما دعنا لا نتعاون مع من لا يحفل بهذه الكرامة ، فلن يستطيع أحد أن يقهرنا ، وإن استطاع أن يضعنا في السجون وفي المعتقلات ، وإن استطاع أن يقتلنا ونحن وقوف على أقدامنا نرفض الإذعان له والركوع أمامه .

واستجابت الهند كلها لدعوة غاندى وناضلت الامبراطورية العظيمة في غير عنف ومن غير حق . فقد كان غاندى يرى الحق ضمعا كالعنف سواء بسواء .

استجابت الهند إذن لدعوة غاندى لأنها رأتها صادقا كل الصدق في احترام الكرامة الانسانية لبنى وطنه جميعا ! حتى لقد ناضل أبناء وطنه أنفسهم إذا كانوا يفرقون في اعتبار هذه الكرامة بين طائفة من أبناء الوطن وطائفة أخرى . فقد كان في الهند بضعة عشرات من الملايين « منبوذين » لا تقرهم طائفة من طوائف الهند الأربعة ولا يقريونها ، حتى لكان خيال المنبوذين نجسا يجب التطهر منه ، ولكان الماء الذى يشرب منه المنبوذين نجسا كذلك يأبى غيره أن يشال منه ربه . بل لقد كان من هؤلاء المنبوذين من لا يستطيع الظهور نهارا لأن منظره كان نجسا فلا يصح أن تقع عليه عين أحد من غير أبناء طائفته . وقف غاندى إلى جانب هؤلاء المنبوذين ونادى بأنهم إخوانه وإخوان كل هندی أيا كانت طائفته . بل لقد كان في تجواله الدائم في أرجاء الهند المختلفة يقيم بين هؤلاء المنبوذين ولا ينزل إلا في أحيائهم . وكثيرا ما كان يصطحب صبيا من أبنائهم في زيارته لأتباعه من الطوائف

الأخرى . ذهب مرة إلى صديق له من الطوائف العليا ومعه صبي منبوذ لا يؤاكله ولا يشاربه ولا يتصل به أحد ، فضاق أهل الصديق بالصبي ذرعا ، ومرض الصبي فإذا غاندى يقيم إلى جانب سرير يمرضه . كيف والمهاتما يصنع هذا الصنيع يرض الآخرون بمثله . واضطر أهل البيت جميعا - على ما لطائفهم من علو المنزلة - أن يصنعوا صنع المهاتما العظيم وأن يسبخوا على الطفل المنبوذ عنايتهم حتى أبل من مرضه ، ثم كانوا من بعد البربه والمحبة له كأنه أحد أبنائهم ، بل من أحب أبنائهم لأبيهم . وهذا الإكرام الذى أسبغه غاندى على المنبوذين سموا بالكرامة الإنسانية للناس جميعا دن كل معنى من معانى التفاوت قد كان له الأثر الأكبر فى استجابة الهند لدعوة غاندى . فقد شعرت الطوائف كلها بأن الفوارق التى أقامتها عشرات القرون بينها تنهار ، فإن الدعوة الجديدة لحرية الكافة يتمتع بها كل فرد حقيقة بأن تجمع أبناء الهند كلها ، وهم أربعائة مليون فى صعيد واحد ، متساوين فى ظل الوطن وإن اختلفت نحلهم وأهواؤهم ومنازلهم وما يزاولون من عمل .

واستجاب نساء الهند لدعوة غاندى كما استجاب إياها رجالها . ذلك أن المرأة الهندية كانت من الرجل بمنزلة الرقيق كشأن المرأة الأوروبية من الرجل فى العصور الوسطى . كانت تدفن حية معه إذا مات ، وكانت تعامل فى حياته على أنها خادمه وخدام أولاده . وقد ارتفع بها غاندى إلى مستوى من الكرامة الإنسانية يعادل مستوى كرامة الرجل ، وجعلها عديله فى الكفاح لكرامة الوطن والنضال من أجل حريته . فكان لها فى معارك عدم التعاون فى غير عنف

مكان كسكان الرجل أو أعز من مكانه في بعض الأحيان ، وجعل لها من الاحترام في الحياة الاجتماعية ما لم يفكر فيه رجل أو امرأة في الهند قبله ، وما لم يفكر أحد في اقنحام أسوار التقاليد القديمة التي كانت تفرض على المرأة عبوديتها للرجل .

بذلك كله اجتمع أربعمائة مليون أو يزيدون حول هذا الرجل النحيل العظيم المجاهد في سبيل الكرامة الإنسانية للفرد وللجماعة وللشعب كله . وبهذا وقفت الهند كلها عزلاء من السلاح في وجه الامبراطورية البريطانية العظيمة تقارم بسلاح الماثابرة في سبيل الدفاع عن كرامة الإنسان وكرامة الوطن بهدم التعاون في غير عنف ومن غير حقد مع المعتدى على هذه الكرامة .

ولم يكن هذا النضال سلاماً أو دعوة إلى السلام على النحو المألوف اليوم عند أنصار السلام . ولكنه كان نضالاً يؤدي بطبيعته — على ما سنرى — إلى السلام ، على أن يكون سلام الأحرار لا سلام العبيد .

لم يعلن غاندى إلى سنة ١٩٣٠ أنه يطمح من نضاله هذا في أكثر من بلوغ الهند مرتبة الحكم الذاتي . ولعل تفكيره الذي تطور من معاونة انجلترا في حرب البوير إلى تجنيد الهند إلى جانبها في الحرب العالمية الأولى ابلوغ هذا الحكم الذاتي — حتى لقد منع من أجل ذلك مدالية قيصر الهند — قد كان يطمئن ويرضى لو أن الحكومة البريطانية أجابت رغيبته . فلما لم يبلغ من ذلك لوطنه ما أراد نادى بالاستقلال التام للهند في سنة ١٩٣٠ ، وطالب البريطانيين بالجلاء الكامل عنها

وأذاع كلمته المشهورة : « افعلوا أو موتوا Do or die » . بذلك تطور تفكير المهاتما في تصوير الغاية من نضاله ، وإن بقي سلاحه في هذا النضال هو عدم التعاون في غير عنف ، مع تطور هذا السلاح كذلك في صور كانت تتعدى في بعض الأحيان دعوته فيشوبها من العنف مالا يرضى عنه ، فيصوم تكفيراً عن خطايا الذين أخطأوا ، فيرد صيامه المخطئين إلى صوابهم .

وكان العنف يقع أكثر الأحيان بسبب مبالغة السلطات البريطانية في قمع الحركات الاستقلالية الخالية من العنف . لكنه كان يقع في بعض الأحيان بين طوائف الهند أنفسهم بسبب الخلافات الدينية والمذهبية . ولقد وقع غير مرة بين المسلمين والهندوس وكان دأى الآثار . في هذه الأحيان كان غاندى يصوم ويطول صيامه تكفيراً عن خطأ هؤلاء وأولئك . وفي هذه الأحيان جميعاً كان صومه يجمع العنف ويرد السلام يرفرف لواؤه على المتخاصمين .

ولم يكن غاندى يتحيز قط لبني دينه ، كما أنه لم يكن قط يتحيز للمسلمين ، ذلك بأنه كان عظيم التسامح ، وكان يحترم الأديان جميعاً أصدق الاحترام ، وكان يرى لذلك في ارتداد الرجل عن العقيدة التي نشأ عليها مالا يتفق والكرامة الإنسانية . حاول بعض المبشرين حين مقامه في جنوب أفريقيا أن يقدموه باعتراف المسيحية ، وأعطوه الأناجيل فقرأها وأعجب بما فيها من دعوة للحب والسلام ، واشتد إعجابه « ببناء الجبل The sermon on the mount » ، حيث يقول المسيح : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر » ،

ثم اعتذر مع إعجابه هذا عن الاستجابة لدعوة المبشر الذي دعاه إلى المسيحية بأن في دين قومه ما يتفق ودعوة المسيحية للمحبة والرحمة والسلام ، وبأنه لذلك لا يرى أن يخالف قومه عن عقيدتهم وهو منهم ، ومنهم آباؤه وأجداده وأصدقائه وأولياؤه . وكثيراً ما كان يشير إلى الأخوة الإسلامية إشارة لإجلال وإكبار . لذلك كان يمتنع التعصب أشد الممتنع ، وكان يرى ما يقع من عنف بسبب اختلاف العقيدة الدينية إنما جديراً بالتكفير عنه . أما هؤلاء الذين يلجأون إلى العنف لا يدركون خطيئتهم ليكفروا عنها ، فليكفر هو عن خطيئتهم بالصوم ليردهم إلى حمى الحق والتسامح والإخاء ، ويذهبهم إلى أن الأديان جميعاً تحفظ على الإنسان كرامته ، وتهديه السبيل لخير ، ولرضا الله عنه ، وأنها جميعاً تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتدعو إلى الإخاء والمحبة والسلام .

وكانت المحبة عنوان الكرامة الإنسانية في كل تعاليمه . ذلك بأنه كان يرى الحقد والكراهية ، كما كان يرى العنف ، ضعفاً غير لائق بهذه الكرامة ، ويرى الضعيف بحقه أو كراهيته أو بعنفه حقيقة بالإشفاق ، على أن لا يكون إشفاق ازدراء أو تحقير ، بل إشفاق محبة وحرص على علاج هذا الضعف . لهذا كان يناضل البريطانيون من غير أن يحقد عليهم أو يكرههم ، بل كان يحرص على أن يتفاهم معهم كلها وجد منهم استعداداً للتفاهم ، فإذا لم يصل من هذا التفاهم إلى تحقيق ما يريد عاد يناضلهم في غير حقد ولا كراهية ، مؤمناً بأنه

سيبلغ يوماً غايته ويحقق استقلال بلاده ، وبأن البريطانيين سيجلون عن الهند من غير أن تكون في أنفسهم مرارة ضد الهنود ، أو أن تكون في نفس الهنود مرارة ضد البريطانيين .

وأساس المحبة التضامن في سبيل المصلحة العامة . أما التنافس في سبيل المنافع الخاصة فيخلف الاحتكاك وما يؤدي إليه من حقد وموجعة . والناس إنما يتنافسون على المنافع المادية يريدون الاستكثار منها بما يضر روحانيتهم ، ومن غير أن تكون لهم بهذا الاستكثار حاجة . ولو أنهم حرصوا على السمو بروحانيتهم حرص الغربيين اليوم على المتاع بماديات الحياة لاستمتعوا بالحياة أضعاف ما يستمتع بها محب أعباء المادة ، ولكانوا إخواناً متحابين يربط التضامن بينهم بأوثق رباط .

والتنافس يؤدي إلى الحقد وإلى الموجعة ، لأنه يؤدي إلى استغلال عمل الغير لفائدة المستغلين ، وهو ينطوي لذلك على ظلم يثير نفوس من يستولى غيرهم على جانب من ثمرة عملهم باسم الفائدة على رأس المال أو بأي اسم آخر . فأما الحق عند غاندى فذلك أن ينال كل ثمرة عمله ويحصل على أسباب عيشه ، وهذا ما يسميه هو : العيش العمل . هذه مبادئ غاندى التي ترتب عليها نتائجها . ومن هذه النتائج عداؤه الصريح للصناعات الكبرى ، ودعوته الصريحة للعمل اليدوى ، واتخاذة عجلة النسيج اليدوى عنواناً لدعوته ، واكتفاؤه في الحياة بما يقيم الأرد ليستطيع بعد ذلك أن يستمتع من نعيم الحياة الروحية بأوفر نصيب .

ولأنما تبلغ الشعوب المرتبة السامية التي تؤدي إليها هذه المبادئ عن طريق التربية والتعليم . ولهذا وضع غاندى برنامجاً خاصاً للتعليم بدأ يعاقبه في المحلات التي أنشأها ، وفي بعض مدن الهند لتكون نموذجاً يحتذى به غيرها حين يرون نتائج هذه التربية وهذا التعليم .

* * *

كيف تؤدي تعاليم غاندى ووسائله إلى السلام داخل الشعوب وفيما بين الشعوب .

لما تلبد جو أوروبا بنذر الحرب في صيف سنة ١٩٣٨ حين أراد هتلر أن يضم جانباً من تشيكوسلوفاكيا إلى أرض الرايخ الألماني ، كتب غاندى يدعو التشييك إلى عدم مقاومة هتلر بالسلاح إذا حارلت جيوشه أن تحتل بلادهم ، وأن يقاوموه بعد ذلك على طريقة غاندى : عدم التعاون في غير عنف ، والعصيان المدني إذا اقتضى الأمر هذا العصيان . ووجه غاندى رسالته إلى هتلر نفسه ينهاء فيها عن الالتجاء إلى العنف ، كما وجهه إلى البريطانيين رسالة كالتى وجهها إلى التشيكوسلوفاكيين . ولم تنتج رسائل غاندى هذه ، بل وقعت الكارثة . واكتوى العالم بنيران الحرب منذ سبتمبر سنة ١٩٣٩ وهو لا يزال إلى اليوم يعاني من آثارها ما يكاد يدفع إلى حرب عالمية ثالثة ضروس . ومادى غاندى ببلغ من التفاؤل أن ظن أن تعاليمه يمكن أن توتى ثمرتها في غير الهند لمجرد رسالة يبعث بها إلى التشييك أو إلى هتلر أو إلى البريطانيين . وإنما توتى هذه التعاليم ثمرتها رويدا رويدا بانتشار

المبادئ التي أوجزناها عن طريق التربية والتعليم والدعاية ، فإذا بدأت تستقر في النفوس وتطمئن لها العقول اتجه العالم كله وجهة جديدة تسمو بالروح إلى المسكن الواجب لها في الحياة الإنسانية ، ويومئذ تخضع المادة لحاجات الروح ، بدل أن تخضع الروح لإغراء المادة ولتأعها الكاذب الغرور .

وإنما تؤدي تعاليم غاندى بطبيعتها إلى السلام لأنها تقضى على أسباب الحرب والنزاع ، ما كان صحيحاً منها وما كان مفتعلاً ليجرد الدعاية وإثارة النفوس لحوض غمار الحرب .

كان الدين من أسباب الحرب في عصور كثيرة . وقد ثارت الحروب الصليبية في القرون الوسطى باسم الدين ، على الرغم من أن المسيح صاحب الصليب كان من أكبر دعاة السلام في العالم . ومن قبل ذلك قامت الامبراطورية الاسلامية في أطوارها المختلفة على أسنة الرماح ، مع أن القرآن يقول : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » . ومن أسف أن هذه العقلية المناقبة لتعاليم الأديان كلها ظلت عالقة بالنفوس ، حتى لقد قال المارشال أللني قائد الجيوش البريطانية التي دخلت يلبت المقدس في سنة ١٩٣٨ : « الآن انتهت الحروب الصليبية ،

ولعل إدراك غاندى لهذه الحقيقة هو الذي دعاه بعد أن أسقطت الهند واختارت نطاق السكوت البريطانى يقول ، يوم اشتد الخلاف بين الهند والباكستان على كشمير ، إنه على مقتله الحرب وعدم تسليمه بجوازها ، يخشى أن تصبح بين الدولتين ضرورة لا مفر منها . وقد

أؤخذ بهذا الرأي الذى يتناقض مبادئه ، وظن بعضهم أنه كان أولى به أن يصوم ليجنب الدولتين مثل هذا الاحتمال المخوف بالنسبة لهما جميعا .

انتهت الحروب الصليبية . والحروب والمذابح التى وقعت فى أوروبا المسيحية بسبب الخلاف المذهبي مبرورة . والتعصب أهم الدوافع التى تحرك الجماهير لمتابعة الدعاة إلى الحرب باسم الدين ولو لم يكن الدين هو الدافع الحقيقى لهذه الحرب . وقد قضت تعاليم غاندى على هذا السبب من أسباب الحرب . فالأديان عنده كلها مقدسة ولا يجوز من ثم أن يتعصب أحد لدين على دين ، أو أن يقاتل نصرة لدين على دين ، وهذا التسامح الذى نادى به غاندى ، قد نادى به من قبل فولتير واعتبره أساس السلام فى العالم . لكن أحدا لم يسمع لفولتير لأنه لم يكن متدينا ، بل كان حرا الفسك ، متبها فى دينه به ، موصوما بالإلحاد . أما غاندى فكان متدينا مسلما نفسه لله فى كل أعماله وتفكيره . فدعوته إلى التسامح الدينى دعوة صادقة خالصة لوجه السلام ، دعوة مصدرها الروح المتصل بالمالأ الأعلى ، وليس مصدرها مجرد الحرص على الحرية العقلية . ولهذا نصح غاندى إلى مدى بعيد فى القضاء على الثورات والمذابح العنيفة التى كانت تقع فى الهند الحين بعد الحين ، مع ما بين الهند وأوروبا من فرق فى الثقافة يحمل أوروبا أكثر مما يحمل الهند إلى التسامح الدينى .

وتذهب كثرة المؤرخين إلى أن الدين اتخذ فى الماضى كما تتخذ الحرية والديموقراطية اليوم وسيلة للدعاية للحرب ودفع الناس إلى مجازرها .

وأن السبب الحقيقي للحروب قد كان السبب الاقتصادى . وليس شك فى أن هذا السبب الاقتصادى هو الدافع الأقوى والمحرك الأول للحروب ، وأن ما يختلط به بعد ذلك من عوامل دينية أو جنسية أو سياسية يستطيع التغلب عليه من غير حرب لولا هذا العامل الاقتصادى . وهذا ما أدركه غاندى وعالجه بوسائله المختلفة .

وأولى هذه الوسائل السمو بالحياة الروحية سموا بالكرامة الإنسانية عن أن تخضع لإغراء المادة على نحو يذلها . ولقد كان مثله الذاتى وإيمانه الراسخ هما الحجة الملبوسة الدامغة على أن المتاع الروحى أعظم من كل متاع ، وأنه وحده هو الذى يجعل للحياة قيمتها ، والذى يبلغ بالإنسان من القوة إلى حد لا تغلبه قوى الأرض مجتمعة . وأى مثل فى هذه القوة الروحية كمثل حياة غاندى إلا أن تكون حياة الأنبياء والقديسين . فهو رجل ألقى تحت أقدامه الجواهر ، وقدم إليه البريطانيون أنفسهم أسباب الجاه والسلطان ، وكان فى مقدوره أن يباغ كل ما يطمع أكبر الأغنياء وأعظم ذوى الجاه والسلطان بلوغه ، فازدري هذا كله ، وعاش عيش الفقراء ، وآثر حياة المنبوذين سكنا له ، ولم يحفل السجن ولا الموت ، وكان مع ذلك لا يعرف الحقد ، بل يحب الناس جميعا ، ويجب خصومه بل أعداءه . ثم كان فى نظر الإنسانية كلها الإنسان المثالى الذى يطمع أعظم الملوك فى أن يبلغ بعض ما بلغ ، أليس ذلك دليلا على أن المال وما يتبعه من المتاع المادى ليس إلا متاع الغرور والخوف الباطل فى الحياة .

وإذا كان ذلك شأن الفرد فهو كذلك شأن الأمة . فالأمة المستغنية عن غيرها ، المحافظة على كرامتها القومية والإنسانية ، الفانعة بمواردها ، العاملة على استثمار هذه الموارد دون حاجة إلى الغير . هي الأمة التي تستطيع أن تقاوم غيرها من غير عنف ، فلا يجد هذا الغير وسيلة لاستغلالها ، ولا خير له من ثم في بذل النفقات لإخضاعها . فإذا سلكت الأمم كلها هذا السبيل وقاومت من يحاول استغلالها بالوسائل بالوسائل غير العنيفة التي سلك غاندى سبيلها لم يبق لأمة في الحرب مصلحة ، ومن ثم كان ذلك سبيل السلام العالمى .

وقد صورنا من قبل طرفا من الوسائل التي دعا إليها غاندى لإدراك هذه الغاية . فعدم التعاون في غير عنف والعصيان المدني والإضراب والمقاطعة ، كل ذلك في غير عنف كذلك . والارتقاء بالشعب عن طريق التربية والتعليم ليدرك مألوسه من قوة لا تغلب . فإذا امتثلت الشعوب هذه الآراء والمبادئ تجرت في أوردة حياتها ، وتيقن البغاة أن لا فائدة يجنونها من وراء التغلب عليها ، زالت الحروب بزوال أسبابها .

يبدو جليا مما تقدم أن غاندى سلك في تعاليمه وفي وسائل نضاله سبيلا يؤدي إلى السلام من غير أن يسلك الطريق الذي سلكه دعاة السلام من قبل . وهذه التعاليم وهذه الوسائل كلها نضال في سبيل السلامة الإنسانية كيما يستقر في العالم سلام الأحرار لا سلام العبيد . فلم يكن غاندى يعرض سلاما كالسلام الرومانى Paxa Romana تفرضه أمة غالبية على أمة مغلوبه ، فإن حاولت إحدى هذه الدول الإخلال بهذا السلام جردت الامم اطورية قواتها لتعاقب الأمة

المتمرتدة واتردها إلى حى الطاعة والإذعان . ولم يكن غاندى يعرض
 سلاما أساسه الخوف من الحرب وأهوالها وكوارثها ، فثل هذا السلام
 تضطرب قوائمه إذا استطاع العلم يوما أن يبدع الوسائل لاتقاء هذه
 الأهوال والكوارث . ولم يكن غاندى يعرض سلاما لقارة كدأوربا
 يمكنها أن تتحكم فى غيرها من القارات على غير ما كانت روما تتحكم فى
 عهد ذلك السلام الرومانى ، بل كان لايرضى عن عبارة دأسيا للأسيويين ،
 إذا قصد بها اعتزال أسيا من سواها من قارات العالم . لأن الاعتزال
 لم يكن سلاما فى نظره .

لم يكن غاندى يعرض هذه الصور للسلام ا على حين كان مثله
 وكانت تعاليمه ورسائله دعوة للسلام بطبيعتها . فالسلام على ما يفهمه
 أهل الشرق والغرب جميعا هو النقيض للحرب التى يعرفونها ، الحرب
 التى يستبيح فيها الإنسان قتل الانسان للاستعلاء عليه واستغلاله .
 الحرب التى تعد لها كل دولة من آلات التدمير والفتك ما تقابل به
 أمثال هذه المعدات عند غيرها من الدول . وما أيسر ما تقول كل دولة
 إنها تحارب دفاعا عن نفسها ا أو نصرة لغضبة السلام ، أو لغضبة
 الحرية والعالم الحر ، أو لمثل ذلك من الدعايات المختلفة . أما غاندى
 فيشكر هذه الوسائل كلها ، وهو مع ذلك رجل نضال فى سبيل الحرية
 والكرامة الإنسانية . وهو يرى قوة الحق لذاته . وقوة الروح الممتلئة
 إيمانا بهذا الحق ، أمضى من كل سلاح وأكفل ببلوغ النصر . وحسبه
 دليلا على صدق نظريته ووسائله أن بلغ بها الغاية التى قصد إليها
 من تحرير الهند ، تلك القارة التى تضم نحو أربعمائة مليون من البشر ،

فحررها من فوارق الطبقات ، وحررها من التمهصب الدينى ، وحررها من كل صور التفرقة بين الأجناس والألوان ، والرجال والنساء ، وبلغ بها إلى الأغراض التى احتوتها وثيقة حقوق الإنسان كما وضعها الأمم المتحدة من بعد ، ثم حررها من الاستعمار البريطانى ، وبلغ بها إلى مكان العزة والكرامة فى حمى الاستقلال والحرية .

* * *

ولنلخص الآن ما سبق عن تعاليم غاندى والوسائل التى انبمها لتحقيق تلك التعاليم ، من حيث اتصالها بفكرة السلام فيما بلى :

١ - السلام الحقيقى هو سلام الأحرار لاسلام العبيد . واطمئنان هذا السلام داخل حدود الدولة الواحدة يكفل السلام فى علاقات الدول بعضها مع بعض .

٢ - الحرية الحقيقية هى حرية الروح فى إيمانها بالحق الذى تتقنع به وتطمئن إليه ، وليست حرية المتاع المادى الذى يضل الروح عن طريق الحق .

٣ - قوة الروح المستمدة من الحق أمضى من كل سلاح ، لأن صاحبها لا يعبأ بما يصيبه فى سبيل هذا الحق ، ولو كان ما يصيبه هو الموت .

٤ - الأديان كلها تمثل الحق الذى يلهمه الله من يختارهم من عباده المصطفين ، وكلها تدعو إلى المحبة والسلام ، فلا يمكن أن تقوم حرب لنصرة دين على دين ، لأن الحرب تنساقى بطبعها مع المحبة والتسامح والسلام .

٥ - كل عمل شريف ما دام نزيها . والعمل هو الذى يجعل صاحبه الحق فى العيش وفى الحياة ، وكل من يعيش بغير عمل يسلب العامل عرق جبينه ويسلبه لذلك حرّيته ، ويعمد من ثم لاضطراب السلام .

٦ - الاستعمار والامبريالية ، استغلال شعب لشعب بغير حق ، وهو لذلك من أسباب الحرب ما بقيا فى العالم ، فيجب القضاء عليهما قضاء مبرما .

٧ - من اليسير نضال الاستعمار بغير عنف ومن غير حقد عن طريق عدم التعاون ، والإضراب ، والمقاطعة والعصيان المدنى وكل وسائل النضال البعيدة عن العنف ، والمستندة إلى الحق وحده .

٨ - التربية والتعظيم من الحقوق الأولية للجميع ، وهما لذلك من أسس السلام ما قاما على قواعد سليمة .

٩ - يجب أن يكون الاكتفاء الذاتى أساس الاقتصاد القومى فى الزراعة والصناعة ، وأن يكون التبادل التجارى مؤيدا لهذا الاكتفاء الذاتى فلا يبنى عليه بحال .

١٠ - التعاون دعامة الاقتصاد القومى ، كما أن عدم التعاون فى غير عنف سلاح النضال القومى فى سبيل الحرية السياسية والكرامة الإنسانية . والناس أحرار ما تعاونوا متحابين .

١١ - واجب الدولة أن ترعى هذه المبادئ دون أن تتدخل بالعنف فى الشؤون العامة . بل يجب أن ينظم الناس فيما بينهم هذه الشؤون عن عقيدة واقتناع وإيمان .

هذه هي التعاليم الأساسية التي يقوم عليها السلام في رسالة غاندى .
وهى لا ريب تعاليم سامية حقيقة بكل إجلال وإكبار ، جديرة بأن
تؤدى إلى الغرض الأسمى — السلام — إذا طبقت على وجه صحيح .

* * *

والفكرتان الرئيسيتان عند غاندى (*) هما رأى الصدق والكرامة
الإنسانية . فالصدق عنده لا يعنى قول الحق خصب ، بل هو يتعدى
الحق فى التفكير ، وفى القول وفى العمل جميعا . ومن السهل أن تتفق
على الأفكار ما دامت مجرد أفكار أو مبادئ تناقشها ، فإذا جاء
وقت التطبيق ثارت الخلافات فى التفسير والخلافات فى رأى إلى أن
تطرح الفكرة نفسها جانبا .

فنحن نذكر ما حدث فى أعقاب الحرب العالمية الأولى حين وضع
الرئيس وودرو ويلسون مبادئه الأربعة عشر ، وانفق العالم أجمع على
أنها سوف تكون ذات نفع عظيم للإنسانية كلها . فلما اجتمع مؤتمرو
السلام فى فرساي وبدأ يبحث فى كيفية تطبيق هذه المبادئ تعددت
الخلافات بين الأعضاء فاستغرقت منهم معاهدات السلام ستة أشهر .
ولأننى لمتفق تماما مع مولانا أبو الكلام أزاد بأنه من خلال هذه
المعاهدة التى قصد بها إقرار السلام بعد الحرب العالمية الأولى بذرت
بذور الحرب العالمية الثانية .

لقد عقدت اجتماعات عديدة سواء عن طريق الأمم المتحدة
أو اليونسكو حول موضوع التوتر الذى نبحثه اليوم ، كما أعلنت

(*) ترجم هذا الجزء عن محاضرة للدكتور هيكى بالإنجليزية فى الهند .

(١٤ - الفرق الجديد)

بشأنه كثير من النصريجات الخلافة . فيها هو ذا كتاب عن اجتماع عقد في سنة ١٩٤٨ ضم ثمانية من كبار علماء الاجتماع في الدول المختلفة ، شيوعية وديموقراطية غربية ، وأصدروا بياناً مشتركاً ، وكانت لديهم الأمانة الكافية ليذكروا أنه « على الرغم من اتفاقنا على البيان في مجموعه وفي كثير مما احتواه من نقط ، وتطبيق هذه النقط ، إلا أننا نختلف بشأن الأثر الذي سينجم عنها » . كانت هذه الفكرة عن الصدق في الفكر وفي القول وفي العمل مركزاً لأفكار غاندى وأساساً لها ، وهذه الفكرة نفسها هي التي ستؤدي بنا إلى السلام العالمي .

والفكرة الثانية ، وأعتقد أنها أهم ما في خطة غاندى كلها ، فكرة الكرامة الإنسانية الأفراد والكرامة الإنسانية للجماعات ، فإن حملته الأولى في جنوب أفريقيا كانت أولاً في سبيل كرامته الإنسانية ثم في سبيل الكرامة الإنسانية لمواطنيه في هذا الجزء من العالم . فقد كانت التفرقة الظالمة التي تقبها حكومة جنوب أفريقيا إذلالاً للهنود فيها سبباً لثورة غاندى . وهو لم يثر من أجل ذاته غضب وإنما بدأ يفكر فيما يمكن أن يكون عليه التعاون بين هؤلاء الألوف من الهنود وبين الحكومة وهم يلاقون منها أسوأ المعاملة ؟ كيف يستطيعون التعاون مع أشخاص لا يحترمون الكرامة الإنسانية ؟ . . . من هنا انتهى غاندى إلى فكرته حول الساتيا جراها والاهيمسا ، Satia ، Ahimsa ، فشهد جنوب أفريقيا بذلك مولد تلك الأفكار .

فلما جاء إلى الهند دفعته فكرته الجديدة عن الكرامة الإنسانية

الى الحملة على التفرقة القائمة فيما بين المنبوذين وغيرهم من أبناء الهند ، تلك الحملة العظيمة حقاً . نحن نساوى جميعاً ، ولدنا متساوين . فوجب أن نحيا متساوين كذلك . يجب ألا يكون هناك منبوذون وغير منبوذين . وذلك ما بدأ غاندى حمايته الكبرى من أجله .

ولم يقيم غاندى هذه الفكرة عن الكرامة الإنسانية للدفاع عن المنبوذين فقط ، بل كانت لديه كذلك فكرة الأخوة بين الناس أيا كان دينهم وأيا كانت أفكارهم ، وهى الفكرة التى أدت به إلى التسوية فى المعاملة بين جميع أعضاء المجتمع الهندى سواء كانوا من الهندوس أو من المسلمين أو المسيحيين أو أى شئ آخر ماداموا مخلصين فى إيمانهم وفى صلاتهم .

هل لى أن أذكر أن احترامه البالغ للكرامة الإنسانية دعاه إلى الوقوف ضد ضخامة الآلات لأنه رأى الذين يعملون فى تلك الصناعات الكبيرة يتحولون إلى مجرد أدوات فيها ، فتزول عنهم صفة الإنسان المفكر بنفسه ، ليندجوا فيها فيصصبجون كأسنان التروس ، وتنبطق هذه الفكرة عن الكرامة الإنسانية على نشاط غاندى كله ، وهى تعتبر فكرة الأفكار فى حياته . كيف يستطيع أحد أن يتعاون مع غيره مادام هذا لا يحترمه ؟ وكيف يعمل الناس للنفع العام والبعض منهم يحترمون دون البعض ؟ والواقع أن فكرة كرامة العمل أو شرفه بما يتصل بتلك الفكرة الرئيسية عن الكرامة الإنسانية ، وأعتقد أن ذلك ما عناه صديقنا الأستاذ همايون كبير حين قال إننا يجب أن نفكر فى تحديد

للثروة فردية كانت أو جماعية، بحيث توضع هذه الحدود على الجانبين :
 حدود لضآلة الثروة وحدود لضخامتها . فإن تتحقق لك الكرامة
 الإنسانية مادمت لا تستطيع أن توفر قوتك وقوت أسرتك عن طريق
 عملك . كما أنه لا يتفق مع الكرامة الإنسانية أن تظل أنت عاطلاً
 في الوقت الذي تستغل فيه رفيقك لمناحك الخاص .

هاتان الفكرتان — الصدق والكرامة الإنسانية — هدتا غاندى
 إلى أن يصوغ ما أسماه ناى تاليم . Nai Talim ، ومقتضى هذه
 الطريقة أنه يجب أن يراعى في تربية كل شخص أن يمكن من
 العمل بيديه وبرجليه وبكل أجزاء جسمه . والهدف من ذلك تهذيب
 أخلاقه وهداية مداركه إلى فهم أسلم للأمور . ولأننى مع ذلك لا أنفق
 مع غاندى فيما يتعلق بالتعليم الجامعى حيث تتخصص الجامعات
 في بعض فروع البحث ، ولكنى متفق معه تماماً فيما يتصل بالتربية
 الابتدائية والثانوية :

وبعد ، فهل لى أن أرجع قليلاً فأذكر أن الواقع في هذا العالم
 أننا نستطيع أن نتعاون ، ونحن نتعاون فعلاً ، على أساس احترام
 العمل الإنسانى مادام شريفاً . فلتكن محامياً أو لتسكن حلاقاً
 أو لتعمل أى شيء آخر فعملك محترم من الجميع مادام شريفاً ، شأنك
 في ذلك شأن الناس جميعاً .

لو أننا استطعنا أن نفرس تلك الأفكار في أذهان الناشئة ؛ ففكرة
 احترام العمل الإنسانى ، والكرامة الإنسانية والأخوة بين الناس

أيا كانت معتقداتهم ، فأننى اعتقد أنه يمكننا أن نصل بالفكر فى البلاد المختلفة إلى حالة تؤدي بنا إلى التعاون المشترك فى سبيل نفع الإنسانية كلها . وقد وضعت الأمم المتحدة فى سنة ١٩٤٨ لإعلانا لحقوق الإنسان وعلى رأسها مبدأ الكرامة والمساواة الإنسانية . فكم أود لو دعت هذه المنظمة الدول كلها إلى الأخذ بالأسفار التى وردت به . والأمم المتحدة تستطيع أن تحقق نفعا كبيرا فى هذا الصدد ، إلا أن أمرا يحول بينها وبين النجاح فيه ، أعتقد أنه عدم توافر الثقة بين أعضائها ، بالإضافة إلى أنها لم تصبح عالمية بعد ، كما ينبغى أن تكون . وإننى مدرك تماما لعظمة هذه المنظمة وكونها أمل الإنسانية فى السلام المنشود ، كما أننى معترف بما حقته من إنجازات هامة خصوصا وقوف الدول الصغيرة فى وجه الدول العظمى وإعراجها عن كل ما تريد .

وهذان الأمران مع الأسف ، مازالا حتى وقتنا الحاضر يميزان الأمم المتحدة . وإن كلاما كثيرا قد يقال حول حق النقض (الفيتو) ولكن الذى لا أقصمه أبدا هو أن يكون قبول أعضاء جدد فى الأمم المتحدة رهنا باستعمال هذا الحق .

فقد يتفق جميع الأعضاء على أن دولة تطرق أبواب المنظمة الدولية تعتبر محبة للسلام ، وأنها قد تكون عضوا نافعا جدا ، ثم نجد مع ذلك فى الجانب الآخر من يقول : « سأستعمل الفيتو إذن ، فأنا لا أستطيع قبول هذه الدولة » . وإن بيننا فى هذا الاجتماع أعضاء ينتمون إلى دول ما تزال خارج عضوية الأمم المتحدة . ونحن فى الاتحاد البرلماني

الدولى الذى أتشرف بعضويته تقبل الدول البرلمانية كافة ونجد من المفيد حقاً الاستماع إليها ، ولقد كانت الدول الشيوعية إلى سنة ١٩٤٩ موجودة هناك ثم انسحبت لأمر لا أعليه ، إلا أن ما تأثرت له حقاً هو ما كان يحققه اشتراك هذه الدول من فائدة . فقد أتونا بأفكار جديدة ، وتعاونوا جدياً مع سائر أعضاء الاتحاد البرلماني الدولى فى مسألة السلام وغيرها . ولئنى أعتقد أن مثل ذلك سوف يحدث فى الأمم المتحدة لو أنها أصبحت يوماً عالمية تضم أهم العالم كافة دون تفرقة .

والأمر الآخر هو تخلف ثقة أعضاء الأمم المتحدة بعضهم ببعض فى الوقت الحاضر . ولقد أسعدنى ما سمعت بالأمس من مسز بانديت التى عادت لتوها من الأمم المتحدة ؛ من أن الأمور تتحسن فى صدد هذا الذى كنا نشكو منه . وأقصد بذلك بجانب بعض الدول على الدوام لإحدى الكتلت ، وبجانب بعضها الآخر على الدوام أيضاً الكتلة الأخرى . إن كثيراً من الدول الصغيرة تصبح الآن ، لا أقول أقوى عسكرياً ، بل أقول أقوى معنوياً ، فنقول ما نعتقد أنه الحق ، والحق وحده هو الذى يدعو الأمم المتحدة إلى التعاون فيما بينها ، لأنه ما دام أحداً يعتقد أن زميله إلى جانبه لا يقول ما يعتقد أنه الحق ، لئى اعتبار من الاعتبارات ، قومياً كان أو غير ذلك ، فإن زميله المندوب الآخر سيشعر بأن عليه أن يجد طريقاً مناسبة للإجابة ، فلا يواجهه — بدوره — بما يؤمن بأنه الحق .

ولو أننا أردنا أن نصل إلى حالة للفكر كالتى أرادها غاندى ،

— ٢١٩ —

صادقة للغاية ، وأقصد بذلك الصدق في القول وفي العمل ، فنتمكن من أن نقول في منظمة الأمم المتحدة ما نعتقد ، وأن نتصرف على أساسه ، فأظن أننا بالغون إذن حالة من اتعاون المشترك تكون للإنسانية ذات نفع عظيم .

ليس لدى اقتراحات محددة أقدمها إلى أعضاء هذا الاجتماع المحترمين ، ولكنني أعتقد أن هاتين الفكرتين : الصدق والكرامة الإنسانية باعتبارهما المثل الرئيسية لغاندى ستنتفعنا كثيراً وستساعدنا أجل المساعدة في عملنا من أجل السلام .

(٢)

أساليب غاندى وكيف تخفف التوتر داخلياً ودولياً (*)

إلى أى مدى نستطيع فى الحالة الحاضرة للفكر الدولى أن نطبق وسائل المهاتما غاندى وأساليبه لإزالة التوتر فى العالم ، داخلياً كان هذا التوتر أم دولياً . ذلك ما نحاول أن نجد له جواباً .

ولو وجب أن يبدى هذا الجواب فى مطلع القرن الحاضر ، فإنى لى شك من أنه كان ليصدر على وجه لا يحصى . صحيح أن غاندى بدأ حملته ضد المعاملة الجائرة للهنود فى جنوب أفريقيا فى الحلقة الأخيرة من القرن التاسع عشر . وصحيح كذلك أنه لقى بعض النجاح هناك ، إلا أن الاعتقاد بجذوى طريقته فى حل الأزمات الدولية ، فى ذلك الوقت الذى كانت تسود فيه سياسة توازن القوى والسلام المسلح لهو أقرب إلى الأحلام .

وغاندى نفسه لم يفكر أول الأمر فى الأهميسا وفى الساتياجراها كوسائل فى الحياة الدولية ، بل كإدوات لإجبار الحكومة وسلطات جنوب أفريقيا على أن تبتعد إلى أقصى ما تستطيع عن التفرقة المزرية التى تخضع لها مواطنيه . وهو لم يفكر فى تلك المرحلة فى استخدام هذه الوسائل لتحقيق استقلال أى بلد من البلاد ، بل إنه على العكس اعتقد ، كما كان الكثيرون من ذوى التربية الغربية فى الشرق يومئذ يعتقدون ، أن الحضارة الشرقية قد اندثرت نهائياً ، وأن العلم والفكر

(*) ترجم هذا الجزء أيضاً عن محاضرة للدكتور هيكى بالهند .

الغريبيين سيطر لهما دائماً مركزهما السامى ، وهذا الاعتقاد هو الذى أدى به أثناء الحرب البوير إلى تنظيم فرقة إسعاف تساند القوات البريطانية المشتبهة فى الحرب ، وظل على موقفه هذا حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى فبدل أثناءها العون الكبير لإنجلترا أو حلفائها بتجسيد الهنود للمحاربة فى صفوفهم .

ولقد أبرزت الحرب العالمية الأولى تغيرات هائلة فى الفكر الدولى ؛ فقد أيقنت الولايات المتحدة الأمريكية أن عزالتها لم تنجها من خطر هجوم الغواصات الألمانية ، فاشتركت عند ذلك فى الحرب بجانب إنجلترا وحلفائها . ولقد ظن الرئيس وودرو ويلسن يومئذ أن بلاده تحارب من أجل لإنهاء الحروب كافة . فلما شعر بانكسار ألمانيا اقترح شروطه للصلح مقتنعاً بأن معاهدة للسلام تقوم على أساسها كفيلة بأن تقود الإنسانية إلى عصر السلام الدائم . وكان حق الشعوب فى تقرير مصيرها أحد شروط هذا الصلح . ونقف هنا لنجد نقطة تحول فى حياة غاندى وفى نشاطه السياسى ، هى كذلك نقطة تحول فى تصوير آمال الشعوب المستعمرة التى تنشذ الحرية والاستقلال . فقد جعل غاندى رسالته تحرير الهند من الحكم الأجنبى مستخدماً فى ذلك تعاليمه الخاصة : الأहिੰسا والساتياغراها ، بأذلاً فى هذا السبيل أعظم الجهد ، فظل ينشر ويشرح أساليبه فى عدم العنف ، وقوة الحق ، وعدم التعاون ، مدى ثمان وعشرين سنة كاملة إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية . وبفضل التطور الجديد للفكر الدولى كسبت الهند استقلالها على يد غاندى وجهود الشعب الهندى .

والتطور في أفكار المهاتما غاندى — منذ حملته في جنوب أفريقيا حتى استقلال الهند — عظيم حقاً مع أن أساس هذه الأفكار لم يتغير طوال تلك الفترة . فقد كان هدفه الأول في جنوب أفريقيا أن يعترف للجميع ، وأن يحترم الجميع الكرامة الإنسانية دون اعتبار للجنسية أو مذهب أولون أو لغة أو حالة اجتماعية أو اقتصادية أو أية عوامل أخرى أدت وما تزال تؤدي إلى خلق الأزمات الاجتماعية والدولية .

فلما عاد إلى الهند أقنعه التطور العالمى للفكر الدولى نحو الحرية بأن الكرامة الإنسانية لا تتوافر لشعب تحكمه أمة أخرى ، وأن حرية الأمة أول شرط لاحترام كرامة أبنائها . وفكرة الاحترام الواجب للكرامة الإنسانية ليست من صنع غاندى بل هى قديمة قدم الفكر الإنسانى نفسه . فقد اعتبرتها الأجيال كافة حقيقة حيوية أساسية ، كررت التصريح بها فى بداية كل عصر جديد . وقد رأينا أن جميع الحركات الدينية والحركات السياسية تضع على رأس مقرراتها ، وفى موضع الجذور منها ، إعلاناً لحقوق الإنسان والكرامة الإنسانية أساسها .

وقد يكنى أن نذكر إعلان الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ ، والإعلان الأخير لحقوق الإنسان الذى أصدرته الأمم المتحدة سنة ١٩٤٨ ، ومع ذلك فقد عانت الكرامة الإنسانية وما تزال تعاني سوء العذاب فى الحياة العملية . وما صدر عنه غاندى منذ ستين عاماً

في حملته الأولى في جنوب أفريقيا ، ما يزال يدرج في جداول أعمال الأمم المتحدة عاماً بعد عام منذ إنشائها (١) .

من السهل أن نضرب الأمثلة لذلك في مناطق أخرى في العالم . فكيف يمكن أن تغتفر ديموقراطيات اليوم هذه الحقيقة الواضحة . وكيف يمكن أن نحفظ للكرامة الإنسانية احترامها . ذلك ما كان يتسامل عنه غاندى ، وهو ما نتسامل نحن عنه اليوم .

إن جذور الشر منذ أبعد الأزمنة كامنة في النطاق المادى من الحياة ورغبة الإنسان في استغلال الإنسان ، تلك الرغبة التي تسربت من الأفراد إلى الجماعات والأمم ، وأدت إلى عوج في تفكيرنا لم ينج منه المجال الدينى نفسه . لما غزا المسلمون العراق في القرن السابع الميلادى ، ورأى القائد العظيم خالد بن الوليد ثروات هذه البلاد ، قال لجنوده : « لئى أرى خيبرات هذه البلاد كافية لملحكم إلى الحرب في سبيلها ولو لم تكن جهاداً في سبيل دين الله ، ولقد ذكرت الانسيكلوبيديا بريتانىكا في حديثها عن الحروب الصليبية في القرون الوسطى : « لم تكن الكنيسة تستطيع من خلال الحروب الصليبية أن تهدى غريزة الحرب لدى مجتمع إنقطاعى إلا أنها كانت تستطيع أن تتابع هدف السياسة التى وضعتها ، وأن تحاول نشر النصرانية ولو على أسنة الرماح فى شتى انحاء العالم المعروف . بذلك تجدد على

(١) من العجيب أن نجد حتى اليوم من لا يزال يدافع عن التفرقة العنصرية داخل الأمم المتحدة نفسها .

على نطاق أوسع الصراع القديم الذى لم يَحمد أبداً بين الشرق والغرب».

ظلت حالة الفكر هذه تمارس تأثيرها فى طرق تفكيرنا ومعاشنا ، بل كان لها هذا التأثير نفسه فى طرق التربية عندنا . فقد أثرت مسألة تدريس التاريخ أمام لجنة الشؤون الثقافية والإنسانية فى اجتماع مجلس الاتحاد البرلماني الدولي فى نيس منذ ثلاثة أعوام ، وأقدمت يومئذ على القول بأن الطريقة التى يدرس التاريخ بها تهيء أذهان الناس للحرب ؛ إذ يذكر لهم أن تاريخ البشرية إن هو إلا تاريخ المعارك الحربية ، إن أكبر المجد هو مجد القواد والملوك الظافرين ، على حين أن التاريخ الحقيقى للبشرية هو تاريخ التطور السلبى الشاق المتواصل للأخلاق والفلسفة والعلوم والفنون وجميع مجالات النشاط المفيد للسلام . وانتهيت إلى أن تدريس التاريخ من هذه الوجهة أقرب إلى الحقيقة وأجدى فى إقرار السلام فى العالم . ولشد ما دهشت لأن كثيراً من أعضاء اللجنة اعتبر منتهجى هذا خيالياً ، فترك الموضوع لمزيد من البحث .

هذه الرغبة فى استغلال الإنسان لأنخيه الإنسان أدت إلى تقوية الأنانية فى مبادئ الحياة على حساب جانبها الروحى والأخلاقى . ولقد كان ذلك أشد وضوحاً فى الحياة الدولية ، وكان هو السبب فى صعوبة تدوين القانون الدولى . ولقد اقترح تدوين القانون الدولى فى أول مؤتمرات الاتحاد البرلماني الدولي لما بعد الحرب الذى عقد فى القاهرة فى إبريل سنة ١٩٤٧ حيث تأجل نظر الموضوع إلى مؤتمر العام التالى

الذى انعقد فى روما سنة ١٩٤٨ . وكل ما استطعنا أن نصل إليه فى تلك السنة هو تدوين بعض مبادئ الأخلاق الدولية التى أرسلناها إلى الأمم المتحدة للمعاونة على وضع نظام لتقنين القانون الدولى؛ ذلك النظام الذى لم يكن قد تم إعداده بعد ولو أن مبادئ الأخلاق الدولية حلت محلها لكتب فى تاريخ الجنس الإنسانى بذلك فصل جديد .

والسكرة الأساسية للكرامة الإنسانية التى كافح غاندى من أجلها قضية جليلة اعترف بها الجميع وهى حقيقة نخلص لها جميعا وجدير بنا أن ندافع عنها ، فكيف يمكن أن يكون هذا الدفاع ؟

لقد اقترح غاندى فى ضوء التطور الجديد للفكر الإنسانى برنامجا موسعا يحيط بجميع ميادين النشاط الإنسانى من أخلاقية وثقافية واجتماعية واقتصادية وتربوية وما إليها . ويتناول هذا البرنامج كذلك العلاقات الدولية ، ولكن على نطاق أضيق بكثير ، ويلقى كثير من أجزاء هذا البرنامج قبولا عالميا ، ولكننى فى ريب مع ذلك أن تلقى بعض أجزائه الأخرى ، خصوصا ما تعلق منها بالنظرية الاقتصادية ، مثل هذا القبول . قد تكون (اسواديشى) Swadeshi والمغزل صالحين أخلاقيا ، ولكن العلم ليس له أن يخطو إلى الوراء ، كما أن أفكاره المتعلقة بالترمية وطريقته التجريبية Projectmethod خطيان مالم تتخط حدود التعليم الابتدائى والثانوى . لكننى أشك كثيرا فى إمكان التوصل إلى Swadeshi وإلى الاكتفاء الذاتى لإحدى الدول حتى فى الحاجات الأولى للحياة فى الظروف الحاضرة للاقتصاد العالمى

المعاصر . كما أنني أشك في استطاعة التوصل إلى إمكان تطبيق الطريقة التجريبية في الجامعات .. الا أن برنامج الأخلاق عظيم حقا ، فهو مساهمة كبرى لتحسين حياة الإنسان .

والسمة الأصلية في طريقة غاندى هي احترامه لجميع الأديان وحملته الكبرى ضد التفرقة بين المبوذيين وغيرهم من أبناء الهند — لمنى تشديد الإعجاب بتلك النظرة الدينية ؛ فهي ليست مجرد التسامح ، بل هي أكثر من ذلك ، إنها أخوة حقة ؛ فأنت تستطيع أن تدعو الله على طريقة أجدادك أو على أية طريقة اخترت . وأنت أخ لكل من يدعون الله أيا كان دينهم ما دمت جميعا مخلصين في إيمانكم ودعائكم ، لأن الله هو الحق . والحق هو الله في جميع الأديان . وفي أثناء قراءتي لغاندى أوقفتني كثير من أفكار الجيتا حول الدين لمشايتها لمبادئ إسلامية مماثلة ، فكلاهما مثالية قرر أن إيمانك لا يكتمل حتى تحب لأخيك ما تحب لنفسك .. وهذه القاعدة الأخلاقية ذاتها موجودة في المسيحية مثل وجودها في الديانات الأخرى ، وكذلك بالنسبة لبسائر القواعد الأخلاقية المتعلقة بالحقيقة والسلوك وحياة الأسرة وما إلى ذلك . فتحن نطبق نفس القواعد الأخلاقية السامية الشائعة بين دياناتنا جميعا ، والتي تنطوي بذاتها على عوامل وحدتنا وتأخيئنا ، فلماذا نستبدل هذا التأخي بإنسياقنا وراء التوافه التي تفرقنا وتسوقنا إلى الأزمات والحروب .

ولو أننا أخذنا في الميدان الاقتصادي والاجتماعي بنفس ميادى الحق والإيثار وأنكار الذات التي ينبغي أن نأخذ بها في المجال الروحي

والاخلاقي ، وطبقنا تلك المبادئ بكل إخلاص ، لزالنا معظم الأزمات واستطعنا بذلك أن نعيش إخوة في عالم ينعم بالسعادة والرغاء إلى أقصى ما يستطيع النعيم . من السهل أن يقتنع الجميع بقبول هذه القواعد وبالرضا عنها ببيان ما يكسبونه من تطبيق أسلوب الأهمسا والساتيا جراها ، وإلا فإن أسلوب عدم التعاون في غير عنف سيقنع الجميع ، متى تحقق ، بالحاجة إلى احتذاء المثل الذي اتبعه المجموع .

إن فاعلي الشر كانوا دائماً أقلية ضئيلة في المجتمع ، ولكنها أقلية نشيطة استطاعت أن تجبر الأغلبية المسالمة على التسليم بنشاطها . ولقد أثبتت أعمال غاندى أن أقلية تعمل للحقيقة بغير عنف لقادرة على أن ترغم الأغلبية على قبول عقائدها .

هل يمكن تطبيق هذه المبادئ في الحياة الدولية ، وهل يمكن العمل بها في الأمم المتحدة وفي المنظمات المرتبطة بها ؟ لائق لوائح من إمكان ذلك . ولو حدث هذا فإن الأمم المتحدة هي التي ستولى ، قبل أية منظمة أخرى ، قيادة العالم إلى السلام ، شريطة أن تصبح عالمية تضم أمم الأرض جميعاً .

إن جميع البلدان ، وحسن النية من الرجال والنساء في جميع أنحاء العالم يتوقون إلى السلام ، وسوف يسعدهم أن يطبقوا هذه المبادئ . أملاً في أن تؤدي بهم إلى السلام الدائم .

وفي مثل هذه الحال فإنهم يسمحون جميعاً فوق جميع الاعتبارات القومية . ولكن السبب في عدم تطبيق هذه المبادئ في الأمم المتحدة

هو عدم توافر الثقة بين أعضائها ، والاعتقاد السائد بأن ذلك الذى يتكلم هناك ليس مؤمناً بأن ما يقول هو الحق ، وإنما هو يحاول أن يخدع زملاءه مندوبى الدول الأخرى وأن يماريهم .

إن الحقيقة ، والحقيقة وحدها ، هى الكفيلة بإنقاذ العالم من الكوارث التى تعلقة بها رؤوسنا : قوة الحق ، قوة الروح ، الساتيا جراها على طريقة غاندى هى وحدها علاج انعدام الثقة . ويوم يثق أحدنا بالآخر ، ويوم نعتقد صادقين بأن كل واحد يقول ما يؤمن بأنه الحق ، سنفتمسك من أن نتعاون معاً وأن نشترك فى تمهيد الطريق إلى حركة عالمية لبلوغ المثل العليا ، ولإيجاد حكومة عالمية وسلام دائم .

ولو أن بلداً صغيراً أو كبيراً ، قوياً أو ضعيفاً ، ظل يرفض أن يتعاون صادقاً مع الآخرين فإن لنا فى أسلوب غاندى فى عدم التعاون فى غير عنف اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً لأداة فعالة لرد هذا البلد إلى طريق الحق . ولأننى لمقتنع أن مثل هذه الأداة لن تفشل ، وأنها ستعيد أكثر البلاد عناداً إلى الطريق الصحيح . فإذا فشلنا رغم ذلك ، وإذا جاءت الحرب رغم كل هذه الجهود ، فإنها ستأتى بنهاية الإنسانية . وليسكن ألماننا ألا يجازف أى رجل أو امرأة فى العالم فيضطلع بمثل هذه المسئولية الجسيمة بأن يرفض هذا التعاون ، حتى نبليغ الهدف العزيز : السلام العالمى .

(٣)

حول الهند

منذ عهد غير بعيد كنا إذا ذكرت الهند حسبنها من البعد عنا بحيث لا يجوز بمخاطر أحد منا أن يفكر في زيارتها أو يمر بمخاطره أن هذه الزيارة مما يدخل في حيز المستحالات ، وكان عامتنا حين يذكرون بلاد العجائب يذكرون الهند والسند وبلاد تركب الأفيال . فلما انقضت الحرب العالمية الأولى وبدأت الثورة المصرية سنة ١٩١٩ بدأنا نسمع في مصر عن أنباء حركة المهاتما غاندى في الهند ونرى وجوها للشبه غير قليلة بين حركتنا وحركة الاضراب ومقاطعة البضائع الأجنبية ، وعدم التعاون وما إلى ذلك من شئون قربت في أذهاننا بين تلك البلاد وبلادنا ، ودلتنا على أن ذلك الذي كنا نتصوره من قبل من بعد بلاد الهند عنا لم يكن مرجعه إلى ما يفصل بيننا وبينها من آلاف الأميال ، وإنما كان مرجعه إلى جهلنا أمرها ، وعدم وقوفنا على شئونها ، فلما بدأنا نقف على بعض هذه الشئون قربت منا ، لأن العلم يقرب بين الإنسان وما يعرف ، في حين يباعد الجهل بين الإنسان وما يجهل .

وازدادت حركة الهند الاستقلالية نشاطاً وقوة ، وازددنا تتبعاً لها ووقوفاً على السكشير من أمرها ، فازددنا قرباً منها . وزاد في هذا

القرب أن رأينا الهند تعنى من شئون ما يجرى في محيطنا بما نعنى به نحن ، وتشاركنا في آلامنا وآمالنا . لما ألغت تركيا الخلافة الإسلامية بعد أن أقصت سلاطين آل عثمان عن عرشها بدأت في العالم الإسلامى حركة تفكير قوية في هذا الأمر الذى كان يعتبر يومئذ حيويًا عند جميع المسلمين وكانت جمعية الخلافة في الهند أقوى مظهر لهذه الحركة . ولم يكن ذلك عجباً ومسالمو الهند يبلغون يومئذ مائة مليون ويقولون أكبر كتلة إسلامية في العالم كله . لكن العجب في اشتراك الهنود غير المسلمين مع الهنود المسلمين في حركتهم هذه وتأيدهم لها حرصاً على وحدة الهند . وكان طبيعياً يومئذ أن تتطلع الأنظار هنا في مصر ، وأن تتطلع أنظار المسلمين في شتى بقاع العالم ، إلى هذه الحركة الهندية الإسلامية وإلى تأييد المهاتما غاندى وأنصاره من الهندوس لها ، وأن يقرب ذلك بين الهند والعالم الإسلامى كله ، وأن يدفعنا هذا التعاطف إلى الشعور بأن الهند ليست بعيدة عنا بقدر ما كنا نتصور . وهل يقرب بين الناس شيء كاشتراكهم في العواطف لئلا أمر بعينه . وهذا الاشتراك في العواطف يمحو الأبعاد وإن بلغت ألوف الأميال ، وعشرات الألوف من الأميال .

فلما نجحت الحركة الاستقلالية في الهند زاد نجاحها في قريها منا ، نحن معشر الذين يطلبون الحرية والاستقلال للشعوب جميعاً ، وبخاصة لأن الهند قارة أو شبه قارة كما يسمونها ، ولأن استقلال أربعائة مليون من البشر . خمس الإنسانية في مجموعها . يعتبر نصراً مؤزراً

وفتحاً مبيناً للحرية والاستقلال والكرامة الإنسانية ولكل المعاني الإنسانية السامية .

وبدأ الغرب يكشف لنا عما في الهند من قيم روحية وخلقية عليا ، كما كان جهادها في سبيل الاستقلال مثلاً فذاً في تاريخ الجهاد الإنساني للحرية ، وبدأنا بذلك نشعر أن هذه البلاد المترامية الأطراف ذات الماضي المجيد والفلسفة الروحية السامية جديراً حقاً بأن تزورها وأن نشهد ما فيها وأن نقف على حاضرها وماضيها .

لذلك لم أتردد حين وجهت إلى حكومة الهند الدعوة للاشتراك في الندوة التي تعقد في نيودلهي لدرس ما كان لتعاليم غاندى وأساليبه العملية من أثر في توثيق العلاقات الانسانية في داخل الأمم وبين الأمم بعضها وبعض فقبلت الدعوة لأول ماعرضت علي ، وأخذت أدرس حياة غاندى وتعاليمه ، وأقف أثناء هذه الدراسة على شيء غير قليل من حياة الهند في ماضيها وحاضرها ، وأهيم نفسي للوقوف على ما هناك من ألوان الحياة ومظاهرها في هذا العالم الجديد الذي لم يتح لي من قبل أن أتصل به أو أقف عليه .

وترتب علي قبول الدعوة أن عرفت أن الطائرة تقطع ما بين القاهرة وبومباي في عشر ساعات . وكذلك سافرت إلى الهند فقضيت بها خمسة أسابيع ، من ٣١ ديسمبر إلى ٣ فبراير الماضي ، وفي هذه الأسابيع الخمسة شهدت الشيء الكثير مما يسرني أن أحدثكم الآن عنه . على أني أبادر إلى القول بأنني لم أتقل خلال ربوع الهند طيلة

هذه الأسابيع الخمسة . فقد كانت ندوة غاندى معقودة في نيودلهى ، وكان مقرراً أن يمتد انعقادها من ٥ إلى ١٧ يناير ، فكان لزاماً أن نقيم بعاصمة الهند طوال هذه المدة . فلما انتهت الندوة تنقلت أنا وصديقى الدكتور أحمد متين دفترى رئيس وزراء إيران السابق خلال الهند طيلة الأسبوعين اللذين بقيا من إقامتنا في ربوعها . فلما فرغنا من تجوالنا السريع في أرجائها قفلنا عائدين معاً حتى نزلنا بغداد ، ليسافر هو منها بعد أيام إلى طهران ، ولأسافر أنا منها بعد أيام كذلك إلى القاهرة .

* * *

الطبيعة أول ما يلفت نظر السائح في بلاد غير بلاده . وكثيرون يظنون أن الهند بلاد جميلة كسويسرا أو كلبان . ويغريهم بهذا الظن أن بها جبال الهمالايا حيث تقوم قمة أفرست أعلى قمة في جبال العالم . ويظن آخرون أن الهند بلاد الغابات والأدغال الموحشة التى تغطي عشرات الآلاف من الأفدنة ، وأنها تحوى من الوحوش أمثال الأسد والنمر والفهد ما يخافه الانسان . يغريهم بهذا الظن ما كتبه الرحالون الإنجليز وغير الإنجليز عن صيد الوحوش في الهند . وكلا هذين الظنين لا يصور الواقع من أمر الهند في مجموعها . صحيح أن الجبال تمتد في شمال الهند وتقوم حاجزاً منيعاً بينها وبين جاراتها من الأمم الأخرى . ولكن طبيعة الهند فيما سوى هذه المنطقة الشمالية . طبيعة سهلة تشبه طبيعة وادينا المصرى في كثير من الأحيان . والمرتفعات التى تقوم على الساحل الهندى ليست جبالات عالية عظيمة

الارتفاع، بل هي في كثير من الأحيان مضاب لا يزيد ارتفاع الكثير منها على الجبال المحيطة بوادينا والتي تفصل بينها وبين صحرائنا الشرقية وصحرائنا الغربية . صحيح أن بعض البلاد بالداخل ترتفع عن سطح البحر بضعة مئات من الأمتار ، وأن هذا الارتفاع يجعل جوها رقيقا مقبولا على مدار فصول السنة . لكن ارتفاعها هذا لا يجعلها جبلية ، بل هي أراض منبسطة تجري السيارة في طرقها مستوية مئات الأميال تنبسط عينا وعن يسارها المزروعات الممرعة ويمتد البصر منها إلى الأفق فلا يقف في طريقه حائل من تل أو هضبة أو جبل إلا نادرا .

لقد كنت هذه الطبيعة السهلة المنبسطة نظرت الكثيرين من إخواننا الذين دعوا إلى ندوة غاندي ، ولقد نظرتهم خصب الأرض المنخفضة بالزروع النامية الممتدة إلى مدى البصر . ذهبت أنا والدكتور والف باناش زور تاج محل في أجرا ، ونزور آثارا أخرى في المدينة المهجورة : فاتح بورسكري . وأجرا تبعد عن دلهي مسافة مائة وخمسة وعشرين ميلا ، وفاتح بورسكري تبعد عن أجرا خمسة وأربعين ميلا . وقد كان انبساط الأرض ونخبها موضع حديثنا ونحن في السيارة . كذلك ذهبت بالقطار أنا والدكتور متين دقري زور جامعة عليكرة ، وهي تبعد عن دلهي بعد أجرا عنها ، فكانت الطبيعة أمامنا ونحن ننظر من نافذة القطار منبسطة كذلك إلى مدى النظر . وكذلك كان الشأن حين تجوالنا أسبوعين داخل الهند . من ذلك تبيننا أن الهند بلاد زراعية وفيرة الثروة كثيرة الخيامات ، ولذلك كانت مطمح نظر المستعمرين في عصور كثيرة .

ولم أقف أثناء تجوالى بالهند عند تلك الغابات التى تصاد فيها النور والحيوانات المفترسة . ولعل هذه الغابات أو الـ Jungles كما يسمونها ، تقع فى مناطق محدودة لم يتسن لى أن أذهب إلى أيها .

إذا كانت الطبيعة أول ما يأخذ بنظر السائح الغريب عن الديار فالآثار هى أشد ما يجذبه ويستهو به . فالسائح القادم إلى مصر أول ما يفكر فى زيارة الهرم وأبى الهول وصقارة والآقصر . وحين نزلنا دلهى قيل لنا إن من جاء الهند ولم يرتاج محل لم يكن قد زار الهند . فأنت حين تذهب إلى فرنسا مثلاً فأول ما يعينك أن تشهده ، وأول ما يعنى أهل فرنسا أن يطلعوك عليه ، هى الآثار الموجودة فى باريس وما حولها فى فرساي ، وفونتنبلو ، وفنسين ، وقصور اللوار فى أواسط فرنسا .

وزيارة الآثار لا يقصد بها إلى مشاهدة هذه المباني وما تحتويه للبتاع بجمال العمارة وجمال ما بداخلها وكفى ، بل يقصد بها إلى معنى أدق من هذا بكثير . يقصد بها إلى معرفة صلة الإنسان بالحياة والوجود فى مختلف أدوار التاريخ . فهذه الآثار المصرية القديمة تصور حياة الفراعنة وتصورهم للحياة ولما بعد الحياة . والآثار الفرنسية تصور حياة فرنسا السياسية والاجتماعية وما طرأ عليها من هزات بلغت حد الثورات أحياناً . وما تقع عليه العين من آثار روما ، ما هو مهدم منها وما هو باق إلى اليوم ، تصور حياة الرومان القديمة وتطور هذه الحياة خلال العصور إلى وقتنا الحاضر .

والهند غنية بالآثار إلى غير حد . وآثارها تترك في النفس ألواناً مختلفة من التصور الإنساني للحياة في عصور الإنسان المختلفة . ذلك بأن الهند طرأت عليها ألوان من الحضارات استقرت فيها وتركت من آثارها ما يقف النظر بالفعل . فهناك إلى جانب الآثار الهندوسية الأصلية - التي يرجع تاريخ بعضها إلى ألبني سنة أو أكثر - آثار المغول ، وآثار الفرس ، وغير هؤلاء وأولئك من المسلمين . كما أن هناك آثاراً حديثة أقام الهنود بعضها ، وأقام البريطانيون البعض الآخر . وكل هذه الآثار تقف النظر وتدعو إلى أعمق التفكير .

وأهم الآثار الإسلامية التي يشهدها الإنسان في أرجاء الهند المختلفة المساجد والمقابر وتاج محل ، وهو أبهى هذه الآثار وأكثرها روعة وجلالا ، إنما هي مقبرة شادها الملك ساهجان لامراته ، كما أن أهرامات مصر مقابر شادها الفراعنة ليدفنوا بها . وأنت تشهد هذه العمارات البديعة التي أقامها ملوك المسلمين في الهند ليدفنوا أو يدفن بعض ذريتهم بها منتشرة في كثير من المدن . تشهدنا في دلهي . وفي أجرا ، وفي الكسندرا ، وفي حيدر آباد وفي مثلها من المدن الكبرى ذات التاريخ المجيد في الهند . وكثيراً ما نرى إلى جانب هذه المقابر الفخمة مستقلة عنها غير متصلة بها . وهي في ذلك تختلف عن مقابر المصريين المتصلة بالمساجد ، وتختلف كذلك عن مقابر الصالحين المتصلة بالمساجد في العراق وفي تركيا . فقبور الصالحين في مصر والعراق ، أو مقصوراتهم كما نسميها هي جزء من المسجد ، كما أن

المقصورة النبوية جزء من المسجد النبوي بالمدينة . وعمارة المساجد تختلف بين مصر والعراق ، لكن الصالحين المدفونين هناك تقع مزاراتهم داخل المسجد ، على حين تقع مقابر الملوك المسلمين في الهند منفردة عن المسجد ، يفصل بينها وبينه طريق يختلف سعة وضيقا .

ولم أر مقابر متصلة بالمسجد إلا ما كان في مسجد حيدر أباد . على أن نظام المقابر في هذا المسجد يختلف عنه في مساجد مصر والعراق سواء منها مساجد أهل السنة أو مساجد الشيعة . فقابر حيدر أباد هذه ، وهي ثلاثة ، تقع في دهليز طويل يبلغ طوله ثلاثين مترا أو تزيد ، وهذا الدهليز مرتفع عن الأرض قرابة متر ، مبني كله بالرخام ، والقبور تتوسطه مبنية بالرخام كذلك ، وقد غطي كل منها بستر من قماش كثيف ، يرفعه سادن هذه القبور للزائرين ذوى المسكنة من ضيوف الدولة .

فأما مساجد الهند فتختلف كذلك عن غيرها من مساجد المسلمين ، ولم أر لها شبيها إلا الجامع الأموي بدمشق . فأما مساجد العراق ، ومساجد أستانبول فتشبه مساجدنا هنا من حيث إنها مسقوفة كلها . أما مسجد دمشق ، وأما مساجد الهند ، فالجانب المتصل منها بالقبلة مسقوف يرتكز سقفه على عمد ثم يظل سائر المسجد مكشوقا إلى السماء ، متصلا مع ذلك ببقية المسجد على أنه جزء منه .

ومساجد الهند التي رأيتها حسنة البناء كلها .

ولم أعن نفسي بالبحث عن أى هذه المساجد لأهل السنة وأيها

للشيعة ، وإن كنت قد عرفت في كثير من المدن التي زرتها أن الشيعة مساجد ولأهل السنة مساجد أخرى . وفي البعض يزيد أهل السنة على الشيعة زيادة كبرى ، وفي البعض الآخر يزيد الشيعة على أهل السنة زيادة ظاهرة . ويرجع ذلك إلى التاريخ أكثر مما يرجع إلى أى سبب آخر . فقد نزل الفرس الذين جاءوا الهند بعض المدن وكثروا فيها فكانت الكثرة فيها للشيعة ، بينما كثرت غير الفرس من المسلمين في مدن أخرى فكانت الكثرة فيها لأهل السنة .

غير الآثار الإسلامية تقوم الآثار الهندوسية المختلفة ومعظمها معابد ، يرجع تاريخ بعضها إلى ألفى سنة أو أكثر كما قدمنا ، بينما أقيم البعض في عهد حديث . وقد هجرت بعض هذه المعابد الهندوسية حتى تهدمت أو كادت ، بينما بقي بعضها إلى اليوم عامرا . ويتعذر على من لم يدرس عقائد الهند وفلسفة هذه العقائد أن يميز بين هذه المعابد والمذهب الذي تمثله . ولقد كانت مدة إقامتي بالهند قصيرة فلم أتمكن من دراسة تعاوني على هذا التمييز بين المعابد . ولست أكتفى مع ذلك زوت الكثير منها ووقفت عند بعضه معجبا بدقة عمارته ، معجبا كذلك بما بين ألوان العبادة فيه وبين التثليث المصرى القديم والتثليث المسيحى وبين التثليث الهندوسى من شبه ، وإن اختلف ما يرمز إليه التثليث الفرعونى والمسيحى ، والهندي ، خلافا كبيرا .

وتبعث هذه المعابد وما فيها من نشاط صورة من حياة الماضي الهندي يجعله في حكم الحاضر ونشاطه . زرنا المدينة المقدسة بنارس

الواقعة على نهر الجانجى أو الجانجى كما يسميه الهنود ، ومررنا بعد العشاء ببعض معابدها فألقينا العشرات بل المئات يذهبون إلى هذه المعابد ومع الكشيرين منهم ما يتقربون به إلى معبوداتهم ، يصنعون من ذلك ما كان يصنعه أسلافهم منذ مئات السنين أو ألوفها ، ويشهدون بذلك على أن هذا الماضى مازال حيا كما كان ، وأن مظاهر الحضارة الغربية لم تجن عليه فى قليل ولا فى كثير .

وزرنا عصر ذلك اليوم معابد تشهد ألوان العبادة فيها بأن الحياة الحديثة والعلم الحديث لم يجنيا على مقدسات الماضى السحيق حين كان الإنسان يتخذ الحيوان ويتخذ الأحجار إلى الله زلقى .

زرنا بعد ذلك فى سارنات على مقربة من مدينة بنارس ، معبد بوذا وآثاره . الشجرة التى يذكر أن الإلهام أضاء أمامه بنوره وهو تحتها ، والفضبة التى آوى إليها ليعبد فيها ربه ، والمعبد الذى أقيم من عهد غير بعيد رسمت على جدرانها تعاليمه .

ومن عجب أن البوذية التى نشأت فى الهند لم يبق لها فى الهند أتباع إلا قليلين ، بينما ازدهرت فى بلاد أخرى تجاور الهند ، برما والتبت وبعض أنحاء الصين واليابان .

وما دنا بصدد المعابد الهندية والحديث عنها فلا أستطيع أن أغفل أقربها عهداً وأقربها إلى تصوير التطور فى الحياة الروحية الهندية تطوراً كان المهاتما غاندى صورته الحية . أقصد معبد برلا ، وهو المعبد الذى أقامه السرى الهندى برلا فى نيودلهى واقتتحه

المها تـما غاندى . فهـذا المعبد بمجموعة تحتوى عدة معابد أحدها برهمى ،
والآخر بوذى ، والثالث لمذهب آخر من المذاهب الهندية . وفى
كل واحد من المعابد يرى الإنسان مكتوباً بالانجليزية وحدانية
الله ، وتشير إلى ما كان يكرمه غاندى من أن الله هو الحق ، وأن الحق
هو الله ، وتذكر أن الخلق والحياة والانهيار والفناء مظاهر ، وأن
بقاء الله وحده ، وأن الأرباب التى يصور الخلق والبقاء والتجدد
إنما تصور صفات من صفات الله . أليست هذه المعانى الدينية
المنقوشة على جدران هذا المعبد تمثل المعانى المشتركة فى الأديان كلها .

افتتح غاندى هذا المعبد . وكان غاندى رجلاً متديناً شديداً
الإيمان بالله . طلب إليه بعضهم يوماً أن يكتب كتاباً يصور فيه
فلسفته الدينية والسياسية فقال : لأننى لست فيلسوفاً ، ولكننى رجل
عمل ، فإذا عرضت لى مشكلة استخرت الله فألهمنى طريقاً فسرت فيه
فوفقتى إلى ما أبتغيه .

ليس هذا المقام مقام الحديث عن غاندى وآرائه : لكنى وأنا
أقص مشاهدتى فى الهند لايدلى من أن أذكر أننى حين قرأت حياته
أخذت منها أكثر من كل شيء بمجهوده لمقاومة عقائد تأصلت فى
الهند خلال عشرات القرون بل مشاتها ، ونجاحه فى ذلك نجاحاً منقطع
النظير ، حتى لقد كان أول ما دار بخاطرى وأنا بالطائرة فى طريقى
إلى الهند أن أرى مبلغ هذا النجاح . قاوم غاندى نظام المنبوذين ،
وقاوم عبودية المرأة للرجل ، فكان لذلك من أتباعه منبوذون

كثيرون ، ونساء كثيرات . وقد سألت نفسى : أتأصل هذا
فى الهند فأصبح بعض عقائدها ، أم تراه تطاير فعادت الهند إلى
سابق عهدها قبل غاندى ؟

وهنا أتتقل من الحديث عن مشاهداتى لطبيعة الهند ولآثارها
إلى مشاهد الحياة الاجتماعية فيها .

تلطف حاكم ولاية بومباى فدعانى إلى طعام الغداء يوم وصولى
إلى بومباى . قلنا التقينا ودار بيننا الحديث سألته : ماشأن المنبوذين
فى الهند اليوم ؟ وكان جوابه : لقد ألغى الدستور نظام الطبقات وقرر
مساواة الهنود جميعاً . قلت : هذا حسن من الوجهة النظرية . فهل
انتقل الأمر إلى الحياة العملية فأصبح الناس يعاملون بعضهم بعضاً
وكأن لم يبق بين الطبقات فارق ؟ . وأجبنى الرجل فى صراحة :
لا أستطيع أن أقول نعم . فما يزال من أهل الطبقات القديمة
من لا يؤمن بهذه المساواة ، ولا يزال منهم من يرى المنبوذين
نجساً ، لكننى مقتنع أن هذا الاعتقاد مصيره إلى الزوال بعد
أن أصبح أبناء المنبوذين يجلسون إلى جانب أبناء الطبقات
الأخرى فى المدارس ومعاهد التعليم ، وبعد أن فتحت أبواب
الوظائف الحكومية للأكفاء جميعاً بصرف النظر عن الطبقات
التي ينتمون إليها ، وبعد أن أصبح من حق الجميع أن يعملوا
فى الأعمال الحرة المختلفة ، وأن يكسبوا من المال ما يؤهلهم كفايتهم .
وللتطور الاقتصادى حكم على التطور العقى ، كما أن التطور العقى

متأثر بأحوال العالم الذي تقاربت أجزاؤه . لهذا أعتقد أن هذا التمييز بين الطبقات صائر إلى الزوال عما قريب ، وإن كان زواله ليس معناه ألا تنشأ طبقات أخرى أساس منشئها الثروة أو الجاه أو ما شئت من أسباب التفرقة المختلفة .

والتقينا ونحن في بنارس بالفيلسوف الهندي الدكتور باجوات داسي ، وهو رجل مهيب الطلعة يبلغ من العمر أربعاً وثمانين سنة ، فحدثته في أمر المنبوذين فكان جوابه غير جواب حاكم بومباي . قال : إن محاولة القضاء على الطوائف معارضة الطبيعة وللتكوين الإنساني . فقد أثبت الإحصاء في أمريكا أن ثلاثة وأربعين في الألف فقط من بين المتعلمين تعليماً عالياً هم الذين يستطيعون السمو بتفكيرهم إلى مرتبة التجريد (abstraction) وأن غير هؤلاء من المتعلمين ومن غيرهم هم الذين يقومون بالتجارة أو بشئون الجيش ، وأن العدد الأكبر هم الذين يزاولون الأعمال الجسدية كالزراعة والصناعة وما إليها . ومن هؤلاء من لا يستطيعون من هذه الأعمال إلا أقلها حاجة للكفاية أو المهارة . وتطبيق هذا الذي قرره الإحصاء بعد ذلك يعود بك إلى تصوير الطوائف في الهند تصويراً يرجع إلى ألوف السنين . وإذا كان هذا التصوير قد فسد وأصبحت الطوائف العليا تعمل لكسب المال وهو محرم عليها فليس الذنب في ذلك ذنب الفكرة المستندة إلى تكوين الإنسان الطبيعي ، بل الذنب ذنب الجماعات الإنسانية التي هوى بها الضعف إلى درك لا يتفق وما فرضته الطبيعة بين الناس من اختلاف .

كان هذا جواب الفيلسوف الهندي الحكيم . وهو كما ترون جواب على لا يغير من واقع الحياة شيئاً . وواقع الحياة في عصرنا الحاضر أكثر اتفاقاً مع الرأي الذي أبداه حاكم بومباي ، والذي تتجه إليه الديمقراطية وغير الديمقراطية في العصر الحديث .

أما تطور شأن المرأة في الهند فأعظم من تطور شأن الرجال . فقد تنازل التطور في أمر الرجال طائفة منهم بعينها . أما المرأة فقد دفعها التطور في كل الطوائف إلى الأمام وإلى الحرية دفعا لا يكاد الإنسان يصدقه . وكان أكبر الفضل في هذا للبهاتما غاندى كذلك . كانت المرأة الهندية إلى عهد غير بعيد في حالة تقرب من الرق ، حتى لكانت تحرق مع زوجها حين يموت ، وكانت في حياتها في مركز يكاد يكون مركز الرقيق . فلما أشركها غاندى في حركة المقاومة في غير عنف ، وفي حركة الغصيان المدني ، أظهرت من قوة الاحتمال ما عجز عنه الرجال في بعض الأحيان . هنالك ارتفعت الصيحة بأن للمرأة من الحق في الحياة ما للرجل ، وسرعان ما انتقلت من ذلك إلى مساواته في الحقوق كلها ، وفي الحقوق السياسية نفسها . ولعمري لمنها بذلك الجديرة . لقد كنت شديد الإعجاب بمدام بانديت شقيقة الرئيس نهرو منذ رأيتها في الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٤٦ وعام ١٩٤٧ ، وكنت أحسبها امرأة ممتازة لا يشاركها في امتيازها رجل أو امرأة . فلما ذهبت إلى الهند وأتيت لي أن أتحدث إلى بعض السيدات هناك ، رأيت صورة إنسانية بالغة غاية الرقي في تفكيرها

وفي ذوقها الحياة . وزادني اقتناعاً بذلك أن شهدت بعض مظاهر النشاط النسوى في الحياة الاجتماعية وفي الحياة التربوية ، لا في دلهي وحدها ، بل في مدن مختلفة زرتها . وليس عجباً أن تهنض المرأة في أمة كل شيء فيها ناهض أو متوثب للنهوض .

ذكرت أن الهند بلاد زراعية أرضها خصبة متنوعة الحاصلات . مع ذلك تعمل الحكومة المركزية متعاونة مع حكومات الولايات الهندية لمضاعفة الإنتاج الزراعي بإقامة السدود لتنظيم الري ، وتعمل في الوقت نفسه لتصنيع البلاد وتركيز الصناعات الكبرى في الأجواء الملائمة لها . والصناعة هي الوسيلة الوحيدة لرفع مستوى المعيشة في الأمم ، وهي كذلك الوسيلة الأكيدة لشعور الأمم بمقدورها الإنسانية على الدفاع عن نفسها . ولقد نشأت في الهند صناعات ضخمة كثيرة في مقدمتها صناعة النسيج للقطن والحرير ، ومنها صناعة الحديد ، والخزف ، ومنها كذلك صناعة أجزاء الطائرات المختلفة . وقد زرت المدرسة التي يتعلم فيها الهنود صناعة الطائرات على يد أساتذة من الألمان ومن السويديين ومن غيرهم فأثارت غاية إعجابي ، وإذا لم تكن قد بلغت بعد أن تصنع محركات الطائرات فإن تقدمها المطرد يبشر بأنها ستبلغ أن تصنع هذه المحركات في زمن قريب .

ولست فيما أذكر من ذلك مبالغا في التفاؤل . فان نشاط الحركة العلمية في الهند يدعو إلى الإعجاب ، بل يدعو إلى الدهشة . وقد كانت هذه الحركة العلمية أشد ما أثار اهتمامي مدة مقامي بالهند . لذلك زرت

كل جامعة استطعت زيارتها في البلاد التي مرتت بها ، وتحدثت إلى الأساتذة والطلاب فيها . وأشهد لقد أدهشني ما رأيته في بعضها من تجارب علمية بالغة غاية الدقة .

كثيرا ما سمعت عن جامعة على كره ، أو اليجار الإسلامية كما يسمونها بالإنجليزية ، وقد ذهبت لزيارتها مع صديقي الدكتور متين دقري بدعوة من مديرها الدكتور زكير حسين . وكان أكبر ظني أن هذه الجامعة الإسلامية تعنى بالدراسات الإسلامية المختلفة ولا تتعدها . فلما بدأنا زيارتنا لم يتغير هذا الظن في نفسي . فقد كان مسجد الجامعة أول ما سار بنا الدكتور زكير إليه . ثم إننا زرنا مكتبة الجامعة ورأينا فيها الكثير من الكتب العربية والفارسية ومن المخطوطات القديمة فلم يغير ذلك من ظني الأول كثيرا . لكنني لم ألبث حين انتقلت مع الدكتور زكير إلى أقسام الجامعة العلمية أن تغير ظني من أساسه . فهذه الأقسام العلمية في الطبيعة والكيمياء والرياضة العليا وغيرها تتناول أدق مشاكل العلم في الوقت الحاضر . وبعض هذه الأقسام بما رتب للبحث العلمي ينقطع له من أتموا دراساتهم العليا ويصلون فيه إلى نتائج تفخر بمثلها أكبر الجامعات في أوروبا وأمريكا ، ويشرف عليها بعض العلماء الأمريكيين . وحسبي أن أذكر لكم من هذه الأبحاث محاولة ناجحة لقياس الضغط الجوي على ارتفاع مائة ألف قدم منها وآثاره الكهربائية على ألواح تعد خصيصا لهذا الغرض وترسل في الجو على مناطيد صغيرة تسجل الآلات الدقيقة فيها هذه الآثار الجوية العجيبة .

وقد شهدت مثل هذه الأبحاث في معاهد جامعة بنجلور وفي غيرها من الجامعات التي زرتها .

وكان أكبر اهتمامي في هذه الزيارات الجامعية أن أبحث الوسيلة التي تستطيع البلاد الشرقية ، وتستطيع الهند معها ، أن تتبادل من ألوان التعاون العلمي والثقافي والفلسفي ما يزيد روابطها قوة لئلا يجعل أبنائها أكثر معرفة بما في غير بلادهم من اتجاهات وأبحاث . ولقد شعرت بأن هذا الموضوع ليس من اليسر بما يتصور الإنسان . قال أحد الأساتذة في جامعة بنجلور بأن بحثا كهذا البحث جرى لتقريب أجزاء الكمنولث البريطاني من الناحية العلمية والفكرية فلم يسفر عن نتيجة . كذلك تحدثت وأنا في بنجلور مع سير صمويل رانجاندان والسيد جوردون في هذا الموضوع وذكرت لهم ماعرض من اقتراحات بعقد مؤتمرات وتبادل أساتذة وطلاب وتبادل مؤلفات وبحوث فتمنيا لي النجاح في المحاولة التي أعالجها وإن بدا عليهما شيء من الشك في هذا النجاح . وكما أود لو استطاع رجال جامعاتنا وعلمائنا أن يتناولوا هذا الموضوع بالبحث فيما بينهم . فالصلات العلمية والأدبية والفنية بين الأمم هي التي تكفل ارتباطها بأوثق رباط .

الفصل الخامس

الإسلام والحضارة الجديدة

(١)

القوة الروحية في الإسلام

يخطئ الذين يظنون أن مصير الإنسانية رهن برخائها المادى ، وأن تطورها إلى ناحية الكمال يتأثر بهذا الرخاء . إنما يرتبط مصير الإنسانية بحياتها الروحية وبالإيمان الحق بهذه الحياة . والتاريخ شهيد بذلك . فحيثما هبطت الحياة الروحية إلى أوضاع مادية نشأت الأزمات الإنسانية الخطيرة ، وآذن التاريخ أن يتجه وجهة جديدة . وإن بلغ الرخاء أعظم مبلغ وحيثما سمت الحياة الروحية إلى المعاني العليا نشطت الإنسانية فى اتجاهها نحو الكمال . وازدادت حرصاً على بلوغ الغاية من معرفة الحق والخير والجمال . ولو لم يكن الرخاء عاماً ، ولو كان عيش الناس أدنى إلى الشظف والتقصيف .

هذه حقيقة يشهد بها التاريخ القديم ويشهد بها التاريخ الحديث . ولئن كانت القوة المادية تستطيع مقاومة القوة المادية لى عاجزة كل العجز عن مقاومة القوة الروحية . وحسبنا مما شهدنا أخيراً ما قاومت به الهند إنكاراتها

بزعامه المهاتما غاندى . فقد حتم زعيم الهندوكيين الروحى على أصحابه ألا يقاوموا قوة الحكومة المادية بأية مقاومة إيجابية . وطلب إليهم أن يكتفوا بالمقاومة السلبية ، وأن يأبوا معاونة المعتدين عليهم ، وأن يستهينوا بالموت فى سبيل عقيدتهم هذه ، فكانت تلك قوة أعظم من كل قوة مادية إيجابية تستطيع الهند فى وضعها الحاضر أن تقاوم بها لإنكلترا . ولأننى لعلى ثقة من أن هذه الحال إن استمرت عن عقيدة صادقة وإخلاص وإيمان قديرة على بلوغ كل الأغراض التى يراد أن تبلغها ، وهى إذا كانت قد قصرت دون الوصول إلى الغاية كاملة فلأن القائمين بها لم يستمروا فيها إلى النهاية .

وفى التاريخ أكثر من شاهد على قوة الحيوية الروحية قوة لا يمكن لقوى المادة وإن اجتمعت أن تغلب عليها . وانتشار المسيحية فى روما أول أمرها وما احتمل المسيحيون من اضطهاد وتعذيب وقتل شاهد على ما أقول . وما حدث فى مصر كذلك من تعذيب المسيحيين ومن تغلب المسيحية ، على رغم هذا التعذيب ، شاهد آخر . على أن أقوى شاهد فى تاريخ الإنسانية على اقتدار القوة الروحية على الانتصار والظفر بقوى الحياة المادية كلها إنما هو ما حدث حين قام محمد النبى العربى فى شبه جزيرة العرب يدعو إلى عبادة الله ، وإلى تحطيم الأصنام ويجادل اليهود ويجادل النصارى ويصل بقوته الروحية التى سمت إلى الذروة من قوى الروح إلى إقرار التوحيد فى شبه الجزيرة ، وإلى التمهيد لانتشاره بسرعة لم تعرف الأديان الأخرى نظيرها فى أنحاء العالم كله .

لقد كانت الوثنية هي الدين الغالب في بلاد العرب حين بدأ محمد يدعو إلى الإيمان بالله وحده ، والعبودية له وحده ، والمساواة أمامه ، والإخاء فيه . لكن الأديان المعروفة يومئذ وأقواها اليهودية والنصرانية كانت معروفة في بلاد العرب ، وكان لها دعاة وأتباع . وكانت المجوسية الفارسية معروفة ، إذ كانت الفرس تتاخم بلاد العرب بسلطانها على الحيرة وعلى اليمن . فلما بدأ النبي العربي دعوته كان أول ما اتجه بها إلى عشيرته الأقربين من عباد الأصنام . ومع أنهم كانوا أصحاب سلطة ومجد ، ومع أنهم كانوا القائمين بتجارة بلاد العرب فيما بين قبائلها المختلفة ، والقائمين بها بين هذه القبائل والبلاد المجاورة لبلاد العرب كالخيرة والشام ، ومع أنهم كانوا بذلك أولى بأس مادي شديد فإن القوة الروحية التي دعا بها محمد إلى التوحيد قد تغلبت على أموالهم وعلى بطشهم وبأسهم . وسرعان ما كسبت لذلك أنصاراً جعلوا يزدادون عدداً بتوالي السنين وجعل عددهم يزداد سراعاً كلما تبين الناس هذه القوة الروحية وسموها فوق الاعتبارات التي يجري الناس وراها .

فلما آن لمحمد أن يهاجر إلى يثرب ، ووجد اليهود من أهل الكتاب بين أهلها يؤمنون بالله ، وادعهم وعاهدهم . لكنهم ما لبثوا حين رأوا قوته الروحية أسمى من كل ما يعرفونه أن يرموا به وأرادوا إيقاع الفرقة بين صفوف أتباعه بالديسة وبالخداع وبالنفاق . والقوة الروحية الصادقة لا تعرف هذه الوسائل التي يلتمس بها سواد الناس سلطان الجاه وسلطان المال ، لذلك أسرع التخصومة إلى القيام

بينهم وبين المسلمين المعتزين بقوتهم الروحية ، المستهينين بالموت في سبيلها ، إيماناً منهم بأن الدعوة للحق جل شأنه أسمى غرضاً في الحياة لسلك من اهتدى إلى الحق عن إيمان وبصيرة .

وخاصم اليهود محمداً ومن تبعه فدارت عليهم الدائرة واضطروا إلى الجلاء من شبه جزيرة العرب كلها مع أنهم كانوا يثيرب أصحاب السلطان النافذ من الناحية المادية لأنهم كانوا أصحاب المال فيها . فأما النصارى فلم يخاصموا محمداً والمسلمين مخاصمة اليهود إياهم لأن المسيحية تفرقت شيعاً منذ عهودها الأولى . ودب إلى أتباع عيسى شقاق أدى إلى الجدل المادى حول الألفاظ وأدى إلى تصوير الحياة الروحية تصويراً ماديّاً يسيغه الخيال ويفتن في تلوينه افتناناً يزيد في هذه الشيع والفرق ويدخل إلى حياتها الروحية من التعقيد مالا تسيغه بساطة هذه الروح بساطة هي مبعث قوتها . ومن ثم اتبع كثيرون من النصارى محمداً وبقي آخرون على نصرانيتهم منزوين لا يثيرون ما أثار اليهود من حرب وجدال لإنهى بهم إلى الجلاء عن بلاد العرب .

وكان أمر الجوسية أضعف من أمر اليهود والمسيحية في بلاد العرب فلم يكن لذلك جدال ولا فضال بين أتباعها القليلين وبين الدعوة إلى التوحيد .

على أنه إذا كانت نصرانية بلاد العرب قد آثرت مسالة محمد والمسلمين الذين آمنوا بدعوته فإن الأمبراطورية البيزنطية المتآخمة

لببلاد العرب خاف أصحاب الحكم فيها على نفوذهم أكثر مما تمسكوا
بدينهم . فآثروا أن يناصبوا المسلمين الحرب على أنها حرب سياسية
لا حرب عقيدة ودين ، وحيث ترتطم السياسة ومداورتها مع
العقيدة القائمة في النفس على إيمان لا يهاب الموت تتحطم السياسة
وأساليبها وقواها وتنتصر العقيدة الصادقة والإيمان الخالص . لذلك
لم تمض سنوات على اختيار الله نبيه إليه حتى كان سلطان المسلمين
قد أظلم بلاد الشام الخاضعة للامبراطورية الرومانية الشرقية كما أظلم
بلاد فارس المجوسية ، وفي هذه البلاد التي فتحت أبوابها للمسلمين قام
الدعاة يدعون إلى دين الله فلم يلبث أهل هذه البلاد أن رأوا بساطة
الإسلام وسمو وجمال الدعوة الخلقية القائمة على الإيمان فيه وما يقيم
بين المؤمنين به من إخاء صادق في الله ومن بر وتقوى .

هنالك انشرفت صدور الأكثرين من أهل هذه البلاد للإيمان ،
فآمن منهم من آمن وبقى على دينه من بقى . لم يكرهه حاكم على التحول
عنه أو تبديله .

ولم يمض قرن واحد على خروج الدعوة الإسلامية من بلاد
العرب حتى كان الذين دانوا بالإسلام مئات الألوف . وحتى كانت
قوة الإسلام الروحية قد غزت القلوب والعقول ببساطتها ومخاطبتها
النفس الإنسانية في أعظم نواحيها سموا وعظمة ، لكن أوضاعاً
مادية من أوضاع أهل الأديان الذين اعتنقوا الإسلام ما لبثت أن
تسربت إلى بعض نواحيه ، كما أن دعايات سياسية عملت جهدها

لتسكثّر من هذه الأوضاع المادية . وقد خيف أن نفشو بين المسلمين
الفرقة والتشيع كما فشّت في المسيحية فيكون لها على المسلمين ما كان
لها من الأثر على المسيحيين. ولو أن ذلك حدث وامتنع حل أمره لكان
الطامة الكبرى . لكن ما حدث منه ، وما أضعف بحدوثه هذه القوة
الروحية العظيمة التي جاء الإسلام بها وانتشر سلطانها لم يؤثر لحسن
الحظ ، على جوهر الدين وعلى أساسه القائم على التوحيد . وهذا
هو ما جعل المسلمين بعد أن طغت عليهم دول كثيرة يحتفظون
بإسلامهم ولا يبتغون غير الإسلام ديناً . وذلك ما جعل القوة
الروحية التي امتاز بها الإسلام تظل محتفظة بكيانها وإن أضعف منها
هذا الذي حدث وأخضع أهلها لغيرهم من الدول .

ولو أن هذه القوة الروحية عادت تملأ نفوس المسلمين اليوم كما
كانت تملأ نفوسهم في صدر الاسلام وفي عهوده الأولى لما استطاعت
قوة مادية أن تتغلب عليها وإن آزرتها معجزات العلم بكل سلطانها .
وليس هذا العود بالأمر العسير إذا تضافرت جهود المسلمين الصادقين
عليه . ولو تضافرت هذه الجهود لأسدى أصحابها للإنسانية يداً
ولأتقذوها من أزمة تعانيتها وتعالج الخروج منها فلا تجد إلى الخروج
من سبيل .

(٢)

أوروبا والإسلام ولم لا يتفاهمان ؟ (*)

أما أنه ليس هناك تفاهم بين أوروبا والإسلام فهذا أمر لاشك فيه ، غير أن كثيراً من الأوروبيين يرجعون هذا إلى الدين ، وهم يقولون إن المسيحية والإسلام عاشا في خصومة مستمرة منذ ثلاثة عشر قرناً ، ولذلك كان من الطبيعي أن ينشب بينهما الخلاف وأن لا يتم التفاهم بين أوروبا والإسلام ، تلك فكرة مخطئة ، وإذا كان فيها ظل من الحقيقة فهو بمقدار ما في قولنا إن فرنسا وإنجلترا لم يستطيعا التفاهم قبل سنة ١٩١٤ . فقد كانتا قبل هذا التاريخ عدوتين كأشد ما تكون عدوتان نفرة وخصاماً وليس من السهل على إنسان يحكم عقله فيما يعرض له من مظاهر أن يقبل نقاشاً من هذا النوع ، إذ أن هاتين الدولتين متفاهمتان تفاهماً تاماً ، وليست الأفكار الديمقراطية التي شاعت في فرنسا سنة ١٧٨٩ إلا نفس الأفكار التي جاءت بها الثورة

* وكانت صحيفة — الكايه دي سيد — التي تصدر في فرنسا قد بعثت إلى الدكتور هيكل تطلب إليه أن يكتب مقالا بالفرنسية لينشر في العدد الذي خصصته هذه الصحيفة — للإسلام والغرب — بعث إليها بهذا المقال عن أسباب عدم فهم أوروبا للإسلام وما يراه من الوسائل الكفيلة بخلق تفاهم بينهما . وقد ترجمه الأستاذ أحمد عبد الغفار المحامى (١٩٣٦) ،

الإنجليزية في سنة ١٦٨٨ ، وهى التى هيات لما نتج عنها من تطورات . وهذا نفس ما وقع بين أوروبا والإسلام . فإن أوروبا قد استفادت كثيراً من الجهود العلمية والفلسفية التى جاءت بها الدولة العباسية فى العصور الوسطى . ولا أحسب أنى أنهم بالمغالاة إذ قلت إن المسلمين هم الذين فتحوا عيون أوروبا على الحضارة والفلسفة اليونانية ، وذلك عن طريق نقل آثار أفلاطون وأرسطاطليس إلى العربية وتعليقهم على هذه الآثار . ولم يمنع الدين المسيحى ولا الدين الإسلامى أن تستفيد أوروبا من هذا الجهد الإسلامى .

ودليل آخر على أن هذه فكرة مخطئة هو أن كلا من المسيحية والإسلام إنما يشيران إلى نفس الآراء فيما يختص بالكون . فقصدة التكوين ، والخير والشر ، والخلق كله ، والأوامر والنواهي ، واحدة فى كل من الدينين ، فليس بين الدينين من خلاف إلا فى فكرة الوجدانية فى الإسلام وموقفه من فكرة التشليث ، وفى بعض الوقائع التاريخية التى تتعلق بأبناء النبيين . غير أن هذه الخلافات — التى لا تهمس الجواهر — ليس من شأنها أن تقدم التفاهم . أو تقيم خلافاً كالذى دفع إلى الحروب الصليبية قديماً ، والذى ما يزال حياً الآن بين أوروبا والمسلمين .

ومن ناحية أخرى فإن أوروبا تدعى أنها تطورت وأنها خرجت من الدائرة اللاهوتية ودائرة ما وراء المادة إلى الحالة الوضعية . وهذه الحالة التى تدعى أوروبا اصطلاحاً لا تساعد على جعل الدين

أساساً لصلات الإجتماع ، في حين أن المصالح الاقتصادية استطاعت أن تشعل نيران أكبر حرب عرقها الإنسانية حتى اليوم .

ومعنى هذا أن تلك الحالة الوضعية لا تبيح أن يكون الدين — وفقاً لمنطقها ذاته — سبباً في استبعاد التفاهم بين شعبين ، بله بين أوروبا والمسلمين .

وقد يقول أحد الأوربيين : حقاً إن الدين ليس في ذاته سبباً في عدم التفاهم هذا ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون تعصب المسلمين هو السبب في تلك الحالة التي يتبادل فيها الأوروبيون والمسلمون العداء . وهذا كلام ليس أكثر ابتعاداً عن الصواب مما قدمنا ، فلست أتردد في أن أقول إنه إذا كان هناك تعصب فعلاً فإن هذا التعصب ليس من بضاعة المسلمين ، ولست ألقى هذا القول جزافاً فإن الحقائق كلها تؤيد ما أذهب إليه . فلما جاء بونايرت إلى مصر في سنة ١٧٩٨ ، لجأ إلى العلماء لكي يمدوه بالمساعدة في إدارة البلاد . وإذا كانت غزوة بونايرت لم تنجح في مصر بعد رحيله عنها ، فذلك لأن القائمين عليها إذ ذاك أغفلوا الشعور الوطني متأثرين بالتعصب الديني . ولو قد كان التعصب لدى المصريين على هذه الصورة التي يتخيلها الأوروبيون لسكانت تسكني تصريحات نابليون وكليبر ومينو ، وقد كان العلماء الدينيون في مصر معهم ، كانت تسكني هذه التصريحات اكسب شعور البلد ، ولكنهم فشلوا لأن النزعة الوطنية كانت أقوى من التعصب الديني عند الأهليين ولذلك لم يستطع لا نابليون ولا من خلفه

على الحملة الفرنسية أن يكسبوا المصريين في صفهم .

وحقيقة أخرى تثبت بوضوح أن التعصب الديني منعقد تماماً عند المسلمين . تلك أن أغلبية البلاد الإسلامية — إبان الحرب الكبرى — انضمت إلى صف الحلفاء مع أن تركيا وحدها هي التي انضمت إلى ألمانيا ، ولقد فشلت الدعاية القوية التي بذلتها تركيا لإغواء هذا التعصب الديني المزعوم لكي تضم البلاد الإسلامية إلى جانبها ، والسبب في هذا أن البلاد الإسلامية كانت إذ ذاك لا يدفعها إلا الشعور الوطني ومصالحها المستقبلية . وحقيقة ثالثة تثبت أن هذا التعصب لا وجود له — هي تركيا الحالية . فقد اتجهت بكل جهودها إلى أوربة لكي تقتبس منها ما يعيد إليها شبابها . ولست في مقام الحكم على مدى نجاحها في هذا السبيل ، ولكن كونها وبقائها إلى الآن بلداً إسلامياً ، قد أظهرت بمسلكها هذا أنه لا الدين ولا التعصب يمكن أن يكون سبباً لعدم التفاهم بين أوروبا والمسلمين .

ولكي نتعرف هذه الأسباب يجدر بنا أن نستعيد جانباً من التاريخ ، فبعد وفاة النبي العربي صلى الله عليه وسلم بثلاثين سنة ، أنشأ المسلمون امبراطورية إسلامية واسعة النطاق . ولم تكن فكرة الاستعمار هي التي تدفع المسلمين للغزو ولكنه كان إيمانهم وتعصبهم لفكرة الوحدةانية هو الذي يبعث فيهم روح الغزو لينشروا ما آمنوا به في كل الأنحاء وليجوا آثار الوثنية . وبعد ذلك بمائة عام قام المسلمون بغزوات أخرى . وكان نفس هذا الباعث هو الذي يدفع

المسلمين ، ولكن بجرارة أقل ، وحماس ديني أقل . فقد كانت فكرة الغزو للغزو في هذه الآونة ، وفكرة الاستعمار حياً في الاستعمار ، تساوى تماماً فكرة نشر الدين الجديد .

وبعد ذلك بخمسين سنة قام المسلمون بغزوات أخرى . ولكن في هذه المرة لم يكن الباعث الديني هو الذي يحمل المسلمين على الغزو ، بل كانت فكرة الغزو للغزو ، والسبب في هذا واضح ، فقد كان الإسلام منتصراً كل الانتصار فلم يعد في حاجة إلى زيادة التوسع بقدر ما كان المسلمون أنفسهم في حاجة إلى غزو بلاد جديدة تدفعهم فكرة الاستعمار . وهذا التطور من فكرة نشر الدين إيماناً بوجوده نشره ، إلى فكرة الاستعمار للاستعمار يعتبره الكثيرون السبب في قيام الحروب الصليبية ، ومع ذلك فإن بعض المؤرخين يذهبون إلى القول بأن الحروب الصليبية هي حروب سياسية بقدر ما هي حروب دينية ، وأن الملوك الذين اشتركوا فيها لم يلجأوا إلى الشعور الديني عند رعاياهم إلا لاستئثارهم وزيادة حماسهم وزيادة القوة المعنوية بين صفوفهم .

ومرت بعد ذلك قرون حتى انتهى الأمر باستيلاء الأتراك على استانبول في القرن الخامس عشر . وكان أثر هذه الحملة الآسيوية التي قام بها الأتراك في البلاد الإسلامية عكس أثرها في أوروبا ، فقد شعرت شعوب أوروبا بهزة أيقظتها من سبات القرون الوسطى . وأما في البلاد الإسلامية فإن الأمر يختلف عن ذلك . فلم يكن بين الشعب الغازي والمسلمين أية علاقة تجمعهم جميعاً إلا علاقة الدين ،

لا علاقة الجنس ، ولا علاقة اللغة ، ولا علاقة التفكير . وأما الدين فلم يكن في نظر الأتراك إلا راية للحرب تتخذ وسيلة لعقاب كل بلد إسلامي لا يخضع للأتراك . وقد ترتب على هذا أن العالم الإسلامي راح في سبات عميق عند غزو استانبول في حين أن أوروبا بدأت تستيقظ وتنتجه إلى حيايتين ذهنية وروحية جديدتين على دوى هذا الغزو .

يبد أن هذه النهضة الأوروبية لا تشابه تلك النهضة الروحية التي كانت شبه جزيرة العرب مسرحاً لها قبل ثمانية قرون تحت تأثير ما بعث به محمد من الحق .

وليس النهضة الدينية التي أظهرت لوثر إذ ذاك إلا خلافاً على تفاصيل الدين لا على جوهره ، ولذلك فإنه ليس يمكن أن توازن هذه النهضة بما كان من نهضة الإسلام الأولى ، ولذلك كانت ثورة لوثر أقل من أن تؤثر في أوروبا كلها ، وإن تكن قد عبثت الطريق للمذعب ديكارت والفلسفة الوضعية بعد ذلك . وبينما كان هذا التطور العقلي يهز أوروبا ، كان مبدأ الجفسيات يتأكد في الأذهان تمهيداً لأن يكون قاعدة للحياة السياسية المستقبلية . ومن الحق أن نقول إن هذا المبدأ كان دائماً موجوداً في أوروبا ، ولكنه لم يكن بمثل القوة التي ظهر بها بعد عصر النهضة وإحياء العلوم ، وقد اقتضى هذا المبدأ الدول الأوروبية أن توسع من نفوذها خارج أوروبا تفادياً لقيام حرب بينها في داخلها . وهكذا بدأت السياسة الإستعمارية أشق طريقها في أوروبا ، تلك السياسة

التي تكون السبب الحقيقي لعدم التفاهم القائم بين أوروبا والإسلام .

ولنشرح هذا قليلا ؛ ففي غضون القرن السابع عشر نصح الفيلسوف الكبير « ليبنتز » ، لويس السادس عشر أن يحفر قناة تصل ما بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ، ولم يكن غرض ليبنتز بالطبيعة من هذه النصيحة نشر فلسفته ، بل كان الغرض الذى يرمى إليه هو فتح الطريق أمام التوسع الأوروبى فى أفريقيا وآسيا . فقد كان لإسبانيا مستعمراتها فى أمريكا وكانت تدر عليها الذهب ، فكان من الضرورى أن يكون لغيرها من الدول مستعمرات كذلك . وفى نفس هذا الوقت انتهت المفاوضات التى كانت جارية مع تركيا إذ ذاك بمنح المسيحيين الذى يقيمون فى البلاد الإسلامية امتيازات من شأنها أن تسهل لهم الإقامة والاتجار . ولم يكن أحد يفكر عندئذ فى إدخال المدنية إلى الشرق ، ذلك الادعاء العبقرى الجليل الذى لجأت إليه الدول الأوروبية لتبرير الاستعمار بعد ذلك بقرنين . هذا وقد منح الباب العالى امتيازات للدول المختلفة للوصول فى النهاية فى شرط أولى الدول بالمراعاة . وهكذا رسخت التجارة الأوروبية فى الشرق توطئة للحضارة الإستعمارية .

وقع بعد ذلك حدث — لست أدري أكان وقوعه لحسن الحظ أم لسوئه — ساعد على رسوخ هذه الحضارة الإستعمارية ، ذلك هو الصناعة الكبرى . فلكى تجدد الدول الأوروبية الأسواق اللازمة لاستهلاك ما تخرجه صناعتها الكبيرة من منتجات . أخذت هذه

البلاد تتنافس في غزو المستعمرات . وكانت الفسكرة في هذا إيجاد أسواق جديدة للمنتجات الصناعية والبحث عن حقول جديدة كذلك لإنتاج المواد الخام .

وكانت هذه الروح الإستعمارية في إبان سطوتها عندما انفجرت الثورة الفرنسية فهزت أوروبا من أركانها إلى أقصاها بما أشاعت من فكر عن الحرية والإخاء والمساواة . وبما جاهدت في سبيله من توطيد لحق الشعب في حكم نفسه ، ومن وضع لقواعد الديمقراطية الحالية .

ولكن كيف يمكن أن نوفق بين هاتين الفكرتين المتناقضتين : الحرية والاستعمار ؟ من العسير حقاً أن نفهم هاتين الفكرتين معاً ، ولكن أصحاب الثورة الفرنسية لم يترددوا لحظة أمام هذه الصعوبة في التوفيق بين الفكرتين ، فلقد قالوا إن المبادئ الجديدة التي جاءت بها الثورة الفرنسية يجب أن تظل محصورة ضمن أوروبا فلا تتعداها . وعندما جاء نابليون إلى مصر ، لم يكن مدفوعاً إلى اجتياز البحر الأبيض بدافع الحرية . ولكنه كان مدفوعاً بمقاومة وضع اليد الإنجليزية على مصر توطئة لمرحلة النفوذ البريطاني في الهند . وإذن فقد كانت فكرة الاستعمار ، والاستعمار فقط ، هي التي تحكم نشاط كل من إنجلترا وفرنسا في مصر . ولذلك فإن هذه المبادئ التي نادى بها الثورة الفرنسية ، مبادئ الحرية والمساواة والإخاء لم تقف قط عقبة في سبيل تقدم أوروبا في الشرق وفي البلاد الإسلامية .

يبد أنه من الواجب — إلى جانب هذا الدافع الحقيقي — أن

تبحث أوروبا عن تعلقة أخرى تبرر بها الغزو الأوربي للبلاد الشرقية . ولم يكن البحث عن هذه التعلقة بالشئ العسير . فإن هذه الشعوب المستعمرة شعوب أولية ومن الحق على أوروبا أن تعلم هذ الشعوب ، وأن ترفعها إلى مستوى الحضارة الجديدة ، وأن تكونها وتدرجها بحيث تستطيع أن تحكم نفسها بنفسها وفقاً للآراء الديموقراطية . كانت تلك هى التعلقة التى استترت أوروبا وراءها ، وإنها لتعلقة عبقرية حقاً . فلو قد كانت هذه العواطف صادقة ، ولو قد كانت أوروبا مخلصه فيما تريد أن توطد قدمها من أجله فى الشرق ، لكان واجباً على هذه الشعوب الشرقية أن تقابل التهنة على روح العطف على الآخرين التى تبدو من أوروبا إذ ذاك .

ولقد آمنت هذه الشعوب الشرقية بسداجة تامة بهذا الإخلاص الذى أبدته أوروبا ورغبت بكل قواها أن تقتبس الحضارة والثقافة الأوربية . ولكنها سرعان ما تبينت أن لا مؤامنة هناك بين هذه الجهود التى تبذلها وبين الأغراض الحقيقية لهؤلاء الأسياد الذى كانوا يمكنون أقدار هذه الشعوب عندئذ . فالحضارة الأوربية إنما تقوم فى الواقع على العلم وعلى رأس المال الصناعى وأرادت الشعوب الشرقية أن تستعيد القرون الثلاثة التى سبقتها بها أوروبا فحسبت أن مبادئ الإخاء والمساواة من شأنها أن تملى على أوروبا واجب الأخذ بيد هذه الشعوب لىكى تحصل على نصيبها من العلوم ومن رأس المال المستغل فى الصناعة . كما كان الحال مع المسيحيين الأول الذين حاولوا بكل ما يملكون من جهد أن

ينشروا ما جاءت به المسيحية والإسلام . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . ومنذ أوائل القرن التاسع عشر رغب المصريون في اصطناع العلوم والصناعات في بلادهم ، وساعدتهم الظروف على موافاة أملهم هذا ، ثم نما هذا الأمل بعد الاحتلال البريطاني ، فقد كان من حق المصريين أن يعتقدوا أن إنجلترا سوف تصدر لمصر — فيما تصدر من مصنوعات — منتجاتنا القطنية — حضارتها الجديدة كذلك . فانتظر المصريون أن يروا إنشاء الجامعات ، ونشر التعليم العام ، وإنهاض الصناعات الكبيرة . ولكن هذا الأمل ما اُبْتُ أن خيأ ، فقد اتهمت البلد المغزو بأنه بلد بعيد عن الحضارة ، وأن هذا ناشئ عن الدين الإسلامي .

ولقد جاهر للورد كرومر ممثل بريطانيا العظمى في مصر — في تقاريره الرسمية — أن الغرض من التعليم يجب ألا يتعدى إخراج موظفين مطيعين يعملون في الإدارة . ولم يكن يهم إنجلترا أن تتقدم مصر في ناحية من النواحي إلا في إنتاج القطن والمواد الأخرى الخام التي يحتاج إليها الاستهلاك وتحتاج إليها الصناعة البريطانية ، ويجب أن نعترف أن إنجلترا بذلت مجهودات هائلة لتحسين إنتاج القطن وغيره من المواد الخام . غير أن أى طلب ينصب على إنشاء صناعة كسفيها كانت يوظف فيها رأس المال المصرى ، كل طلب من هذا الطراز كان يقابل بالرفض البات ، أو بوضع عقبات — لا يمكن التغلب عليها — في طريقه . وما حدث في مصر حدث

في غيرها من البلاد المستعمرة . ولم يكن التنافس الاستعماري المسرف غير الدافع لعليوم الثاني على أن يقول إن مستقبل ألمانيا ليس إلا في البحر ، ولم يكن إلا الدافع إلى إعلان السلام المسلح ، الذي أمل على أوروبا أن تنفق مئات الملايين في التسليح ، ولم يكن إلا الباعث على نشوب الحرب العظمى في سنة ١٩١٤ . وسياسة كهذه لا يمكن أن تطمنن إلى غدها ، ولا يمكن أن تضع ثقها في شيء ، ولذلك لم يكن لأوروبا بطبيعة الحال ثقة في مستعمراتها ، ولم يكن للبلاد المستعمرة — من باب أولى — ثقة في نوايا أوروبا ، ومن أجل هذا كان عسيراً أن يقوم تفاهم بين أوروبا والإسلام .

ولم يكن للشعوب المستعمرة ثقة في أوروبا ، ليس فقط لأن أوروبا كانت تعاملها باعتبارها شعوباً غير متحضرة ، ولكن لأنها كانت تطبق في مستعمراتها الآراء التي حكمت عليها — داخل بلادها الأوروبية — بأنها ألفة الضرر . فقد قررت فرنسا مثلاً فصل الكنيسة عن الدولة داخل بلادها ، وقررت كذلك تجريد رجال الكنيسة من أموالهم ، وأعلنت بعد ذلك الحالة المدنية . ومع كل هذا فإن الحكومة الفرنسية المدنية تعطى أموالاً طائلة للبعثات الدينية التي تدعى أنها تنشر المسيحية .

ومن الحق علينا أن نعترف بأن هذه البعثات الدينية — سواء منها الفرنسية والأمريكية والإنجليزية وغيرها — قد قامت بأعمال إنسانية في الشرق فقد أسست هذه البعثات معاهد علمية ، ومستشفيات ومؤسسات خيرية . ولكن البعثات المدنية قامت كذلك

بأعمال كثيرة من هذا الطراز. والواقع أننا لا نستطيع أن نفسر هذا التناقض الظاهر في مسلك الحكومات؛ الأوربية إذ أن هذه الحكومات تطارد البعثات الدينية من بلادها لكي تحميها في الخارج، فإن لم يكن الباعث هذه الروح السياسية الاستعمارية لما عاملت البلاد المستعمرة غيرها من البلاد وفق المبادئ التي قامت الثورات ضدها عند الأمم الأوربية.

ومن العوامل التي ساعدت على عدم قيام تفاهم بين أوروبا والإسلام هجرة العناصر غير المرغوب فيها في البلاد الأوربية إلى البلاد المستعمرة بحثاً عن الثروة دون إقامة أدنى وزن للوسائل والأساليب التي يستخدمونها فيما هم بسيله من غرض. ويكفي أن يقرأ الإنسان كتاب « إدمون أبو، القديم المسمى « الفلاح، لكي يدرك الإنسان إلى أى ددرك تنحط هذه الوسائل والأساليب في أغلب الأحيان، ولكي يعرف أن الربا قد يكون أقرب هذه الوسائل إلى الخير والفضيلة.

وعند ما غاب أمل الشعوب الإسلامية — كما وضعنا ذلك — في نيات أوروبا، أحست هذه الشعوب، قبل الحرب الكبرى بمدة سنين، أن من واجبها ألا تعتمد إلا على مجهودها الخاص، ولم يكن أمل هذه الشعوب الإسلامية كبيراً في النجاح؛ ولكن يجب أن نعرف إلى جانب هذه الحقيقة التي قررناها، أن ضعف الأمل في النجاح لم يقف عائقاً دون هذه الشعوب وما تبغى من الأغراض، بل لم

يمنعها هذا من الإستزادة من النشاط مع الإيمان دائماً بالعدالة الإلهية العالية .

واشد ما كان دهش هذه الشعوب عندما اندلعت أول شرارة للحرب العظمى في الثاني من أغسطس سنة ١٩١٤ : ففي غضون المدة الطويلة التي استمرت فيها الحرب كانت دعاية الحلفاء التي تنادى بأنها تحارب الروح العسكرية الألمانية لكي تنصر الحرية ، والوعود التي كان يبذلها هؤلاء للشعوب المستعمرة ، والمبادئ التي جاءت بها الهدنة ، وخاصة الاعتراف بحق الشعوب في تقرير مصيرها — كل هذه أمور كان من شأنها أن تفتح أمام الشعوب المسئلة آفاقاً جديدة وبالأخص أمام الشعوب التي انتصرت لقضية الحلفاء .

وإذ انتهت الحرب ، ووقعت المعاهدات ، أخذت آمال هذه الشعوب تذوب II أكانت إذن خدعة من أوروبا عندما قام من ينادون بحق تقرير المصير ؟ أكان إذن خدعة ذلك النضال ضد الروح العسكرية الألمانية ؟ وهل بقيت أوروبا ما بعد الحرب إزاء الشعوب الإسلامية هي أوروبا ما قبل الحرب ؟ لقد كانت خيبة الأمل في ذلك كله أكبر من الآمال التي عقدتها هذه الشعوب على أوروبا .

يبدو أن شيئاً لا يمنع من قيام تفاهم متبادل بين أوروبا والإسلام إذا وجد الرجال ذوو العزائم من الناحيتين ، الذين يأخذون على عاتقهم القيام بهذا العبء الضخم .

والكن أين يوجد هؤلاء الرجال ؟ أين الكتاب والفلاسفة

وبرجال العلوم ؟ أعتقد أن من الواجب عليّ أن أقول — دون أن أخدش جميع من ذكرت — إن هؤلاء كلهم يتحملون نصيباً كبيراً من المسؤولية عن قيام عدم التفاهم الحالي بين أوروبا والإسلام ، إذ أن الأغلبية منهم تنسى أن لهم رسالة إنسانية ، رسالة لا تعرف حدود الدول السياسية ، هؤلاء الكتاب والفلاسفة وأصحاب العلوم يضعون نبوغهم وعبقريتهم في خدمة سياسة بلادهم القومية ؛ وليس من ينسکر أن هذا واجب عليهم إذا تعرضت أوطانهم . للاخطار ولكن هذه الأخطار قليلة الحدوث في الغالب ، ومن واجب رجال السياسة أن يسبروا أمور الوطن وقت السلم تسييراً يكون من نتائجها الابتعاد عما يوقد نيران الحرب ، ففي هذه الأوقات ، من الحق على أصحاب الإنسانية من الكتاب وغيرهم من رجال الفكر ، أن يستجروا جهودهم لخدمة قضية الحرية والتعاون بين الشعوب .

وحرية الشعوب التي نعنيها شديدة بحرية الأفراد . يحترمها الجميع ويعترف بها الجميع ، دون نظر لثرواتهم أو لقواهم المادية ، وتعاون الشعوب الذي نعني به تعاون قائم على القاعدة السابقة بين الأمم . وحسبنا بهذه وسيلة للتفاهم المرموق .

ولكن هل يمكن أن ينجح الإنسان في دفع رجال الفكر في العالم إلى طريق كهذا الطريق ؟ تلك هي المشكلة ، وذلك أن المصالح المادية — لسوء الحظ — من القوة بحيث لا تجعل حلالاً مل العريض . فهذه المصالح حتى الآن هي التي تدير النشاط في العالم ، بل إنها تدير

حياته الروحية والخلقية . غير أننا لا يجوز أن نياس مع ذلك . فإن كثيرين يعتقدون أننا الآن في سبيل بعث أكبر من البعث الذى رآته أوروبا في القرن السادس عشر في عصر النهضة وإحياء العلوم ، وأن هذا البعث لن يقتصر على أوروبا ، بل إنه سوف يشمل دول العالم جميعاً . وسيكون هذا البعث نتيجة طبيعية لهذه الحرب الاقتصادية المستعرة بين الشعوب ليس في أوروبا لحسب ، ولكن في آسيا وأمريكا كذلك . فلنؤمل إذن أن يقترب موعد حرية الشعوب والتعاون بينها لسعادة الجميع ورفاهة الجميع .

ويومئذ ، لن يوجد عدم التفاهم بين أوروبا والإسلام ، بل سنبوجد تفاهم عالمي للوصول إلى الحقائق الخلقية العالية ولتوطيد السلام بإقامة الحياة الخلقية على البصيرة الروحية والحياة الاقتصادية على الحياة الخلقية .

(٣)

وجهة الإسلام

د يجب علينا في الحثام أن نتساءل عما يمكن في مستقبل نظام العالم أن يكون وضع الجماعة الإسلامية بصفة عامة ؛ وأن تكون صلاتها بالجماعات الإنسانية الأخرى بصفة خاصة . لقد أوضح الأستاذ برج بحق أن اللقاء الشعوب الإسلامية بوزنها في كفة الغرب أو في كفة الشرق يتعلق تمام يتعلق بموقف أوروبا من العالم الإسلامي ومن الشرق بوجه عام . والإسلام لا يمكن في نفس الوقت أن ينكر أسسه الذاتية وأن يعيش . وقد رأينا أن الإسلام في أسسه يتصل بالجماعة الغربية بمعناها الواسع ، بل هو جزء منها ، فهو مكمل الحضارة الأوروبية ومعد لها ، استقى من الإنياييع التي استقت منها هذه الحضارة وتنفس الهواء الذي تنفست . وما هو حادث اليوم بين أوروبا والإسلام إنما هو في أوسع صور التاريخ مدى استعادة حضارة الغرب كمالها الذي تصدع تصدعاً مصطنعاً بالهضة (الرينسانس) ، والذي يستعيد الآن وحدته بقوة ساحقة .

د والمشتغل بدراسة التاريخ ؛ وإن كان يدرك مزالق الأفيسة لا يسعه إلا أن يذكر لحظتين قديمتين (وإن لم تسكونا أقدم مثيلتهما) من لحظات التفاعل الإنساني بين نصفى العالم الغربي ؛ فقد كان جلال

الأمبراطورية الرومانية وعظمتها أنها وجدت بين القسمين تحت سلطانها ، وحدة نشأت منها القوى الروحية التي سيطرت على مجرى التاريخ الغربى . وفى منتصف الطريق بين ذلك العصر وعصر النهضة الأوربية وثب الإسلام وثبته الفكرية الأولى عندما تشرب تراث الإغريق وأخرج منها زهوراً جديدة أمدت النهضة الأوربية ببذورها . ولا يمكن أن تقف الحركة عند هذا الحد ، بل هى مستمر تحت أعيننا وفى ميدان أوسع وأرحب ، وإن كان التباين بين العالم الإسلامى باعتباره كلا وبين التقدم الصناعى المدهش الذى بلغته أوروبا الغربية قد يحول أحياناً بيننا وبين مشاهدة هذا الاستمرار . ولو أن الأمر كان بالعكس لما تغيرت النتيجة ولما كان لزاماً علينا أن نلجأ للمجتمع الإسلامى ليعيد إلى المدنية الغربية توازنها الذى أفقدها إياه تقدم الغرب دون الشرق . وربما يتضح على مرور الزمن أن معقل الأمبراطورية العثمانية كان فى دفاعها عن الإسلام ، وأنها يجعله فى معزل منعه من الاشتراك فى تقدم الوطنية الأوربية المبالغ فيه وجعلته يأخذ الصبغة البلقانية — وهذا هو المصير الذى وقعت فيه تركيا نفسها والذى ورثته عن ماضيها السياسى البيزنطى لا عن ماضيها الإسلامى . ومهما تكن الظروف فإن الإسلام ليقف جنباً إلى جنب مع أوروبا على خلاف المجتمعات الشرقية الأخرى فى الهند والشرق الأقصى . وفكرة إنشاء عصبة أمم شرقية تشمل البلاد الإسلامية والهند والصين واليابان فكرة خيالية أنتجها استياء الشرق من سيطرة أوروبا الإقتصادية المؤقتة . وإن استطاع المجتمع الإسلامى

أن يستغنى عن التعاون الأوروبى لبلوغه الغاية التى يصبو إليها من التقدم لثقافته وحياته الاقتصادية ، كما أن المجتمع الأوروبى ليس يستطيع الوصول إلى الغاية القصوى من التقدم فى ثقافته وحياته الروحية بدون الاستعانة بالقوى الكامنة فى المجتمع الإسلامى . ثم إن المجتمعين أن يتمكنوا من استعادة كامل القوات الكامنة فيهما واستغلالها قبل أن يستعيدا ذلك التفاعل الذى كان قائماً بينهما فى ظل الامبراطورية الرومانية .

« ولا يزال الإسلام عامل التوازن بين النقيضين فى العالم الغربى . فهو يقف فى وجه فوضى الوطنية الأوروبية كما يقف حائلاً دون زحف الشيوعية الروسية . ذلك بأنه لم يخضع بعد لضغط الجانب الإقتصادى الذى يعد من خصائص الحياة فى أوروبا وفى روسيا على السواء فى حركتنا الحاضرة . وقد لخص الأستاذ مسينيون أدب الإسلام الاجتماعى تلخيصاً يثير الإعجاب فى قوله : « يمتاز الإسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل فرد من أفراد الشعب بالعيش فى موارد الجماعة . ومبادئ الإسلام تنبذ التبادل غير المقيد كما تناهى بالعداء الأموال المصرفية (الربا) والقروض الحكومية والضرائب غير المباشرة على ضروريات الحياة ، فى حين أنه شديد التمسك بحقوق الوالد والزوج والملكية ورؤوس الأموال التجارية ، فهو بذلك يقف موقفاً وسطاً بين البورجوازية الرأسمالية والشيوعية البلشفية » .

« والإسلام مطالب كذلك بخدمة أخرى يسديها للإنسانية . فهو

إلى الشرق الحقيقي أقرب من أوروبا إليه . وله ماضٍ بديع من تعاون الشعوب وتقاهمها . وليس من مجتمع آخر إله مثل ما للإسلام من ماضٍ كله النجاح في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات . ولقد برهنت الطوائف الإسلامية الكبرى في إفريقيا والهند والهند الشرقية ، والجماعات الصغيرة منهم في الصين واليابان ، على أن الإسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التي لا سبيل إلى التوفيق بينها . وإذا ما أريد لإحلال التعاون محل الخلاف بين المجتمعات في الشرق والغرب فإن وساطة الإسلام ضرورية لا غنى عنها . فهو وحده الكفيل بحل المشكلة التي تواجه أوروبا في علاقاتها مع الشرق . فإذا اتحدنا عظم الأمل في أن تكون النتيجة سلاماً . أما إن رفضت أوروبا معاونة الإسلام وألقت بنفسها في أحضان خصومه فإن العاقبة لا يمكن أن تكون إلا نكبة لها معاً .

* * *

ما أتم القارئ الآن تلاوته هو ختام كتاب « وجهة الإسلام » ، الذي تعاون في وضعه الأساتذة جب بجامعة لندن . وماسنيون بجامعة باريس ، وكامبفماير بجامعة برلين ، وبرج بجامعة لندن والفتنانت كولونل فرار . وهؤلاء جميعاً هم كبار المستشرقين في ممالك أوروبا المختلفة . وقد تولى الأستاذ جب نشر هذا الكتاب ووضع مقدمته وخاتمته التي حاول فيها أن يصور اتجاه الشعوب الإسلامية في هذا العصر الحاضر . أما الأستاذ ماسنيون فقد

كتب عن شعوب إفريقيا الشمالية فيما عدا مصر والشرق العربي وتركيا وفارس وأفغانستان ، وكانت الهند الإسلامية موضع دراسة اللقنتات كولونيل فرار ، كما كانت أندونيسيا موضع بحث الأستاذ برج . وقد تعاون هؤلاء الأساتذة جميعاً في دراسة العوامل والاتجاهات التي تبدو وتعمل في الممالك الإسلامية وأرادوا على ضوء دراستهم ومباحثهم أن يصفوا موقف الإسلام من أوروبا وموقف أوروبا من الإسلام وما يجب أن تكون صلات الفريقين في المستقبل بعد أن وصفوا ما كانت عليه في الماضي .

ولعلك شعرت من قراءة خاتمة الكتاب ومن هذا العرض السريع لمشتملاته أنه كتاب سياسي يقوم على أسس من البحث العلمي ، وأنت لذلك يجب إذا قرأته أن تقرأه بما يجب من حذر السائر في مسالك السياسة ، ومن سكينه المطمئن انزاهة مباحث العلم ؛ ويجب عليك كذلك أن تعمل للاستفادة منه كسلم وكشرقي في مثل الغاية التي وضع لها .

(١)

يبلغ عدد المسلمين على حساب إحصاءات الأخيرة من مائتين وأربعين إلى مائتين وخمسين مليوناً ، منهم مائة وثمانون مليوناً في آسيا ، وخمسون مليوناً في إفريقيا ، والباقي موزعون بين أوروبا وأمريكا . وهؤلاء المائتان والخمسون مليوناً موزعون توزيعاً جغرافياً عجيباً يجعلهم جميعاً متصلين أوفى حكم المتصلين بعضهم ببعض . فهم يتابعون

في سلسلة متصلة من غرب إفريقيا حيث يتاخون الأطلانطيقى إلى السودان ومصر ويمتدون محاذين البحر الأبيض المتوسط إلى غرب آسيا وجنوب أوروبا مما حول البحر الأسود ثم تستمر سلسلتهم مطردة الاتصال شمالاً في قلب سيبيريا وشرقاً في منغوليا ، كما أنها تتخطى الدجلة والفرات في العراق إلى العجم وإلى أفغانستان وإلى الهند حيث تنقطع السلسلة هوناً ما لتتصل بعد ذلك في جزر الملايا وأرخبيل الهند الشرقية حتى تنتهى إلى الفلبين وهى تنزل جنوباً من السودان إلى شاطئ أفريقيا الشرقى حتى مدغشقر . يضاف إلى هذه السلسلة المتصلة بعض شعوب إسلامية منعزلة خلال الصين أو على حدودها وفي جنوب أفريقيا وفي بولونيا وفي أنحاء مختلفة من أوروبا وأمريكا . يقول جب : د إذا أنت نظرت إلى العالم الإسلامى على الخريطة رأيت أشبه شئ بهلالين عظيمين تذبعت قرونها من مركز مشترك في آسيا الغربية . فالهلال الشمالى يتكون من شريط يزيد عرضه على ألف ميل ويكاد يحيط بأوروبا من أقصاها إلى أقصاها ويعزلها جغرافياً عن بلاد آسيا الجنوبية والشرقية الكثيرة السكان . أما ذراع الهلال الشمالى الرفيعة فتضم أثناءها المحيط الهندى ، .

هذا العالم الإسلامى الفسيح في ترمى أطرافه ، الجامع لذلك بين شعوب وأجناس وبيئات مختلفة التاريخ كاختلافها في ظروف العيش ، له مع ذلك وحدة في الحضارة ووحدة في الثقافة . ومرجع ذلك إلى أسباب عدة : منها أن هذا العالم الإسلامى لم يتكون تدريجياً على الزمن ،

ولكنه وجد وامتد في فترات قصيرة متقاربة هيأت لهذه الوحدة النفسية والعقلية ، ففيما بين بعث النبي عليه السلام في سنة ٦٣٢ ميلادية وسنة ٧٥٠ — أى في فترة لا تزيد على مائة وعشرين سنة — امتد سلطان الإسلام من أسبانيا ومراكش إلى أواسط آسيا وظل مستقراً هنالك قرنين ونصف قرن من الزمان أمكن فيهما تركيز حضارة وثقافة مستمدتين من أصل الإسلام والبيئة التي نشأ منذ أول أمره فيها . وفي المائة السنة الواقعة ما بين سنة ألف وسنة ألف ومائة امتد سلطان الإسلام في ميادين أربعة : في غرب أفريقيا ، وفي آسيا الصغرى ، وفي آسيا الوسطى ، وفي شمال الهند . وبعد قرنين آخرين — بين سنة ١٣٠٠ وسنة ١٤٠٠ نفذ سلطانه إلى البلقان وإلى روسيا وسيريا وإلى بقية الهند ثم إلى أندونيسيا . ومن يومئذ وقف سلطان الإسلام عن الامتداد إلا في حدود ضيقة أكثرها في أفريقيا . وفي كل واحدة من هذه القفزات التي قفزها نفوذ الإسلام وسلطانه كانت الحضارة الإسلامية التي نمت وترعرعت منذ القرنين الأولين من عصوره الزاهية تزداد نماء وقوة بما تتصل به من حضارات جديدة تؤثر الحضارة الإسلامية فيها وتخضعها لسلطانها وتتأثر في نفس الوقت وتتغذى بما قد يكون من صالح فيها . وذلك بأن الإسلام لم يكن منذ اللحظة الأولى ديناً وعبادة وكفى ، ولكنه سرعان ما كان ثقافة وحضارة تكوَّنت على أسسه وأصوله التي توطدت في حياة محمد بنجر ما توطدت الحضارة وثقافة أسسها وأصولها الأولى . لذلك كان طبيعياً أن تتغذى الحضارة الإسلامية وأن تتغذى الثقافة الإسلامية

من كل ما غزوا من ميادين العلم والبحث ، على أنه كان كسكل قوى الحياة السليمة دائم النمو دائم النشاط لا يستقر ولا يهدأ بل يريد دائماً جديداً يهضمه ويتمثله ليلفظ قديماً لم يبق صالحاً لدرك الغاية التي ترمى الأصول والأسس الأولى لإدراكها ، وفي مقدمة ما ترمى هذه الأصول والأسس له تحرير الفكر من قيود المادة وتصوير العالم فكرة لا آلة والعمل للاستزادة من معرفة العالم لزيادة الاتصال به وحسن تمثيل فكرته . والغاية التي يرمى الإسلام لها درك كمال النفس في حسن اتصالها بالله ، وإسلامها له إسلاماً صحيحاً . وهذا وذلك لا يتحققان إلا بتحقيق المعرفة في أسنى ما تستطيع عقولنا وعواطفنا وأفئدتنا وقلوبنا أن تصل إليه . في هذه الحدود المترامية الأطراف كانت الحضارة وكانت الثقافة الإسلامية تعملان . وبروح من الإخاء الصحيح الذي يقرر أن إيمان المرء لا يكمل حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه كانت الجهود تتضافر لإقامة الحضارة والثقافة . وبحكم اجتماع المسلمين في مكة أيام الحج كانت نتائج هذه الجهود تنتشر وتقوى وتنقل إلى المسلمين جميعاً في مختلف أقطار الأرض . أضف إلى هذا أن الإسلام سكّن حدة الفوارق الجنسية حتى لقد كاد يهدم الحدود فيما بين الدول المنتسبة له ، كما أن أخوة المسلمين يسرت الهجرة لهم جميعاً . فلم يكن عجيباً أن نرى المعرى ينتقل من الشام إلى بغداد ويتخذها زمناً ما سكناً ، ولا كان عجيباً أن يقيم من أهل الحجاز بمصر ومن أهل اليمن بالفام ومن أهل مصر بالمغرب ، وأن تنتقل ثمرات الفكر والبحث العلمي في أنحاء العالم الإسلامي على أيدي هؤلاء المهاجرين .

ولهذه الظروف ازدهرت الحضارة وتأصلت جذور الثقافة من عصور الإسلام الأولى . على أن نظام الحكم والأصل الذى يقوم فى الإسلام عليه مالم يأت أن تغير وإن اندست إليه فكرة تخالف الفسكرة التى عرفت منذ صدر الإسلام ، فكرة كانت شائعة إلى يومئذ فى فارس وفى بيزنطة وفى البلاد التى تغلب المسلمون عليها ، فكرة سرعان ما طورت كيان النظام الاجتماعى من الحياة الحرة إلى حياة مقيدة وما مهدت لدخول دول الإسلام فى تيار تفكير العصور الوسطى وما يسرت للحاكم أن يزوج فى نطاق الدين بكل شيء ، وبكل ما ليس من الدين فى شيء ، وأن يقيد بقيود الدين حركات الناس وسكناتهم وما كلمهم ومشربهم وطريقة مشيتهم وسلامتهم وصور حديثهم وسكونهم . يقول جب : « وبالرغم من أن الدعوة الإسلامية نفسها لم تنتشر بالسيف فقد كان تحت جناح الحكم الإسلامى أن وجد المبشرون بها خير الظروف فى نشاطهم للدعوة » ، ولئن كان هذا النشاط قد وجد فى أوروبا المسيحية خصومة لبدأ منذ الساعة الأولى ومنذ أيام النبو عليه السلام فإن تسلط المسلمين وسرعة انتشارهم فى أقطار الأرض حكماً قد استهوى النفوس إلى دعوة الحق التى بعثت إلى أرواحهم بكل هذه القوة . لكن هذا التطور الذى أشرنا إليه كان مقدمة الضعف والركود الذى استولى على الإسلام زمناً ، والذى امتد إلى زمننا هذا فيما خلا فترات يقظة كانت تعود بالإسلام إلى كل مجده ثم ما تلبث أن تنطفئ تحت عبء هذا التطور والفسكرة التى أدت إليه . ولست أجدر خيراً فى تصوير هذا

التطور والفكرة التي قام على أساسها من أن أقل عبارة الأستاذ عبد الحيد العبادي حين أرخ لهارون الرشيد في أحد ملاحق «السياسة» إذ قال : (ما النظام الذي كانت تخضع له الدولة العباسية ؟ هو نظام الخلافة بالعاج . ولكن الخلافة على عهد العباسيين كانت غيرها على عهد الخلفاء الأوائل . خلافة العباسيين مختلفة عن خلافة أبي بكر وعمر كما يختلف الحكم الاستبدادي عن الديمقراطية الصحيحة . ذلك بأن العباسيين أخذوا عن الفرس نظرية الحق الإلهي في الحكم . ولكي يعطوا هذه النظرية الصيغة الإسلامية زعموا أن الخلافة ميراث عن النبي صلى الله عليه وسلم وأجروا عليها أحكام الميراث ، وبذلك يكونون هم أحق الناس بها ، وفي هذا المعنى يقول شاعرهم :

أنسى يكون وليس ذاك بكان لبني البنات وراثته الأعمام

« ويقول السفاح في خطبته التي خطبها الناس عند مبايعتهم له بالكوفة : « واعلموا أن هذا الأمر فينا ، ليس بخارج منا حتى نسله إلى عيسى بن مريم عليه السلام » . ويقول المنصور من خطبة له : « أيها الناس ! إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوقيعه وتأيمده ، وحارسه على ماله ؛ أعمل فيه بمشيئته وإرادته وأعطيته بإذنه . فقد جعلني الله عليه قفلاً ، إن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم وقسم أرزاقكم ؛ وإن شاء أن يقفلني عليها أقفلني . . . » . ولكي ندرك مدى التغيير الذي أصاب الخلافة في عهد العباسيين نسكتني بأن نورد بعض خطبة أبي بكر التي خطبها على أثر بيعته فقد قال :

أيها الناس ، قد وليت أمركم . ولست بخيركم ، فإن أحسنتم فأعينوني ؛ وإن أسأت فقوموني . . . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فيكم ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . . . كما نورد الشعر الذي خاطب به الخطيئة عمر بن الخطاب بعد أن بويع : قال :

أنت الإمام الذي من بعد صاحبه ألقى إليك مقاليد النهى البشر لم يؤثروك بها إذ قدموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الأثر وكما ورث الرشيد الحكم بموجب النظرية المذكورة ، فقد ورث بالإضافة إليها ما يصح أن يعتبر من الوجهة الفعلية جزءاً من النظام السياسي للدولة ؛ ذلك نظام البلاط ، وهو شيء أخذوه عن الفرس كذلك ، فقد كان الأكاسرة يعيشون مستجيبين عن الرعية في بلاطهم ، تحف بهم خاشيتهم وخجابتهم وحراسهم وغلبانهم ، ونفوذ نسبهم وجواربهم - إن صح هذا التعبير . وكثيراً ما كان بلاط فارس بهذا الخليط مبعث الدسائس والفتن السياسية كما يرى من تاريخ متأخرى الساسانيين ، كذلك كان البلاط على عهد الدولة العباسية . وقد ظهر أثره السيئ في الشؤون العامة لأول ظهوره ؛ فقد ذهب المهدي والهادي ضحية مكاييد دبرت لهم في نفس بلاطهم .

د حنكومة استبدادية تستند إلى نظرية سياسية جامدة ؛ وبلاط هو بحكم تكوينه ذو جو صالح للفس والمكايدة ، ذلك هو النظام السياسي الذي أصبح الرشيد يحكم بمقتضاه وفي حدوده ، وهو نظام من شأنه أنه إذا كان الذي يحكم في ظله قوياً كان من أقوى أسباب

الاستبداد والطغيان . وإذا كان ضعيفاً كان من أقوى بواعث
الفتنة والإضطراب . .

وهذا بالدقة ما يثبت تاريخ الدولة العباسية . فالمتقدمون من
خلفائها الذين يوصفون بالقوة والكفاية كالمصور والمهدى والرشيد
والمتوكل كانوا جبابرة طغاة ، وأما المتأخرون الذين يوسمون بالضعف
فقد كانوا الأعياب في أيدي أهل البلاط ونساء القصر ؛ يصرفونهم
كيف شاءوا وشاءت أهواؤهم .

لكن هذا الذي حدث منذ العباسيين بما صور الأستاذ العبادي
لم يكن جديراً أن يظهر أثره في سنين قليلة ، ولم يكن من شأنه بطبيعة
ظروف العالم العامة يومئذ أن تضعف الدول الإسلامية إزاء الدول
غير الإسلامية . صحيح أن الإسلام وقف في مركز جغرافي وسط
بين أوروبا المسيحية إلى غربه وبين الأديان الهندية والصينية إلى
شرقه . لكن نظريات الحكم ونظامه لم تكن في أوروبا خيراً مما
كانت في الدول الإسلامية ، ولم تكن كذلك في دول الشرق الأقصى .
على أن ظروف هذا الانحلال الفكري في الدول الإسلامية مهدت
للغزو المغولي والتتري . ولما كان هؤلاء وأولئك قد أسلبوا كان
قيامهم وغزوهم الدول الإسلامية الأخرى من عوامل يقظة الإسلام
وانكماش دول أوروبا الغربية ودول الهند والصين أمامه . ثم إن هذا
التطور الذي أشرنا إليه والذي قلنا وصفه عن الأستاذ العبادي
كان لابد أن يوتي من الثمرات ما آتى وأن يمهّد للعصر الذي مهد له

بعد يقظة أوروبا وتسلم حضارة الصناعة زمام القيادة العالمية لتزج
بالعالم كله فيما زجت به فيه من مادية توشك اليوم أن تنهار وتتداعى .

ظلت الدول الإسلامية محتفظة بمركز القيادة رغم هذا التطور
السيء لأن أوروبا كانت خاضعة لتفكير مثله أو شر منه ، ولأن مركز
التجارة والرخاء الاقتصادى كان بين المسلمين . على أن نهضة أوروبا
فى القرن التاسع الهجرى وما وجه إليه تحرير الفكر أنظار هؤلاء
التغريبين إلى الناحية العملية جديراً أن يقيم حضارة الصناعة وأن
يزعزع هذا المركز الممتاز الذى كان للمسلمين .
لم تجرؤ على التفكير فى غزو الإسلام قبل القرن الثامن عشر المسيحى ،
وصحيح أن المسلمين ظلوا محتفظين بذاتيهم وباستقلالهم وظلت الخلافة
الإسلامية التى رفع بنو عثمان عليها شبحاً أمام التقدم الاستعمارى
الأوروبى ، إلا أن المسلمين شعروا بأنهم وقد كانوا إلى عصر قريب
غزاة العالم تغزوهم صناعات وأفكار جديدة ويغزوهم من نواحي
الغرب رجال يجيئون أول أمرهم أفاقيين ثم ما يلبثون أن يصبحوا
أصحاب الحول والطول وأصحاب النفوذ والمال . ماذا عسى المسلمين
أن يصنعوا ؟ بدأوا أول أمرهم يمدقون ذاهلين بهذا الذى وقع
وليسألون أنفسهم عن سببه فلا يجيرون جواباً . وأدى ذلك بهم إلى
الإنكماش وإلى التوجه بقلوبهم إلى ناحية دولة الخلافة يأملون فى
قوتها الروحية والومنية من هذه الكارثة مخرجاً ، ولم يتقدم من أئيين
صفوفهم أولئك الأفاضل الأقوياء الذين يهزون العالم ويعيشون

إلى النفوس روح الإقدام وروح الاستخفاف بالحياة والذين يصيحون بأهلهم قائلين : « قتمنوا الموت إن كنتم صادقين » . بل استكان الكل وظل الأمر بيد الخليفة وبلاطه وبين حكم الخلافة المستبد وشهوات أهل البلاط المادية الوضيعة ودسائسهم المنحطة القدرة الدينية . ذلك بأن الفكرة التي أدت إلى التطور الذي قدمنا كانت قد آتت في هذا الظرف كل ثمراتها . يقول جب : « ظل علماء الإسلام يعلمون الناس مدى عشرة قرون تبعاً — لمناسبة ولغير مناسبة — وجوب الإذعان للسلطة سواء أكانت هذه السلطة شرعية أم مفتضبة ؛ ~~وولوى الملوك~~ ~~من~~ هذا الدرس في النفوس بصورة لا تحتمل الريب . وتبدى الهمود السياسى وكأنه متأصل في الشعوب الإسلامية حتى عزاه الغربيون الذين لاحظوا عظيم تحمل المسلمين للضغط وسوء الحكم إلى العقيدة القدريية في الإسلام ، لكن هذه لم تكن قط أكثر من نصف حقيقة . فالقدريية بهذا المعنى المطلق لم تكن سبباً بمقدار ما كانت نتيجة . والاستكانة السياسية التي بدا بها الشعب الإسلامى إزاء الغير ترجع في معظمها إلى أسباب مادية ؛ البؤس الاقتصادى من أكثرها ظهوراً . ولسنا بحاجة إلى القول بأن الأستاذ جب لا ينصف الإسلام حين يعزو إليه أى حظ من هذه القدريية التي أدت بشعوبه إلى الاستكانة . فالإسلام لا يدعو للإذعان إلى أحد إلا الله . والقرآن الكريم أعظم الكتب السماوية دعوة لطاعة الوالدين ورضاهما ، يقول في صدر الكلام عنهما : « وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً » . فإذا كان ذلك شأن

والوالدين فما بالك بمن يجاهدك على أن تخضع لما ليس لك به علم ، وأن
تصل من الخضوع له حتى تجعله في الشيطان لله شريكا . إن أقل ما يأمر
به الإسلام في هذا الظرف الثورة عليه وتحطيمه وتحطيم تعاليمه . فأما
ما جاء بعد ذلك من خضوع استسلام فإنما كان أثراً لهذا الانقلاب
النفسي في تصوير أساس الحكم في الإسلام .

لم يجرؤ أحد على أن يحجر بهذه الحقيقة خلال القرنين السابع عشر
والثامن عشر ومن جهر بها كان معناه التعرض للتشريد والنفي والإلقاء
في أعماق الدردنيل جزاؤه . لكن المدنية الأوروبية كانت دائبة لغزو
الشرق ولغزو الأمم الإسلامية بتجارها وصناعاتها وثقافتها كذلك .
ولذا استمر الأمر على هذا فقل على الخلافة الإسلامية وعلى العالم
الإسلامي السلام . ورفع كتاب الغرب وساسته عقائهم يصيحون
أن الإسلام كدين هو سبب انحطاط الشعوب الإسلامية ، وأن هذه
الشعوب لأمير منقرضة ، وأن دولة الخلافة قد صار أمرها إلى أن أصبحت
الرجل المريض لأمير له من الموت الذي هو آتية لا محالة . وقوى
نشاط المبشرين للمسيحية في العالم الإسلامي وقوى إلى جانبه نشاط
الدعاة إلى الحضارة الغربية . فاذا عسى يصنع ساسة دولة الخلافة .
لا شيء في الواقع لكن المفكرين والكتاب من المسلمين بدأوا نشاطهم
في ناحيتين : أولاهما سياسية هي الدعوة إلى الجامعة الإسلامية .
والثانية دينية تجديدية هي الدعوة التي قام بها الأستاذ الشيخ محمد عبده
والذين قاموا في أثره . وكان غرض الدعوة إلى الجامعة الإسلامية

تجنيد الرأى الإسلامى ضد غزوة أوربا المسيحية وقد أيد الباب
 العالى وأيد الخليفة هذه الدعوة بكل ماله من قوة ، على أن هذه
 الدعوة وجدت فى غزو الحضارة الأوربية من قوة المقاومة ماضعة لها ،
 ذلك بأن الشعوب الإسلامية شعرت شعوراً عميقاً بضرورة الاستنادة
 مما كشفت عنه حضارة الصناعة وما روجت له هذه الحضارة من تنظيم
 أسباب الحياة فى المسكن والملبس ووسائل العيش . أما التجديد الدينى
 فقد قام على أساس شعور عميق عند الشيخ محمد عبده وعند طائفة من
 أنصاره وأصحابه بأن الجود الذى استولى على الإسلام والمسلمين إنما
 كان سببه إلقاء باب الاجتهاد وأخذ الناس بالتقليد الأعمى وترويج
 خرافات وأوهام باطلة ونسبتها إلى الدين واعتبار الخارج عليها وغير
 المؤمن بها ملحدأ يرى بالكفر . وقد بنى الأستاذ الشيخ محمد عبده دعوته
 على الإسلام الصحيح الإسلام المستند إلى القرآن وإلى السنة ، الإسلام
 الذى أراد أن يحرر العقول والأفهام من كل معنى من معانى الوثنية ،
 هذا هو الإسلام الذى ينقذ المسلمين ويرد إليهم مجدهم . أما هذا
 الإسلام التقليدى الذى جاءنا بعد ثلاثة عشر قرناً تداولته فيها
 أعاصير السياسة ودست فيه الفكرة الاستبدادية من الأوهام ما يمكن
 للاستبداد ويجعل لهم السلطان المطلق فلا يمكن أن تقوم على بدعة
 وأوهام أمة من الأمم ترجو فى الحياة سؤداً أو مجدأ . ومع أن
 الميدان الذى عمل فيه الأستاذ الشيخ محمد عبده لم يتناول إلا الشؤون
 الدينية البحتة فى حدود ما يطلق عليه الإفرنج التيولوجيا . وبالرغم من
 أن الشيخ كان يعمل لإصلاح الأزهر وصالح حال رجاله ، فقد قام

هؤلاء الرجال في وجهه أشد قومة وحاربوه أشنع الحرب ورموه بالإلحاد والكفر واعتبروا الدعوة التي كان يدعو إليها — والتي تعتبر في نظرنا متواضعة غاية التواضع إلى جانب ما دعا النبي عليه السلام إليه من حرية الفكر والفؤاد والقلب — دعوة الحادية جدير بصاحبها أن ييؤم بغضب صاحب العرش وأن ييؤم بغضب الجمهور . على أن شخصية الشيخ محمد عبده الممتازة تركت في العالم الإسلامي أثرها وأتاحت للبسطين أن يتخلصوا ولو تخلصاً ضعيفاً من سلطان التقليد الأعمى ومن سلطة الدجاجة الذين يتقدمون إليهم باسم الدين يسمون عقولهم وأفكارهم بالخرافات والترهات .

لم تصادف الدعوة إلى الجامعة الإسلامية من النجاح إلا حظاً نظرياً صرفاً . وظلت دعوة الأستاذ الشيخ عبده محصورة في حدود ضيقة لأن برنامجاً إنشائياً لم يوضع لها ولأنها لم تبلغ من الجرأة في هدم الأوهام المبلغ الذي يطوع لها حقها الكامل من النجاح . وفي هذه الأثناء كان غزو أوروبا مطرد التقدم . وفي هذه الأثناء كانت العناصر غير الإسلامية في العالم الإسلامي تتعلم وتتقدم وتنال الخطوة والثروة . وفي هذه الأثناء كان رجال الدين في شغل بالمناقشات البيزنطية العقيمة ويرى الشيخ عبده وأصحابه بالإلحاد والمروق وبمثل هذه النهم التافهة التي لا تروج إلا في عصور الانحلال والتدهور وتحت سلطان الاستبداد والطغيان ، وكانت مصر قد امتد إليها النفوذ الأوربي بأكثر مما امتد إلى الأمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف

فجعل هذه المدنية الغربية ومبادئها وما تدعو إليه محسوساً فيها مقدراً من أهلها . والمدنية الغربية كانت دعائمها العقلية حرية الزأى والفكر وتحطيم أغلالها أياً كان نوع هذه الأغلال ، إذن فلا بد إن كانت هذه الحرية مصدر هذه القوة العجيبة التى طوعت لأوروبا أن تغزو الشرق وأن تغزو العالم الإسلامى هذا الغزو المريع . فلما أخذ بالحضارة الغربية ولنفسج على منوال الغرب ، وكذلك قامت الدعوة إلى نظام فى الحكم كالنظام القائم فى الأمم الأوروبية وإلى تعليم كالتعليم الموجود فى أوروبا وإلى ثقافة غربية بحجة ، وحسب بعضهم أن لا مفر من هذا أو يقضى على الشرق القضاء الأخير . وغلا بعضهم فى ذلك حتى رأى واجباً أن يقطع العالم الإسلامى صلاته بالماضى كله وأن يستل عن المدنية الغربية بحذافيرها . وهذه الدعوة هى ما يسميه مؤلفو الكتاب الذى أوحى إلينا بهذا الفصل بهذا الاسم العجيب : تغريب الشرق .

ويلاحظ الأستاذ جب وزملاؤه المؤلفون أن أصحاب هذه الدعوة نسوا أن مظاهر حضارة الغرب تعتمد على أصول قديمة وإلى ثقافة عريقة وأن نقل الظاهر وحده لا يكفى لإقامة هذه الحضارة . وهذه ملاحظة أبداها منذ عشرات السنين اللورد ملتر فى كتابه « إنكلكتر فى مصر » عن سعى الحديوى الأول إسماعيل باشا لنقل مظاهر الحضارة الغربية إلى مصر . لكننا لا نوافق الأستاذ جب على ملاحظته ونقف منها موقف الناقد للغرب فى حضارته القائمة على الآثرة والأناينة والمشبعة من المادة الاقتصادية بروح هى التى خلقت لأوروبا

متاعبها في الحرب ومتاعبها الحاضرة . فقد أدرك هؤلاء المصريون أن مظاهر الحضارة الغربية تركز إلى أسس رآها بأعينهم من سافروا منهم إلى أوروبا وتغذى منها من درسوا في الجامعات الأوروبية ومن اطلعوا على أدب الغرب . ولذلك قاموا في مستهل هذا القرن العشرين يدعون إلى إنشاء جامعة على نظام جامعات أوروبا يكون لها استقلالها ويكون للعلم فيها أساسه الصحيح من حرية البحث والتفكير . لكنهم ماكدوا يفعلون حتى وقفت السلطات الرسمية الخاضعة لتنفيذ إنسكترا في مصر منهم موقف الخصومة وحتى دعا لورد كرومر الأهالي والأعيان المصريين الذين طلب إليهم أن يكتبوا لإنشاء هذه الجامعة كي يكتبوا لإنشاء الكليات ؛ وظلت الجامعة بعد ذلك تحارب في السروفي العلن وما يزال ذلك شأنها إلى وقتنا الحاضر ، وهذا عجيب ، فقد كان المسلمون لا يكادون ينزلون بلاداً يفتحونها حتى يهدوا منذ أول نزولهم فيها لتشييد بناء حضارتهم بها ، ولم يكن يدور بخاطرهم أن يحرموا أهل هذه البلاد من النهل من أصول هذه الحضارة ومصادرها . فوقوف بمثل الحضارة الغربية في وجه انتشارها بصورتها الصحيحة واكتفاؤهم بتناول الشعوب الأخرى مظاهرها وآثارها غير متمثلة ، أناية غير جديرة بالدعاة إلى الحضارة وإلى التقدم . على أن ما حدث من هذا كان له أثره الحسن . فقد شجع القادرين على أن يرسلو بأبنائهم إلى أوروبا ليدرسوا في جامعاتها على القيام بهذا العمل على ما فيه من كلفة

ومشقة . وازداد عدد هؤلاء وكثروا في مصر كما حدث الأمم الإسلامية الأخرى حذو مصر وعاد هؤلاء وأولئك إلى بلادهم يشنون الحضارة الغربية . لكنهم مالبثوا أن صدمتهم ظاهرتان عجيبتان أثارتا دهشتهم اتناقضهما مع أصول الحضارة الغربية تناقضاً بيناً : الأولى هذه الحرب المنظمة التي يقوم بها الاستعمار الأوربي لحرية العقل حرية مستندة إلى النظام الجامعي الذي يقرر البحث الحر الطليق من كل القيود ، سواء أكانت دينية أم غير دينية . والمستند إلى القواعد العلمية الصحيحة ، قد راعهم من هذه الحرب أنها لم تكن تقبل هوادة قط ؛ وأن مثل إنكترا في مصر لم يكن يأبى أن يكتب في تقاريره أن مصر بغير حاجة إلى علماء بالمعنى الغربي وإنما هي بحاجة إلى موظفين مطواعين . والظاهرة الثانية انتشار المبشرين الغربيين في كل مكان في المدن الكبيرة والصغيرة بل في القرى ، يدعون إلى المسيحية ولا يأبون التعريض بالإسلام . وبالرغم من هاتين الظاهرتين ظل هؤلاء الشبان يدعون إلى الحضارة الغربية مستندة إلى أصلها الصحيح ، أي إلى حرية البحث ونزاهة العلم ، ويدعون إلى ذلك في حراره لم يكن من شأن الجامدين على التقليد الديني الذين رموهم بالإلحاد إلا أن زادوها قوة واستعاراً . لكن مرور الزمن فتح عيونهم على حقيقة أخرى لم تكن أقل إثارة لدهشتهم من الظاهرتين اللتين قدمنا . فما يصدر الغرب للشرق من آثار حضارته قد وقف أو كاد عند أسوأ ثمرات الغرب من الريح المادي ما يمدده بأسباب

الرغاء والتترف . فتجارة الرقيق الأبيض والكحول ومواد الزينة واللبو وجوقات الهذر المسرحى كانت هى أول ما يصدم الناظر لآثار الغرب فى الشرق . ولم يقدم الغرب إلى جانب هذا من صالح ثمرات حضارته ما يستر سوءاتها هذه . بل هو كما قدمنا قد وقف حائلا دون سرعة انتشار العلم الصحيح بما كان هؤلاء الشبان يجاهدون بكل ما يدخل فى حدود طاقتهم لنشره والتسكين له .

(٢)

ظلت الحال كذلك إلى أن أعلنت الحرب الكبرى ودخلتها تركيا إلى جانب ألمانيا . وكان من أثر انتصار الحلفاء أن قضى على الرجل المريض — الأمبراطورية العثمانية — وأن وضع الحلفاء أيديهم على بلادها المختلفة ؛ وخضع العالم الإسلامى كله فيها خلا تركيا وفارس وأفغانستان وشبه جزيرة العرب إلى النفوذ الأوربى مصوراً فى صورة الانتداب أو الاستعمار أو الاحتلال العسكرى أو ما شئت من هذه الأسماء المختلفة اللفظ المتفقة المدلول . وجاء فى أثر ذلك أن خلعت تركيا الخليفة السلطان عبد المجيد ، وأن نفقة وأهله، وأن أعلنت رغبتها عن الخلافة . وربما شعرت الأمم الإسلامية التى تحورت من النير التركى بشيء من التخفيف عنها أول الأمر فقد كانت هذه الأمم متعطشة من زمن بعيد إلى نهضة تنهضها وينهضها الإسلام وكانت ترى فى تركيا وفى الاستبداد التركى وفيما كان رأى عند ساسة الترك قبيل الحرب من تزريك العرب حائلا دون هذه النهضة . وقد

بذلت دول الغرب أثناء الحرب وفي أعقابها من الوعود وتغنت من أغنيات السلام والعدل المجرد من الهوى والحرية التامة الشاملة وحق الشعوب في تقرير مصيرها ما جعل هذه الشعوب الإسلامية تطمع في بعث جديد تناله في ظل هذه المعاني . لكن تعاقب السنين من بعد الحرب كشف عن الحقيقة المظنية المؤلمة ، فهذه الأغنيات كلها لم تكن إلا وهماً وخداعاً . وقضية أوروبا التي حاربت في سبيلها أربع سنوات تباهاً والتي بذلت فيها مهج أبنائها وملايين ماكدست من الثروة على مر السنين لم تكن إلا قضية الاستعمار ومن يكون له حق التوسع فيه : دول الوسط أم الحلفاء . ثم بدت حقيقة أشد من هذه الحقيقة مرارة وإيلاماً . تلك أن الغرب الذي تزعم دوله أنه تحرر من قيود التعصب الديني ما زال يذكر الحروب الصليبية التي نشبت خلال القرون بين المسيحية والإسلام ؛ وأن كلمة لورد اللبني يوم استولى على القدس وقوله إن الحروب الصليبية قد انتهت كانت تعبر عن معنى يحول بخاطر الدول الأوروبية جميعاً وإن كان هذا الجندي المقدام هو الذي صرح بها وكشف عنها . في ظل هاتين الحقيقتين الالئيتين جعلت دول الغرب التي وضعت يدها على العالم الإسلامي تمد في أسباب الجود الديني عن طريق الجامدين المتعصبين لتزيد الشعوب الإسلامية جوداً ولتزيد بها الجود ضعفاً ؛ وجعلت تحمي الجماعات التبشيرية الدينية وتمدها بكل ما تستطيع من قوة وتحاول أن تحطم كل قلم وكل رأس يقف في وجه هؤلاء وأوائك .

هنا كانت البقعة المربعة ، بقعة هؤلاء الشبان الذين درسوا في أوروبا وجاؤا ينشرون في البلاد الإسلامية لواء حضارة الغرب . ما هذا ؟ إلى أي حضيض يهوى أهل هذه الحضارة ؟ وكيف تطوع لهم ضمايرهم أن يستخدموا العلم الإنساني لإذلال الإنسانية وإلهدار كرامتها ؟ وكيف تظل أوروبا على تعصبا الديني الممقوت الذي انبعثت جنودها في القرون الوسطى باسمه لمحاربة المسلمين ؟ وكيف تسبخ أوروبا في سبيل الحياة المادية وترفعها وأن تحول بين شعوب كاملة ، بل بين عالم بأسره ، وبين النور المقدس الذي يضيء به الله الأرواح والقلوب من طريق العلم والمعرفة ؟ وكيف تطمع المسيحية في أن تكتسح الإسلام وهو أسنى الأديان التي دعت إلى الحرية الحققة ما أخذ في صفاء جوهره وما نفيت عنه هذه الترهات التي أضيفت إليه على أنها منه وليست منه ؟ ! وقامت لذلك في نفوس هؤلاء الذين أتى إليهم النهوض بأعباء الحركات القومية التي اهتزت بها أمم الشرق في أعقاب الحرب ثورة على هذه الأساليب التي لجأ الغرب إليها وجعل كل يفكر . وكانت ثمرات هذا التفكير هي ماذكر الأساتذة ماسنيون وكينغماير وبرج والفتنات كولونل فرار في فصول كتاب « وجهة الإسلام » .

جعل الكل يفكر في سبيل الخلاص من استعمار الغرب وتبشيريه . فأخذ جماعة بمذهب الرابطة الشرقية تربط أمم الشرق الخاضعة للنفوذ الغربي جميعاً ، وأخذ آخرون بمبدأ الجامعة العربية يظل لواؤها

الذين يتكلمون العربية جميعاً . وفكر آخرون في إحياء الخلافة
لتربط من جديد بين الأمم الإسلامية ، ولكن على أن تكون
خلافة روحية ليس لصاحبها سلطان زمني ، ورأى بعضهم التمسك
بمبدأ القومية ومقاومة الاستعمار الغربي بأسلحة الحضارة الغربية ،
وفكر جماعة في رفض ماضيهم الإسلامي والأخذ بماضيهم السابق
على الإسلام كما فعل الأتراك وكما يجول بخاطر بعض أهل الغرب
الأقصى من المراكشيين . وكانت لهذه الصور المختلفة من التفسير
مظاهرها العملية . فقد تألفت جمعية الرابطة الشرقية في مصر كما
تألفت فيها جمعية الشبان المسلمين وانهقد فيها في سنة ١٩٢٥ مؤتمر
الخلافة . وتألفت في الهند جمعية الخلافة وكان مولاي محمد علي علي
رأسها إلى حين وفاته ، كما أن الدكتور إقبال من أكبر دعاة وإن ظل
للدكتور أنصاري إلى جانب غاندي من دعاة القومية الهندية .
وانعقد مؤتمر إسلامي بمكة في سنة ١٩٣٧ كما انعقد في القدس سنة
١٩٣١ : وبدأت في مختلف العالم الإسلام كله ثورة نشاط قوى دلت
على أن التبشير لن ينال أي نجاح أكثر من إثارة الشعوب الإسلامية
عليه وعلى أن الاستعمار لن يكون من أثره إلا إثارة الكراهية والمقت
في قلب الشرق وفي قلب العالم الإسلامي للغرب وحضارته المادية
التي هوت بأساسها حرية العقل إلى صور من الأدب ومن الموسيقى
ومن الرقص ومن ألوان الحياة والترف تدل على أن هذه الحضارة
قد أذنت بالافول ، وأنها تخط جانب الصعود إلى جانب
الانحدار والتدهور .

وكان تهدم الحضارة في الشرق من أقوى العوامل لبث هذه الآراء ولتدعيم كل مظاهر نشاطها . والذين يقومون بأمر الصحف في الشرق ويؤيدون هذه الأفكار الثائرة على الغرب وعلى استعمارهم وتبشيرهم كثرتهم الساحقة إن لم تقل كلهم من الذين تعلموا علوم الغرب وكانوا يبشرون بحضارته ومن الذين يؤمنون ما يزالون بأن الأساس الذي قامت عليه ، حرية العقل والتفكير وحرية البحث العلمي بحثاً جامعيّاً منظماً ، هو خير أساس تقوم عليه حضارة ، على أن لا ينكر هذا الأساس حاجات الروح للإتصال بالعالم على أنه فكرة لا على أنه آله ، وعلى أن لا ينكر كذلك على العاطفة وعلى وحى النفس وإلهام النواد سلطانهما في الحياة ؛ وعلى أن ينظر إلى العالم على أنه كله وحدته العليا ، لا على أنه كم مادي يستطيع العقل أن يصل إلى كنهه كل ما فيه بالتحليل والتشريح وبأدوات البحث العلمي الناقصة غاية النقص ما تزال .

ليس يكفي إذن لإقناع الغرب بأنه غزا الشرق في كل ميادينه أن تكون أساليب الغرب في الحياة وكسب العيش قد انتقلت إلى الشرق فأصبح يستعمل الآلات الزراعية الغربية في زراعته والصناعية في صناعته وأنه أصبح يلبس لباس أهل الغرب ويأكل على طريقةهم ويتقل بوسائل انتقالهم . بل ليس يكفي لهذا الاقتناع أن ينقل الشرق أساليب حكم الغرب . فهذه كلها مظاهر خارجية إن بهرت النظر فقد لا يكون لها في دخيلة النفس أثر . وهذا ما يلاحظه

الاستاذ جب بمنتهى الدقة : حيث يقول : « إن مستقبل —
 التغريب — وما سيكون له من أثر في العالم الإسلامى لا يتعلق
 بأى من هذه الاستعارات الخارجية . فالأشكال الظاهرة في المحل
 الثانى . والأمر كذلك في هذه الشؤون — الإجتماعية — أكثر منه
 في الشؤون المادية . فكلما كان التقليد الظاهر أكثر دقة كان التمثيل
 الداخلى أقل قياماً . ذلك بأنه كلما ازدادت الإحاطة بالروح والمبادئ
 التى تقوم عليها الأشكال الظاهرية دقة ارتبط بها عادة قصور ما تتضمنه
 الظروف المحلية لاقتباسها . وقد يهدم كثير من النظم الغربية ومع
 ذلك لا يكون العالم الإسلامى أقل — تغريباً — مما كان ، بل لقد
 يكون أكثر تغريباً . ولو أننا أردنا أن نعرف القدر الصحيح الذى
 أثرت به الثقافة الغربية في الإسلام فإننا يجب أن ننظر تحت السطح
 وأن نوجه نظرنا في المحل الأول للأفكار والحركات القائمة على
 أساس من التمثيل الخالق للفكر الغربى بعد تحضير داخلى في النفس
 عميق . أما ما سوى ذلك فسطحي كله . وهما يكن العمل
 دقيقاً وشاقاً فإننا يجب أن نبذل جهدنا لنميز بين ما استورد
 من موارد الغرب الفاسد أكثرها والتى ترحم الآن أسواق الإسلام
 وميادينه تلك التى تقيم الأسس الأولى لبناء ثقافة جديدة . »

وهنا يمس الاستاذ جب قاع المسألة ويتحدث عن التربية والتعليم
 وعن إقامة نظمها في العالم الإسلامى على أسس غربية . وهو في الوقت
 نفسه يتحدث عن الصحافة وعملها وسلطانها في إقامة أساس الثقافة

الجديدة . وهو يقول إن التريه والصحافة ومقومات الحياة كانت أكثرها ترمى إلى التفرقة بين الحياة الزمنية والحياة الروحية الدينية ؛ فليس شيء من شئون هذه الحياة يصح أن تسبغ عليه الطابع الدينى إلا ما كان دينياً بطبعه . وقد استطاعت الثقافة في نظر الأستاذ جب أن تحقق هذه الغاية . يقول الأستاذ : « إذا كان الإسلام كدين لم يفقد إلا قليلا من قوته فهو كنظام للحياة الاجتماعية ؛ قد نزل عن عرشه وقامت إلى جانبه أو من فوقه قوى جديدة لها من السلطان ما يتعارض في بعض الأحيان مع تقاليده وتنظيماته الاجتماعية وهي مع ذلك تقوم في موقف الاحترام منه . ولنصف الواقع في أبسط صورته فالذى حدث هو ما يأتى : إلى عهد قريب كان المسلم المزارع أو ساكن المدينة وليست له مهام ولا واجبات سياسية ، وليس له أدب سهل التناول غير الأدب الدينى ؛ وليس له أعباء ولا حياة عامة إلا ما اتصل بالدين ، ولم يكن يرى من الحياة الخارجية إلا قليلا أو لا شيء إلا من خلال المنظار الدينى . فالدين كان إذن كل شيء عنده . أما اليوم فقد انفسحت مهامه في الأمم التي أصابت حظاً من التقدم ولم يبق نشاطه محدوداً بالدين . فهو يقرأ أو تقرأ له فصول شتى في شئون من كل نوع لا علاقة له بالدين ولا تناقش فيها وجهة النظر الدينية على الإطلاق . ويكون الحكم فيها النظريات ومبادئ لا شأن للدين بها . وهو يجد في كثير من متاعبه ومنازعاته أن لا فائدة له من التقدم إلى المحاكم الشرعية وأنه إنما يقيده قانون مدنى قد لا يعلم من أين يستمد

سلطان نفاذه ولكنه يعلم أنه لا يستمد هذا السلطان من القرآن ولا من السنة . ولم تبق الشؤون الدينية شاغله الوحيد في صلاته بغيره من مواطنيه بل أخذت المشاغل والمهام الزمنية بنظره وتقديره وبذلك خفت سلطة الإسلام في الحياة الاجتماعية وتراجعت شيئاً فشيئاً إلى ميدان من النشاط أشد ضيقاً ، وقد تم كثير من ذلك عن غير وعى وحس ؛ وبين نسبة قليلة من المتعلمين كان الشعور بهذا الذي تم . والذين حاولوا إتمامه عن إدراك وشعور كانوا أقل من أولئك نسبة ، وهنا يجب أن نعترف بأن الأستاذ جب قد لمس الحقيقة كما لمسها من قبل . لكننا نعتقد من فاحيتنا ، مع الاعتراف بما كان لدوافع الحضارة الغربية من أثر في التطور الذي أشار الأستاذ إليه ، أن هذا الاتجاه الحديث الذي تأصل في نواح كثيرة من نواحي الحياة الإسلامية إنما دفع إليه الثورة على الجمود وعلى التقليد الأعمى وعلى الخرافات والأوهام القديمة وعلى هذا الإزدراء بالعقل الإنساني وبحريته مما امتازت به المدرسة العتيقة التي كانت سبباً في تدهور الإنسان وانهيار الشعوب الإسلامية . وليس أدل على ذلك مما لاحظته الأستاذ جب وزملاؤه مؤلفو « وجهة الإسلام » من أن كثيرين من الشبان الذين حملوا ألوان الحضارة الغربية وصاروا يبشرون بها قد عاد الكثيرون منهم يشعرون شعوراً قوياً صادقاً بأنهم في حاجة إلى أكثر مما تقدم الحضارة الغربية به ، وأنهم لذلك يجب أن يلجأوا إلى تراث السلف

من المسلمين لالتباس ما ينقص هذه الحضارة الجديدة . وزادهم شعوراً بهذا النقص أن رأوا الفكرة القومية تقوم في الغرب على نضال اقتصادى عنيف لا يعرف هوادة ولا يقف في وجهه اعتبار من قواعد الخلق أو من الإخاء الإنسانى أو من المودة والرحمة . نضال في سبيل المادة بين أهل البلد الواحد وبين الدول المختلفة هو الذى كان مثار الحروب وثمار أسباب الشقاء والتعس في هذا العصر من عصور الإنسانية . وقد زادت الصناعة التى كانت وما تزال مظمر هذه الحضارة بآلات الحرب بشاعة وقسوة ، فهل ترى يجد العالم الإسلامى في تراث الماضى ما يشفى غلة روحه مما عجزت الحضارة الغربية عن أن تقوم به وما يقيم حياة جديدة وحضارة جديدة ليس فيها هذا الجشع المادى الفظيع الذى يهوى بالإنسان إلى مرتبة لا ترضاها النفس الفاضلة ؟ إن هذا التراث قد اختفى تحت طبقات وطبقات من أباطيل عصور الإنعلال الذى أصاب العالم الإسلامى قروناً متواصلة فليكن من عمل رجال العالم الإسلامى أن يزيحوا أكedاس هذه الطبقات وأن يعيدوا إلى الوجود فى إحدى صور الوجود وعلى طريقة علمية صحيحة ما يشتمل عليه هذا التراث الذى غزا العالم وغذاه بأدوات الحضارة أجيالاً وقروناً طويلة .

عند هذه النقطة يقف العالم الإسلامى اليوم . ومظهرها الصريح الواضح أن أولئك الذين كانوا دعاة الحضارة العربية وحملها أعلامها والذين بلغوا من إدراك حقيقتها أن وقفوا على هذا العجز والقصور .

فيها هم الذين يقومون اليوم بهذه الدعوة ، وكثيرون منهم هم الذين يقومون اليوم بهذا البحث . وأنتك تشعرين شعور الواصل بأنهم سيجدون لأريب في هذا التراث ما يبعث إلى عالم اليوم الراسخ تحت ظلمات المادة ضياء روحياً هم وخدم القديرون على بعثه من جديد لأن اتصاله بروحهم دون روح الغرب هو الذي يذكى ضياءه . ويوم يوفقون إلى هذا فسيستاح للعالم الإسلامي بموقعه الجغرافي بين الغرب والشرق وبين المسيحية والديانات الآسيوية أن يمد يداً إلى ناحية ويد إلى الأخرى ليرتفع بهؤلاء وأولئك إلى ميادين الحضارة الصحيحة . الحضارة التي تدرك وحدة الوجود على وجهها الصحيح . الحضارة التي تقوم على أساس الإخاء وتقول إن المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، الحضارة التي تبث في أنحاء الحياة بسماة السعادة الصحيحة وتضيئه بنور الحق الذي يقف محجوباً بحجب المكان والزمن . الحضارة التي لا تعرف إسلاماً لغير الله ولا تعرف للحق حدوداً ولا لحرية العقل قيوداً . والتي تنير ظلمات العيش بالشفقة والرحمة والإيثار وإطعام المسكين وابن السبيل والمؤاخاة بين الناس جميعاً أياً كانت أجناسهم وعقائدهم والمغفرة للذنوب والمحبة المنبئة في أرجاء الكون كله والتي تندس اليوم إليها هموم المادة فتحيلها عداوة وحسداً وتقيمها كما تقيمها حضارة الغرب على أساس من حرب الطبقات . يوم ينهض الإسلام بهذا العبء العظيم يستمد من ماضيه بعد أن يكشف عن نوره ليضيء العالم كله ، يومئذ يبدأ

العالم يشعر بنعمة السلام الحق المنبعث من أعماق قلوب ملئت رحمة وعظماً ومحبة : أما إلى يومئذ فستظل المادة حاكمة متحركة . وسواء أكان النظام الذى يجعل الحكم للبادة بلشفيماً أم كان نظام رأس المال فالشقاء حتم على الإنسانية لا محالة . ذلك بأن حكم المادة هو حكم الوحشية التى تستطيب الدم والدماء والموت ، أما حكم العقل والروح وما يستمدانه من كل ما فى الكون من مودة ورحمة لحكم الإخاء الذى لا سبيل غيره إلى السعادة والسكينة والنعمة والسلام .

فهرس

٥	مقدمة بقلم الأستاذ أحمد هيك
١٣	الفصل الأول : الشرق والغرب
١٣	١ - في العصور الوسطى
٣٠	٢ - إبان البعث الأوربي
٥٣	٣ - الحضارة الاستعمارية
٧٨	الفصل الثاني : الشرق في طور بعثه
٧٨	١ - أثر الحركات الفكرية في بناء الأمم
١٠٧	٢ - الحرب وحركة التجديد في الشرق
١٢٩	٣ - حضارة الشرق متى تبعث من جديد
١٣٨	الفصل الثالث : البوذية
١٣٨	١ - أصول البوذية
١٥٢	٢ - مميزات البوذية
١٦٢	٣ - النظر
١٧٧	٤ - العمل
١٩١	الفصل الرابع : غاندى
١٩١	١ - غاندى والسلام
٢٢٠	٢ - أساليب غاندى وكيف تخفف التوتر داخلها ودوليا
٢٢٩	٣ - حول الهند
٢٤٦	الفصل الخامس : الإسلام والحضارة الجديدة
٢٤٦	١ - القوة الروحية في الإسلام
٢٥٢	٢ - أوروبا والإسلام ولم لا يتفاهمان
٢٦٧	٣ - وجهة الإسلام

مصادر الكتاب

الفصل الأول : الشرق والغرب

- ١ — في العصور الوسطى :
السياسة الأسبوعية ملحق العدد ٣٢٣٢ في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٣ صفحة ٣٣
- ٢ — إبان البحث الأوربي :
السياسة الأسبوعية ملحق العدد ٣٢٦٠ في ١ نوفمبر سنة ١٩٣٣ صفحة ١٢
- ٣ — الحضارة الاستعمارية :
السياسة الأسبوعية ملحق العدد ٣٢٨٥ في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٣ صفحة ٨

الفصل الثاني : الشرق في طور بعثه

- ١ — أثر الحركات الفكرية في بناء الأمم :
(١) محاضرة أُلقيت بحلب عام ١٩٥٣ بدعوة من دار الكتب الوطنية بها
(ب) السياسة الأسبوعية في ٩ أبريل سنة ١٩٢٧ .
- ٢ — الحرب وحركة التجديد في الشرق :
السياسة الأسبوعية العدد ١٠٣ في ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٨ ص ١٠
- ٣ — حضارة الشرق متى تبعث من جديد :
السياسة الأسبوعية العدد ١٤٧ في ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٨ ص ١

الفصل الثالث : البوذية

- ١ — أصول البوذية :
السياسة اليومية العدد ٢٩٠ في ٤ أكتوبر سنة ١٩٢٣ صفحة ٣
- ٢ — مميزات البوذية :
السياسة اليومية العدد ٢٩٦ في ١١ أكتوبر سنة ١٩٢٣ صفحة ٣

٣ — النظر :

السياسة اليومية العدد ٣٠٨ في ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٢٣ صفحة ٣

٤ — العمل :

السياسة الأسبوعية العدد ٣١٥ في ٢ نوفمبر ١٩٢٣ صفحة ٣

الفصل الرابع : غاندى

١ — غاندى والسلام :

بحث كتب في يناير ١٩٥٣ في ندوة غاندى بالهند .

٢ — أساليب غاندى وكيف تخفف حدة التوتر داخليا ودوليا :

بحث كتب في يناير ١٩٥٣ في ندوة غاندى بالهند .

٣ — حول الهند :

مشاهدات في الهند عقب ندوة غاندى سنة ١٩٥٣

الفصل الخامس : الإسلام والحضارة الجديدة

١ — القوة الروحية في الإسلام :

مجلة الشباب العدد الأول في ١٧ فبراير ١٩٣٦ ص ٧

٢ — أوروبا والإسلام ولم لا يتفاهمان :

مجلة الشباب العدد ٤ و ٧ و ١٢ في ٩ و ٣٠ / ٣ و ٥ / ٦ / ١٩٣٦

٣ — وجهة الإسلام :

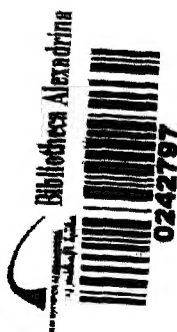
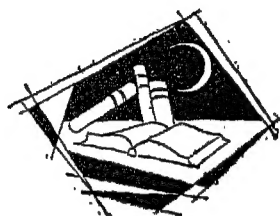
ملحق السياسة رقم ٢١٣١ في ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٣ ص ١٠

استدراك

على الرغم من العناية التي بذلت أثناء طبع هذا الكتاب ، فقد وقعت مع ذلك بعض أخطاء مطبعية لا نخفي على قطنة القارئ الكريم إلا أننا ، لمزيد من الإيضاح ، نرى أن نضرب بعضها هاهنا :

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥	٢	فصول	أجزاء
١٤	١٦	إلى واحدة	لواحدة
٢٣	٢١	يتمتع	يتمتع بها
٣١	٢	الجزء	الجزء الأكبر
٣٦	٨	المتأثيريين	المتأثيريين
٣٧	١٦	مفلًا	مفلًا
٤٩	٦	رينسان	رينان
٥١	١٨	انـكـلـتـرا	فرنسا
٦٩	١٦	بعد	بعد
٦٩	١٧	بعض	بمد
٨١	٢١	العلم	العالم
١٠٠	١٩	مدارج	مدارج الحضارة
١٠٢	٣	المتخلفة	المتخلفة
١١٠	١٩	الحسن	الحس
١١٣	١٩	النواحي	نواحي الحياة
١١٤	٢١	البعث	البحث
١١٨	١٠	السطى	السطحى
١٢٦	٢٠	أدبى	أدنى
١٢٧	١٤	الإدارات	الأدوان
١٣٢	١٤	كانت	كمت

صفحة	سطر	خطاً	صواب
١٤١	٣	للاحضن	لأحضان
١٤٨.	٩	تفكير	تسكير
١٤٩	٧	قوارص	قوارس
١٦٦	١٣	فوق درجة من	فوق درجات أولئك
١٦٧	١١	مستقوى	مستقوى
١٨٧.	١٧	حيواناته	حيواته
١٩٠	١	خالقية	خالقة
٢١٠	٥	غير	نحو
٢١١	١١	تقتنع	تقتنع
٢٣٥	١٦	هذه	هذه المساجد



مطبعة خيمر